ملخص دروس علوم القرآن الكريم

لـ د. محمد سعيد رمضان البوطي

مشاركة: فاطمة حكيمة

(الدرس ٦)

مقدمة: للقرءان مكانة عظيمة في نفس كل مسلم مؤمن بالله تعالى، وما أحوجنا في هذا العصر خاصة إلى الاستئناس بكتاب الله عز وجل عند كل مصيبة ووحشة، وما من مسلم الْتجأ إلى كتاب الله تعالى بقراءة متأنية متدبرة، إلا وأبدل الله عز وجل وحشته أنسا، وما من إنسان ابتلي بالشكوك والريب ففر منها إلى كتاب الله سبحانه وتعالى يتلوه بتدبر وتأمل وبيقين أنه كتاب الله عز وجل، إلا وحرره الله ونجاه من وساسه التي يعاني منها.والقرءان أعظم خطاب شرف الله عز وجل به هذه الخليقة.لكن كثيرون منا معرضون عنه، والله تعالى يقول :"قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون".وكثيرا ما نجد ربط القرءان بالموت والحزن، ونتج عن ذلك استيحاش من كتاب الله عز وجل .

لهذا نريد من خلال هذه الدروس أن نعقد صلة مع كتاب الله عز وجل، ولعلها ساعة تغرس بين جوانحنا علاقة دائمة بكتاب الله عز وجل.

الموضوعات القرءانية خلال هذه الدروس :

في جانب تاريخ القرءان وعلومه ندرس ما يلي:

أولا: نتحدث عن تعريف القرءان ونحلله.

ثانيا: نزول القرءان مفرقا وسبب ذلك.

ثالثا أسباب النزول أي لماذا كان كثير من آي كتاب الله عز وجل لا ينزل إلا بسبب وبمناسبة.

رابعا: كيفية جمع القرءان بهذا الترتيب بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف كتب؟ ومن الذين كانوا. يكتبونه؟ وهل كان ذلك بإشراف رسول الله أم لا ؟.

خامسا: رسم القرءان أي كيفية كتابة القرءان الكريم، والحكم الشرعي في تطور الكتابة .

سادسا: الأحرف السبعة التي نزل بها كتاب الله عز وجل، والقراءات السبعة أو العشرة التي يتلى بها كتاب الله عز وجل، ما معنى ذلك؟

سابعا: المكي والمدني في كتاب الله عز وجل.ما الفرق بينهما من حيث المضمون ومن حيث الزمن.

ثامنا: التفسير نشأته وأنواعه، وضوابط تفسير كتاب الله عز وجل.

تاسعا: المبهم والمتشابه في كتاب الله عز وجل والمحكم والفرق بينها، وموقفنا من هذه الأحكام.

وعن الجوانب الأدبية في كتاب الله عز وجل ندرس :

أولا: أسلوب القرءان وخصائصه بدقة وتفصيل.

ثانيا: ظاهرة إعجاز القرءان، وما دليل كونه معجز إن كان كذلك، وما هي الجوانب التي يتجلى فيها إعجاز. كتاب الله سبحانه وتعالى.

ثالثا: موضوعات القرءان، أي أهم ما تحدث عنه كتاب الله عز وجل.

رابعا: التصوير في كتاب الله عز وجل، والقرءان وهو يخاطبك ينقل إليك حقيقتين، صورة يضعها في مخيلتك.، ومعنى يبثه في عقلك.

خامسا: الأمثال في كتاب الله عز وجل ندرسها دراسة علمية أدبية.

سادسا: القصة في كتاب الله عز وجل، وسبب وجودها، وأسلوب القرءان في القصة.

سابعا: المنهج التربوي في كتاب الله عز وجل.

ثامنا: النزعة الإنسانية ،وخطاب الله عز وجل بعيدا عن الطائفية والعنصر، أحيانا يتسامى فوق فوارق الدين.

تاسعا: فلسفة القرءان عن الكون والإنسان والحياة.

عاشرا: نطرح السؤال التالي: هل يمكن أن يترجم القرءان إلى أية لغة أخرى أم لا؟

ونسأل الله تعالى أن يجعل رحلتنا هذه في علوم القرءان سببا لإشراق هداية وعرفان في قلوبنا ونفوسنا، وأن يجعل ذلك سببا إلى ارتفاع إلى شأو أرفع مما نحن فيه، من مستوى العبودية لله عز وجل، والإصغاء إلى أوامر الله سبحانه وتعالى.

القسم الأول: في جانب تاريخ القرءان نتحدث عن ما يلي :

أولا: تعريف القرءان

"القرءان هو اللفظ المعجز الموحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم، المتعبد بتلاوته والواصل إلينا عن طريق التواتر "

وكلمة معجز تعني أن ألفاظه أعجزت الإنسان عن أن يأتي بمثله، يمكن من ناحية البلاغة العربية، أو المضمون أي القواعد العلمية الموجودة فيه أو التشريع، أو عن طريق المغيبات.

وكلمة الموحى به تعني تلق منه عليه الصلاة والسلام لحقيقة خارجة من كيانه، عن طريق جبريل، ليس له سبيل إلى جلبها إليه، ولا إلى ردها عنه.هذا هو الوحي.

ومعنى المتعبد بتلاوته: هذا هو الفرق بينها وبين السنة والتي هي أيضا وحيا من الله تعالى، إلا أن القرءان يتعبد بألفاظه، بينما السنة لا يتعبد بتلاوة ألفاظها.وكل حرف من القرءان لك به عشر حسنات.وفي قراءتك لأحاديث المصطفى لك ثواب من ناحية أخرى، وهي أنك تحاول أن تتمرس بمعرفة ما يقوله رسول الله حتى تنفذ أوامره، وهذا علم نتقرب به إلى الله عز وجل.وفي تدبر القرءان واستخراج علومه أجرا أيضا، حيث قال المصطفى صلى الله عليه وسلم :" لا أقول ألم حرف بل أقول "أ" حرف و"لام" حرف و"ميم" حرف "

ومعنى وصوله إلينا عن طريق التواتر: أي هذه الآية لا تعد قرءان إلا إذا تبين لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نطق بها، وأن الذين رووا هذه الآية من فم رسول الله أعداد كبيرة من الصحابة، ورووها بدورهم لأعداد كبيرة من التابعين، وهكذا إلى أن كتب القرءان ووزع في الأمصار.هذا هو معنى وصول القرءان إلينا عن طريق التواتر، وهو خبر لا يتأتى لك إنكاره.وإذا وصلت إلينا عبارة قيل أنها قرءان لكن لم تصل عن طريق التواتر لا نقبلها قرءان، رغم أنه حديث صحيح، عندها يطبق كحديث

ثانيا: نزول القرءان منجما أو مفرقا وسبب ذلك

هذا شيء لا شك فيه، وقد أجمع عليه العلماء والمؤرخون وعلماء القرءان، ونزول القرءان دام مدة ثلاث وعشرون سنة، من أول آية إلى آخر آية وهي في قوله تعالى :" وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ "

لماذا شاء الله عز وجل أن ينزل على رسوله صلى الله عليه وسلم القرءان مفرقا؟

3 ـ لنعود في الجواب على هذا السؤال فيما يقوله كتاب الله في قول البارئ عز وجل :" وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا" وقال أيضا:"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا" الآيتان تنطقان بأن القرءان لم ينزل كله دفعة واحدة، وتبين لنا الآية الثانية الحكمة من ذلك أيضا، حيث أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يتلقى الأذى من المشركين، لا سيما في مكة، فتصوروا أن القرءان كله نزل في بياض يوم واحد، ثم انقطع الوحي عن رسول الله، وأسلم لهذا الإيذاء الذي ينتابه من كل جهة وأنواعا وأشكالا، لزج

ذلك رسول الله في حالة من الوحشة وهو بشر. إذا من حكمة رب العالمين ومن لطفه ورحمته برسوله، أن جعل القرءان ينزل تباعا طوال حياة رسول الله الدعوية إلى الله، ليلقى أنسه الذي يقاوم وحشة الأذى الذي يناله من هؤلاء المارقين والجاحدين والكافرين.مثلا عندما يتلقى الأذى فيأتيه الوحي :" فاصبر كما صبر ألو العزم من الرسل " كل الأذى ينسى، أو لما يأتيه الأذى كما علمنا كروب مما كان يصيبه صلى الله عليه وسلم، ويأتيه قوله تعالى :" فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ"ينتعش رسول الله ويفرح.إذا القرءان هو رفيق رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلته الدعوية إلى الله عز وجل،ومن تما كانت هذه الآيات التي تنزل عليه إتباعا تخفف من وطأة الأذى،وتنعشه وتؤنسه.

2ـ هنالك حكم أخرى أيضا في نزول القرءان مفرقا منها، أن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، كان أميا حيث قال تعالى عنه :" وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ " وتوفي كذلك أميا، أي أنه لم يكن يملك الضوابط التي يضبط بها كتاب الله، لنتصور أنه أنزل عليه دفعة واحدة، كيف يمكنه استيعابه، وهو بشر، ويوما نزلت آيات على رسول الله وأخذ يستعجل خوفا من أن تلِّد عن دهنه، فأنزل عليه البارئ قوله :" لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ"

3ـ القرءان جاء مجملا في أحكام الشريعة الإسلامية، والسنة فصلت وزادت الأمر بيانا، يا ترى أيهما يتناسب مع رحمة الله بنا، أن ينزل القرءان كله دفعة واحدة، وإذا بالعرب الذين كانوا معتادين على التفلت وحرية التصرف كما يشاءون، وفي بياض يوم واحد أصبحوا مقيدون بأتم معنى الكلمة بطائفة طويلة من الواجبات، وطائفة طويلة جدا من المحرمات كلها في وقت واحد، أكان هذا يتناسب مع ما نعرفه من لطف الله ورحمته في عباده ؟؟ أكيد لا، فكان من مقتضى رحمته بنا أن تنزل الآيات متفرقة، وهكذا تأتي الأوامر متفرقة يوما بعد يوم وبتالي يسهل تطبيقها، وهكذا ينضبط الناس ويتقيدون بأوامر الله عز وجل.وما يعينهم على ذلك معرفتهم لله وحبهم له.لذلك السيدة عائشة تقول فيما يرويه البخاري عنها قالت :" كان أول ما نزل من القرءان آيات من سورة النور من السور المفصلة نزلت في مكة فيها ذكر الجنة والنار" ولو كان أول ما نزل الحلال والحرام مثلا في ترك الخمرة لما استجابوا وغيرها من النواهي، لكن الله عز وجل أخذ العرب شيئا فشيئا، حيث كان أول ما نزل في الاعتقاد، بتصحيح عقائدهم تجاه الكون والإنسان والمكون.حتى إذا أيقنوا بوجود

الخالق وهيمن إيمانهم به على عقولهم ثم سرى عاطفة إلى قلوبهم، حان بعد ذلك أن يتلقوا النصائح من الله عز وجل.

4 ـ اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون أكثر الأحكام في الشريعة الإسلامية التي تلقيناها اليوم أجوبة عن أسئلة أو حلولا لمشكلات وهذه أيضا من ألطاف الله سبحانه وتعالى، أي إذا أراد البارئ أن ينزل حكما لتحريم أمرا من الأمور، لا ينزله هكذا، بل يهيئ جوا يستشعر فيها المسلمين بوجود مشكلة لم تعد تتناسب مع آداب الإسلام، فيسألون المصطفى صلى الله عليه وسلم ما حكم هذه العادة التي نحن نمارسها الآن.فيأتي الجواب من عند الله سبحانه وتعالى، ويتضمن الحكم وبتالي يتمسكون به.لهذا نجد القرءان مليء بالأسئلة والأجوبة مثلا في قوله تعالى :" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ " مثال أخر في قوله تعالى :" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ " والناس تتلقى هذا بالقبول عندما يستشعرون المشكلة، وذكر البارئ الأذى قبل الحكم.وفي قوله تعالى :" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" وغيرها من الآيات.

إن كان من رحمة الله تعالى ولطفه أن يجعل طائفة من أحكام الشريعة منوطة بأسئلة هؤلاء الناس، هذا يقتضي أن تكون الأحكام متفرقة، وبتالي الآيات التي تتضمن هذه الأحكام ينبغي أن تكون أيضا متفرقة.

كذلك هنالك أحكام ربنا سبحانه وتعالى ما أنزلها إلا بعد أن شعر المسلمون من أصحاب رسول الله بمشكلة، فجاءوا يشكون أمر هذه المشكلة لرسول الله مثلا في قوله تعالى :" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ " فجواب الله تعالى كان تمهيدي، قامت بعد ذلك مشكلة أخرى، حيث أن زيد من الناس كان يصلي وقد شرب الخمرة فلم يقرأ القرءان جيدا بسبب السكر، فجاءوا يسألون المصطفى صلى الله عليه وسلم لما شعروا بتناقض بين الخمرة والصلاة، جاء الجواب من الله عز وجل :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ" وأخيرا أنزل الله عز وجل الحكم الأخير في قوله تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ". الآيات التي أنزل الله عز وجل فيها أحكاما شرعية بناءً على مشكلات شعر بها

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء الجواب حكما شرعيا أثلج صدورهم لأنهم وجدوا فيه حلا لمشكلاتهم، هذا النوع من الأحكام كثيرة جدا.كلها أحكام المقصود منها أن تتهيأ نفوس هؤلاء لقبولها، وأن يتحولوا من ماض من التفلت دون أي قيد، إلى عهد جديد يتقيدون به بأوامر الله سبحانه وتعالى.والهياج النفسي يتغلب دائما على القرار العقلي، لهذا فإن تطبيق الأحكام يستلزم تهيئ النفوس لقبولها من حب وتعظيم لله تعالى.

5 ـ الحكمة الأخيرة هي أن الله عز وجل شاء أن تكون في القرءان آيات ناسخة وآيات منسوخة، منها مثلا من أول ما نزل هو أمر الرسول في اتجاهه في صلاته إلى بيت المقدس، ثم نسخ فيما بعد في قوله تعالى :" قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ " يقتضي الأمر بين هذا الحكم والذي سبقه مدة زمنية، وهكذا في كثير من الأحكام كهذه.

(الدرس 2)

ثالثا: أسباب النزول أي لماذا كان كثير من آي كتاب الله عز وجل لا ينزل إلا بسبب وبمناسبة.

في هذا الموضوع نتناول الحكمة من نزول آيات بأسباب ونطلع على نموذج من هذه الآيات التي نزلت لأسباب، ونتحدث عن أهمية علم أسباب النزول ومدى احتفال واهتمام علماء القرءان وعلماء التفسير بأسباب النزول.

ـ آيات القرءان بالنسبة لأسباب النزول تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول: آيات يخبرنا الله عز وجل من خلالها بأحداث وقعت أو قصص أو يخبرنا عن أمور ستقع يوم القيامة ،أي آيات تتضمن أخبارا فقط ولا تتضمن لا أوامر ولا نواهي،هذا القسم من الآيات الغالب أنها كانت تنزل بدون سبب.

القسم الثاني: آيات تتضمن أحكام شرعية من حلال وحرام المكروه والواجب وأحكام العبادات والمعاملات وغيرها، الغالب في هذا النوع من الآيات أنها لا تنزل إلا بمناسبة.

ما الحكمة من هذا التفريق بين آيات القرءان؟ إن الآيات التي تتضمن أخبارا أو قصص هي آيات لا تحمل الناس مسئولية، وإنما تطلعهم ما قد حدث لهم في سابق الأزمان من سيرة بعض لرسل والأنبياء مع أقوامهم، فنزول هذه الآيات بمناسبة أو غير مناسبة فإن هذا لا يؤثر في الناس، بمعنى لا ترهقهم ولا تحملهم عنتا، أما الآيات التي تتضمن أحكاما هي آيات تحملنا مسئولية لهذا

نزلت في مناسبات بمعنى يرجئ الحكم الشرعي إلى أن تقع مشكلة تلفت أدهان الناس إلى أنها مشكلة تحتاج إلى حل، عندئذ تتهيأ أذهان الناس لتقبل الحكم الأتي بما لا يرهق الناس في تحملها وتقع منهم موقع القبول، وهذا من لطف الله تعالى بعباده.

أمثلة لآيات نزلت بمناسبة:

مثال 1 :هنالك رجل من قبيلة غطفان كان له ابن أخ يتيم وله مال كثير، وكان هو المشرف على ماله، كبر هذا الولد اليتيم وبلغ سن الرشد، فطلب ماله من عمه، لكنه أبى أن يعطيه المال، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندها النبي سكت لم يبين رأيه، بعد قليل نزل قول الله سبحانه وتعالى :" وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا "هذه الآية تتضمن حكما وهو أن الطفل إذا بلغ سن الرشد ينبغي أن يعطى ماله، ولا يجوز أن يخلط الولي ماله بمال هذا اليتيم، وينهى عن أكل الولي مال اليتيم.هذه المناسبة جعلت الأذهان تتقبل هذا الحكم.

مثال 2: رجل كان تحت ولايته فتاة يتيمة، بلغت سن الرشد لها مال، وكان يأتيها الخطاب يخطبونها فكان يصرفهم طمعا في مالها، هذه المسألة رفعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندها النبي لم يحر جوابا فأنزل الله عز وجل جوابا :" وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا " أي إذا رأيتم أن نفوسكم تشرئب إلى على تسلط إلى مال اليتامى من الفتيات وتريدون أن تتزوجوهن رغبة في أموالهن، ابتعدوا عنهن ولكم في النساء وفي الفتيات الأخريات غَنَاءً عنهن، ولكم أن تتزوجوا بدل الواحدة اثنتان أو ثلاثة أو أربع لكن بشروط.وعندئذ أعرض ذلك الرجل عن ذلك الأمر وتزوجت ورفع شأنه عنها. تلاحظون أيضا أن هذا السبب الذي اقتضى نزول هذه الآية والتي تضمنت حكما.

تقبل الناس لقبول حكمين عند ظهور سببين لذلك أكبر بكثير مما لو فوجئ الناس بهذين الحكمين بدون مناسبة.

مثال 3: روى البخاري في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه أنه كان مريضا، عاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر فوجداه لا يعقل، لشدة مرضه وارتفاع حرارته فدعا

رسول الله في ماء وتوضأ به وجمع الماء، ثم رشا به على جابر رضي الله عنه ،ويقول جابر عندها أفقت، فقال: كيف أصنع في مالي يا رسول الله ؟

فأنزل الله عز وجل قوله :" يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا" هذه الآية تتضمن الوصية والميراث أيضا.ونسخت الوصية للوارث بآيات الميراث بالآيات التي نزلت،ولقول رسول الله:" لا وصية لوارث "

وأظهر الحديث أيضا جواز استعمال ماء وضوء من إنسان صالح لمريض ما، كما فعل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.وهذا اسمه تنقيح المناط، مثلا سيدنا رسول الله كان دائما يتوضأ بماء المطر، ويأتي سائل يقول إذن الرسول لم يتوضأ بماء الينابيع أو ماء البحر، وهنا نستعمل ما يسمى تنقيح المناط أي الفارق زائل بين ماء السماء وماء البحر أو الينابيع.

مثال 4: "أبي بن خلف" من صناديد الشرك، ومن أشد أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان بينه وبين رجل من المشركين اسمه " عقبة ابن أبي معيط " صداقة بل تحالف، "عقبة ابن أبي معيط "أقام في داره وليمة بمناسبة من المناسبات ودعا أناس، منهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، دخل رسول الله الدار وأُوتي بالطعام، لكن سيدنا رسول الله أبى أن يمد يده إلى الطعام إلا إن تشهد شهادة الإسلام، فتشهد عقبة شهادة الإسلام، عندها بدأ رسول الله يأكل مع القوم، كان أبي بن خلف غائبا آنذاك، عاد إلى مكة قيل له إن صاحبك قد صبأ أي أسلم، فعاد إليه يقول أصحيح أنك قد صبأت ؟؟ فقال لا، لكن الرجل قد دخل داري، وأبى أن يأكل طعامي إلا إن شهدت شهادة الإسلام، فأحببت أن أطيب خاطره بهذه الكلمة.فقال له :" ما أنا بالذي يرضى منك ذلك أبدا، ووجهي من وجهك حرام إن لم تلقى محمدًا وتبصق في وجهه وترد له دينه " تربص "عقبة ابن معيط " وانتظر حتى رأى رسول الله في الطريق، وفعل ما أوصاه به شيطانه " أبي ابن خلف " وبصق في وجهه.يروي الضحاك أن بصاقه هذا ارتد على وجهه نارا وشطر شطرين في خده بقيا إلى مماته.هذه الحادثة أنزل الله عز وجل بها آية فيها تعليمات وتربية، ويقول الله عز وجل :" يَوْمَ

يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا" يبين لنا بيان الله عز وجل أنه لا يجوز للإنسان أن يصطفي صديقا أو صاحبا أو خليلا يرديه ويشقيه، بل ينبغي أن يتخذ الصديق الذي يفيده ويحسن إليه ويوصله إلى مرضات الله تعالى.

مثال 5: إن " عبد ابن أم مكثوم " الضرير وهو أحد مؤذني رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان في طريقه فسمع رسول الله يتكلم مع أناس، حيث كان الرسول مع بعض صناديد المشركين، من أصحاب المرتبة العالية، والرسول كان متأملا أن يجذبهم إلى الهداية، "عبد الله ابن أم مكثوم" جلس معهم للاستفادة من رسول الله، فخطر في باله سؤال فدخل وسأل النبي صلى الله عليه وسلم سؤالا، النبي عليه الصلاة والسلام اجتهادا منه لم يجبه، اي لم يرد أن يشعر هؤلاء الناس أنه قد تحول عنهم خوفا من أن يمتعضوا ويذهبوا، هدف سامي من رسول الله، ولعله تصور أن ابن أم مكثوم من أهل البيت وهو دائما بالمسجد، ويمكن أن يجيبه المصطفى عندها بكل ما يريد.لكن هذه الحادثة كانت مناسبة لبيان بنزول آيات أيضا تتعلق بمبدأ تربوي، أنزل الله عز وجل على المصطفى قوله :" عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ " هذه الآيات هي تربية لنا جميعا، وكل داعية عليه أن يضع هذه الآيات نبراسا أمام عينيه.والله تعالى يبين هذا في آيات أخرى في قوله تعالى :" وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا" حيث أن بعض صناديد قريش قالوا لرسول الله أن يجعل لهم يوما خاص وأن لا يجلسهم مع هؤلاء الفقراء، وقبل أن يقرر رسول الله أنزلت تلك الآيات السابقة.هذا منهج لدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، منهج أنزله لمناسبة تجعل قلوبنا تتجه لقبولها وتطبيقها.

مثال 6: في حكم الظهار الذي أنزل في حق خوله زوجة أوس ابن الصامت التي جاءت تشكوا لرسول الله أمرها، في قوله تعالى :" قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌوَالَّذِينَ

يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ "إذن المسألة ليست طلاق كما اجتهد رسول الله، فاستدعاها وبين لها أن هذا ظهار والحكم كدا وكدا.

إذن معرفة أسباب النزول ذا أهمية قصوى، وتأتي هذه الأهمية من حيث كون أسباب النزول مصباح هام لتفسير كتاب الله عز وجل.مثلا البارئ عز وجل يقول في كتابه :" وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " الآن نحن لا نعلم سبب نزول هذه الآية، في بادئ الأمر نتصور أن هذه الآية تعني أن الإنسان إذا أراد أن يصلي فله أن يتجه أي الجهات شاء.لكن لنعد إلى أسباب النزول نجد، أن أناس جن عليهم الليل، حيث كانوا في سرية أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يعلموا جهة القبلة حيث أرادوا أن يصلوا فاختلفوا بينهم، وصلى كل واحد حسب اجتهاده.وعندما عادوا جاءوا إلى رسول الله يسألونه عن ما حدث، فأنزل الله هذه الآية في حقهم.الحكم لمن جن عليه الليل ولم يعلم اتجاه القبلة.

اهتم علماء القرءان بمعرفة أسباب النزول، ومن أجل ذلك ألفت كتب خاصة في أسباب النزول.وممن ألف في أسباب النزول شيخ الإمام البخاري " علي ابن المدينة " أيضا "الإمام الواحدي" له كتاب كبير في أسباب النزول، حيث فصل في السور وآيات منها وبين أسباب نزولها والسند المعتمد عليه في أسباب النزول.و"الحافظ ابن حجر العسقلاني " له مؤلف في أسباب النزول و" الإمام السيوطي ".وأسباب النزول من مفاتيح معرفة المعاني القرءانية.هذا الذي قلناه يوضح لنا شيء وهو أن آيات القرءان الكريم عندما كانت تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن تنزل على الترتيب الذي نراه في المصاحف اليوم لكونه ينزل في مناسبات.ولكن في علم الله كان بهذا الترتيب الذي نراه ونزل جملة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا بهذا الترتيب، لكن لما نزل من جبريل إلى رسول الله كان ينزل حسب مناسبات، وحسب تأهل الناس لقبول الأحكام والعقائد أيضا قبلها.

رابعا: كيفية جمع القرءان بهذا الترتيب بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف كتب؟ ومن الذين كانوا. يكتبونه؟ وهل كان ذلك بإشراف رسول الله أم لا ؟.

الترتيب كان الرسول مشرفا عليه بإيعاز من جبريل عليه السلام، حيث أنه كلما أنزل جبريل بآية قال إن الله يأمرك أن تضع هذه الآية على رأس كدا آية من سورة كدا، فيأمر رسول الله كتاب الوحي أن يفعلوا ذلك.

ورد في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مع أصحابه ذات يوم حيث صوب رأسه وصمت قليلا، ثم قال أتاني جبريل ثم أمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من سورة كذا، وهي :" إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"الآية 90 من سورة النحل " وهكذا كانت توضع الآيات تباعا في أماكنها، وتضيق الثغرات بين الآيات شيئا فشيئا، إلى تسع ليالي قبيل وفاة رسول الله لم تبقى إلا ثغرة واحدة بين آيتين، فسدت هذه الثغرة بآخر آية نزلت علي سيدنا رسول الله.

يروي القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنه قال :" آخر ما نزل من القرءان قول الله سبحانه وتعالى :" وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ "قال جبريل عندما نزل بها إلى رسول الله: يا محمد ضعها على رأس ثمانين ومائتين من سورة البقرة، فوضعها هناك " وبذلك سدت ثغرات القرءان، ورتب هذا الترتيب الذي نراه، وبعد تسعة أيام توفي الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم.البعض يقول أن آخر آية هي قوله:" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.."هذه آخر آية من آيات الأحكام هنالك آية في سورة البقرة معناها نسخ بآية أخرى.حيث كانت عدة المرأة المتوفى عنها زوجها سنة، لكن الله خفف وجعل العدة أربعة أشهر.الآية الأولى هي قوله تعالى :" وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ " جاء ابن الزبير يقول لسيدنا عثمان :" لماذا تبقى هذه الآية في التفسير وقد نسختها الآية الأخرى؟ " فقال :" يا ابن أخي أنا لا أغير آية عن مكانها الذي أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ".هكذا فإن ترتيب القرءان عند وفاة رسول الله كان قد تكامل.وأيضا بالنسبة لترتيب السور فإنه توقيفي وليس اجتهادا من رسول الله.والبسملة أيضا توقيفي حيث كلما نزلت سورة أنزل في فاتحتها البسملة.وعند الشافعية وكثير من الفقهاء أن البسملة جزء من سورة الفاتحة، وعند السادة الأحناف البسملة عند فواتح السور لتبرك فقط، وإنما هي جزء من سورة النمل.

أما الجواب عن سؤال: ومن الذين كانوا. يكتبونه؟ وهل كان ذلك بإشراف رسول الله أم لا ؟.

فكما نعلم أن رسول الله كان أميا، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام اصطفى لنفسه نخبة من أصحابه سموا كتاب الوحي، فكان عليه الصلاة والسلام يأمرهم إذا نزلت آية أن يكتبوها للتو، وكانوا يكتبونها وهم أمناء على هذا الذي يأمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم.أشهر هؤلاء الخلفاء

الأربعة، وأبي ابن كعب هذا معتمد في قراءة القرءان و"زيد ابن تابت" و"معاوية ابن أبي سفيان "و"المغيرة ابن شعبة" و"الزبير ابن العوام" وآخرين مثل " شرحبيل ابن حسنة" و" عبد الله ابن رواحة" وغيرهم من كتاب الوحي.إذن لما توفي المصطفى صلى الله عليه وسلم كان القرءان كله قد كتب، لكن كان مكتوبا على نثار من صحاف عظام ولخاف وسعف النخل ورقاق هي أنواع من الحجارة الملساء وغير ذلك.أي لم يكن مكتوبا بين دفتين كما هو الآن.وبعد وفاة رسول الله وجاءت خلافة أبو بكر وقعت مشكلة اقتضت إعادة كتابة القرءان لكن مجموعا بين دفتين، وهذا ما اقترحه سيدنا عمر على سيدنا أبا بكر، فتردد أبا بكر... وهذا ما سنبينه في حديث رواه البخاري وما حدث في عهد سيدنا عثمان. (الدرس 3)

نحن نريد الآن أن نتتبع كيفية وصول القرءان إلينا، كي نعلم أنه وصل إلينا عبر نفق دقيق وهذا كله مصداقا لقوله تعالى :" إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "، بعدما نصب سيدنا أبا بكر خليفة لرسول الله بعد وفاته، وقامت معركة اليمامة والتي قتل فيها كثير من الصحابة ومنهم حفظة كتاب الله سبحانه وتعالى، جاء سيدنا عمر إلى أبي بكر يقترح عليه أن يعاد كتابة القرءان بين غلافين مجتمعا ومنضبط، هذا الاقتراح فاجأ سيدنا أبا بكر وفي بادئ الأمر خشي أن يفعل ذلك.لكن الواقع الإمام البخاري روى تفصيل ذلك من" زيد ابن الثابت" لأن كل من سيدنا عمر وأبا بكر استدعيا زيد للقيام بذلك، لنصغي إلى ما قاله " زيد ابن الثابت " عن ذلك :" أرسل إليَّ أبا بكر بُعَيْدَ مقتل اليمامة، فإذا عمر ابن الخطاب عنده.قال أبا بكر :" إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرءان وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في مواطن أخرى، فيذهب الكثير من القرءان، وإني أرى بأن تأمر بجمع القرءان، قلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر :" هذا والله خير.فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، فرأيت في ذلك الرأي الذي رآه عمر.ثم قال لي أبا بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرءان فاجمعه.يقول زيد: فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرءان.فتتبعت القرءان أجمعه من صحف ولخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع " أبي خزيمة الأنصاري " لم أجدها مع أحد غيره في قوله:" لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ"

فكانت الصحف التي كتبها زيد عند أبا بكر حتى توفاه الله، ثم كانت عند عمر حتى توفي، ثم كانت عند حفصة بنت سيدنا عمر. إذا سيدنا زيد عمد إلى ما كان مجموعا في بيت النبوة ،فجمعه وكتبه على الجلد وجمع بين دفتين.

روي عن الليث ابن سعد رضي الله عنه قال :" أول من جمع القرءان أبو بكر وكتبه زيد " والحارث المحاسبي رحمه الله تعالى يقول في كتابه فهم السنن :" أول من كتب القرءان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو زيد ابن تابت " وكذلك ابن أبي دؤاد في كتابه المصاحف عن طريق هشام ابن عروة عن أبيه :" أن أبا بكر قال لعمر وزيد اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشهيدين بشيء من كتاب الله فاكتباه "فهذه الأحاديث بينت المعنى المراد فاجمعه.

الشيء الثاني الذي ينبغي التنبه إليه، وجود إشكال لدى البعض، قد يقول قائل بحثت عن لآيات الأخيرة من خواتم سورة التوبة فلم أجدها إلا عند أبا خزيمة الأنصاري، كيف ذلك والقرءان كله مكتوب في بيت النبوة فما معنى هذا الكلام؟ سيدنا زيد وهو حافظ القرءان لم يكن يكتب آية إلا اعتمادا على طريقتين، طريقة الكتابة اعتمادا على ما كان موجودا في بيت النبوة من كتاب الوحي، وطريقة المشافهة والقراءة.أي يكتب الآية بعد أن يستو تق منها كتابة وسماعا.وآخر سورة التوبة موجودة في بيت النبوة لكنه يريد أن يسمعها من حفظة كتاب الله سبحانه، والحافظ لها هو أبا خزيمة وهوأي زيد لكنه هو كاتب ينبغي أن يعتمد على شهادة أخرى.

بقي الأمر كذلك طوال خلافة أبا بكر، وطوال عهد سيدنا عمر، وفي صدر يسير من عهد سيدنا عثمان.لكن الذي حصل أنه في يوم من الأيام أن جاء سيدنا "حذيفة ابن اليمان" من العراق حيث كان مع جيش المسلمين الذين يغزون أرمينيا وبلاد ما وراء النهر حيث أن معظمهم أعاجم إلى سيدنا عثمان فقال له :" أدرك المسلمين قبل أن يختلفوا في كتاب الله أي قراءة القرءان كا اختلاف اليهود والنصارى " حيث سمع أناس يقرؤون القرءان لكن كل وطريقته وهم أعاجم.لانعدام مصحف إمام يلجئون إليه.

فاهتم سيدنا عثمان بالأمر اهتماما شديدا، وهذا من ضمن الأعمال الجليلة التي اعتمد عليها سيدنا عثمان وهو :

سرعان ما شكل سيدنا عثمان لجنة متكونة من " زيد ابن تابت " و " عبد الله ابن الزبير" و " سعيد ابن العاص " و " عبد الرحمان ابن حارث ابن هشام " لجنة رباعية، وأمرهم أن يكتبوا سبع

نسخ من المصحف على ضوء الكتابة التي كتبها زيد نقلا من ما كتبه كُتاب الوحي أثناء حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.ثلاثة منهم قرشيين أما زيد لا، قال لهم إذا اختلفتم في كتابة آية فاكتبوها برسم قريش فإنما نزل القرءان بلغتهم.وفعلا اختلفوا في كلمة التابوت في قوله تعالى :" وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ " زيد ابن تابت قال تكتب التاء مربوطة، والآخرون قالوا لا التاء مبسوطة أي مفتوحة، وجاءوا إلى سيدنا عثمان فقال لهم تكتبوها بتاء مبسوطة لأن هذا هو الرسم المعتمد عند القرشيين.وكتبت هذه المصاحف في عام 25 للهجرة ووزعها سيدنا عثمان على أمهات البلاد الإسلامية التي استقر بها الإسلام، وأمر الناس حيثما وجدوا أن يتبعوا هذه النسخ ، ومن أراد أن يكتب فليكتب على ضوء النسخة الإمام، وأمر بحرق كل ما قد كتبه الناس على ضوء محفوظاتهم الشخصية.

ما الفرق بين عمل سيدنا أبا بكر وسيدنا عثمان؟

أولا: السبب فيما أقدم عليه سيدنا عثمان هو ما رآه في اختلاف بعض لناس في البلاد البعيدة في قراءة القرءان على اثر اتساع الفتوحات.في حين أن الدافع الذي دفع أبا بكر إلى ما فعل هو مجرد حفظ أجزاء القرءان من أن يتناثر بعضه.

ثانيا: سيدنا عثمان اعتمد على لجنة مكونة من أربعة أشخاص، أما سيدنا أبا بكر اعتمد على شخص واحد وهو زيد ابن تابت لاشتهاره في الدقة في حفظ القرءان، وهو الذي عرض عليه رسول الله القرءان عرضة أخيرة، وأمر أصحابه أنه من شاء أن يسمع القرءان كما أنزل فليسمعه من فم زيد ابن تابت، لهذا كان هو المتقدم على غيره في هذا الأمر.

ثالثا: الصحف التي جمعت في عهد سيدنا أبي بكر رضي الله عنه بقيت في بيت النبوة، فهي خاصة لبيت النبوة ثم من بعد الخلافة ، أما ما فعله سيدنا عثمان فالناس، لهذا وزعها حيث أبقى واحدة عنده والبقية واحدة للبصرة وأخرى في الكوفة، ونسخة في الشام واليمن ومكة والبحرين ومصر.ويقول ابن كثير في كتابه البداية والنهاية في القرن الثامن أن أحد هذه المصاحف موجودة في الجامع الكبير في مكان كدا والزاوية كدا...

هذا ما يمكننا قوله في جمع القرءان في عهد رسول الله والخلفاء، حيث تما العمل الأول في عهد رسول الله والثاني في السنة 12 للهجرة، أما عمل سيدنا عثمان فكان في عام 25 للهجرة.

بالنسبة لصحف التي كانت عند حفصة من عهد رسول الله حيث كانت ضمينة لها،لكن في عهد"مروان ابن الحكم" أقنعها وأخذها منها فأحرقها.ولما قيل له بذلك قال :" خشيت أن يأتي عهد يقول فيه بعض الناس أن هذه الصحف التي كانت من عهد رسول الله يمكن فيها شيء مختلف عن ما كتبه سيدنا عثمان، فهذا يحدث بلبلة فلذلك فإن مقتضى ما أوصى به سيدنا عثمان أن نتلف كل شيء ما عدا هذه النسخة المعتمدة " وهذا اجتهاد سليم في مكانه.ويقول سيدنا علي رضي الله عنه :" لو كنت وليا للأمر في عهد سيدنا عثمان لفعلت الذي فعله سيدنا عثمان " أي توزيع هذه النسخ في أمهات الدول الإسلامية وحرق بقية المصاحف التي لم تكن معتمدة من طرف رقابة دقيقة.

يقول ابن كثير :" أما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند ركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله "

ندرك من هذا كله مصداق ما قاله الله عز وجل في محكم تبيانه :"إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " ووصل إلينا هذا الكتاب عبر نفقين اثنين، الكتابة التي بدأ ينبوعها من بيت النبوة، ثم وسيلة السماع والتلقي.أو نقول أن كتاب الله وصل إلينا من فم رسول الله متواترا.وعندما نسمع المصحف العثماني يقصد المصحف الذي ينتسب إلى هذه المصاحف السبعة.

خامسا: رسم القرءان أي كيفية كتابة القرءان الكريم، والحكم الشرعي في تطور الكتابة .

نتساءل كيف كانت تتم كتابة الوحي؟ وهل بقيت كذلك إلى يومنا هذا؟ الجواب

الرسم القرءاني له معنيين :

- المعنى الأول كتابة القرءان بدون شكل ولا تنقيط، هكذا كانت الكتابة في عصر الصحابة والتابعين ويقرءونه اعتمادا على سليقتهم العربية الأصيلة الراسخة التي لم تكن تسربت إليها العجمة بعد.

الطريقة الثانية التلقي حيث لم يكن الرجل من الصحابة يعتمد في قراءته للقرءان على الكتابة فقط وإنما يعتمد على الكتابة والسماع.

- أما عن جانب الإملاء، نزل القرءان على اللغة القرشية اقتضى ذلك أيضا أن يكتب القرءان على قواعد الإملاء القرشية.هنا نتساءل هل يجوز تطوير الإملاء؟ جمهور العلماء قالوا لا.حيث سئل الإمام مالك هل يجوز أن نكتب القرءان بطريقة التي ألت إليها كتابة للغة العربية؟ قال: لا إلاَّ على

الكتبة الأولى.وهكذا عن جميع العلماء.أولا هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك الصحابة ساروا على نفس المنوال، ولا ضرورة تستدعي التغير.القرءان نتلقاه بالسماع أولا ثم القراءة ثانيا.

أما الرسم وهو التشكيل والتنقيط فقد دخله التطوير لضرورة، وهي انتشار العجمة وتقلص ملكة اللغة العربية.وهذا ما حصل في عهد التابعين، وأول من أقدم على ذلك "أبو الأسود الدؤلي"طلب منه أمير وهو زياد ابن أبيه" قال له أن الناس بدأت تخلط في القرءان بودنا طريقة لضبط القراءة.فأبى ذلك قائلا أن هذا اقتحام لما لم يفعله رسول الله، وهو ليس بحاجة إليه كونه عربي متقن للغة العربية.فدخل يوما إلى بيته فقالت له إحدى بناته " ما أجملِ السَماءِ " قال: نجومها.قالت: لا أنا أريد أن أعبر بإعجابي بالسماء.قال: قولي " ما أجملَ السماءَ.ثم قال أوَ دخل اللحن بيت أبو الأسود الدؤلي.وعندئذ اهتم بالأمر، وذهب إلى " زياد ابن أبيه " وقال سأفعل الشيء الذي طلبته مني.

(الدرس 4)

ـ القرءان ينضبط بضابطين هما: ضابط الإملاء الذي لم يتطور، وضابط النقط والتشكيل الذي خضع لتطوير.

كما تحدثنا أن " زياد ابن أبيه " طلب من " أبو الأسود الدؤلي" تشكيل وتنقيط القرءان، وهذا من التابعين وهو يعتز بكلمات أملاها عليه سيدنا " علي ابن أبي طالب " رضي الله عنه، وهي أم القواعد العربية كلها في النحو وهي: أن الفاعل مرفوع والمنصوب مفعول والمضاف إليه مجرور والتابع له حكم متبوعه.وكان ضمينا أن يعطيها لأحد، فعلم " زياد ابن أبيه " أن " أبو الأسود الدؤلي" يملك هذه الأمهات من القواعد التي أملاها له سيدنا علي.ورأينا كيف كان ردة فعل أبو الأسود، ورأينا سبب تراجعه.ورواية أخرى تقول أنه يوما كان يسير بإحدى سكك المدينة فسمع من يقرأ قول الله سبحانه وتعالى :" أن الله بارئ من المؤمنين ورسُولَهُ " وهو يقرأها ورَسُولِهِ.وفي هذا تغير للمعنى.وهذا ما جعله يقبل عرض زياد.وحادثة ابنته.وربما كلاهما صحيح.

وطلب من زياد أن يختار له كاتبا ماهرا ذكيا، فأرسله إليه وأخذ يبين له ما يصنع فقال له :" إن رأيتني فتحت فمي بكلمة فأنقط نقطة في أعلاها، وإن رأيتني ضممت فمي فأنقط نقطة إلى

جانبها، وإن رأيتني كسرت فأنقط نقطة تحته، وأخذ يقرأ أبو الأسود وذلك الكاتب ينقط كما علمه حتى أتم كتابة القرءان، هذا أول تحسين داخل القرءان من حيث ضبط الكلمة من حيث الإعراب.

هنالك رواية تقول أن " يحي ابن يعمر"هو أول من نقط القرءان يبتغي من ذلك الشكل وليس" أبو الأسود الدؤلي " وهذا يحي توفي عام 129 للهجرة أي بعد أبو الأسود الذي توفي عام 69 للهجرة.وهناك من قال أن " نصر ابن عاصم الليتي"هو الذي فعل هذا وكان في عهد الحجاج.ولا إشكال حيث أن"يحي ابن يعمر"هو تلميذ لأبو الأسود " والراجح أن يحي كان في مرو من بلاد فارس سمع بما فعله أستاذه أبو الأسود ففعل مثل ذلك في مرو، أما " نصر ابن عاصم الليتي" فقد أقدم على تحسين آخر.

ـ الواقع أن " الحجاج ابن يوسف الثقفي "لاحظ أن هنالك إشكالا آخر بدأ يتسرب إلى ألسن الناس وإلى أذانهم بسبب انتشار العجمة، وأصبح من الضروري التفريق بين الأحرف المعجمة والأحرف المهملة مثل ج ح خ ف ق ص ض اختلطت هذه الأحرف على الناس ولم يعد سياق المعنى كافيا كما كان،فكلف الحجاج " نصر ابن عاصم " بأن يضبط هذه الحروف، وعمد عاصم إلى التفريق بين الأحرف المعجمة والمهملة بإشارة معينة، ثم تكامل الأمر في عهد " الخليل ابن أحمد الفراهدي" وهو أول من وضع موازين الشعر، وهو الذي جعل الشكل المعروف الآن من كسرة وضمة وفتحة لبيان الإعراب، وأخذ التنقيط الذي وضعه أبو الأسود لدليل على الإعراب، وضعه لتفريق بين الأحرف المعجمة والمهملة.وهكذا تكامل ضبط القرءان من حيث الشكل ومن حيث الإعراب في عهد الخليل ابن أحمد الفراهدي.

ـ بعد هذا التحسينات التي تتعلق بتيسير السبيل إلى قراءة القرءان كثرت منها ما يتعلق بإشارات الوقف، إشارات الابتداء، إشارات تجزئ الجزء إلى أحزاب، إشارات السجدة في آياتها ونحو ذلك، كل هذا تكامل بتدريج حتى تكامل مع نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث ووصل إلى أوجه.

ما هي حدود التحسينات الجائزة في شريعة الله سبحانه وتعالى؟ وما التحسينات التي ينبغي أن لا نتجاوز فيها هذه الحدود؟ الجواب الإملاء لا ينبغي أن نغير منه شيئا.

كل التحسينات التي تدخل في ضبط إعراب الكلمة، وفي ضبط الحرف كل هذا سائغ وجائز، وكذلك الإشارات المتنوعة التي ذكرت.وإذا تجاوز التحسين هذا فإن ذلك داخل فيما قاله جمهور

الفقهاء أنه لا تجوز الزيادة على ذلك، مثلا تلوين القرءان بالأخضر والأصفر والأحمر كثير من الفقهاء من لم يجز ذلك ،وهو تفنن لا يعين على شيء.

قواعد التجويد لا يمكن فهمها عن طريق الرموز المكتوبة، وإنما نتلقاها سماعا من إدغام وإخفاء والإظهار...

سادسا: الأحرف السبعة التي نزل بها كتاب الله عز وجل، والقراءات السبعة أو العشرة التي يتلى بها كتاب الله عز وجل، ما معنى ذلك ؟

هنالك عدة أحاديث تبين معنى كلمة الأحرف السبعة أولها حديث رواه مسلم عن أبي ابن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في مكان اسمه "أضات بني غفار"قرب مكة فأتاه جبريل فقال له :" إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرءان على حرف أي لغة واحدة " فقال له رسول الله :" أسأل الله مغفرته وعافيته إن أمتي لا تطيق ذلك " لما أنزل القرءان بالجزيرة العربية كان العرب منقسمين إلى اثنا عشرة لهجة، وهي متباعدة بعضها عن بعض، إلى درجة أن في تلك اللهجات أصحابها إذا تكلموا لم يفهم منهم أصحاب اللهجة الأخرى.

فغاب سيدنا جبريل، ثم أتاه ثانية فقال له :" إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرءان على حرفين " فقال صلى الله عليه وسلم :" أسأل الله معافاته ومغفرته إن أمتي لا تطيق ذلك " فجاء بعد ذلك فقال :" إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرءان على ثلاثة أحرف " إلى أن جاء أخيرا فقال :" إن هذا القرءان نزل على سبعة أحرف فاقرأه بأيها شئتم فأيما حرف قرؤوه عليه فقد أصابوا" هذا الحديث مصدر ما نعبر عنه بالأحرف السبعة، وهو يدل على أن الرجل العربي في عصر رسول الله له أن يقرأ القرءان باللهجة التي نزل بها وهي لهجة قريش، وله أن يقرأه بلهجة أخرى إلى سبع لهجات، وهي رخصة التي جاءت بسبب سؤال رسول الله.هذه الرخصة بها تبدلات منها المد يتغير من لهجة إلى أخرى، وفي تشكيل الحروف يوجد اختلاف أيضا، ويصل الأمر إلى تغير في الكلمة مثل :" إلا صيحة واحدة " ويقرأها صاحب قبيلة أخرى :" إلا زقية واحدة " وهكذا.وهذا الأمر لم يستمر حيث أنه في آخر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض الرسول القرءان على " أبي ابن كعب " وعلى " زيد ابن تابت " مرتين وأمر أن يقرؤوا القرءان كما يقرأه " زيد ابن تابت " أو" أبي ابن كعب" أي هذه اللهجات التي رخص الله سبحانه وتعالى لرسوله وأصحابه القراءة بها لم تستمر إلى يومنا هذا بل نسخت، وبقي منها:

(أن كل لهجة من اللهجات مندرجة في الرسم القرءاني مقبول إلى يوم القيامة، وكل لهجة من اللهجات لا يقبله الرسم القرءاني هذا نُسِخْ). لهذا نحن اليوم نسمع عن قراءات متنوعة والتي هي عبارة عن لهجات مختلفة متنوعة وكلها مندرجة برسم القرءاني أي بقي ما يقبله الرسم القرءاني، ويشترط لقرءا نيتها الشروط التالية :

1 . أن تكون وصلت إلينا من فم رسول الله عن طريق التواتر.

2 ـ أن تكون هذه اللهجة مندرجة في الرسم.

3 . أن تكون هذه القراءة لها وجه عربي سائغ.

وهذه تسمى قراءات وعددها عشرة وصلتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم.وعلينا أن نفرق بين الأحرف السبعة التي نسخت، والقراءات المتعددة التي نسمعها من قراء القرءان والتي بقيت إلى قيام الساعة، وهي عزيمة وليست رخصة.

(الدرس 5)

القسم الثاني: علوم القرءان

معنى علوم القرءان :هو ما يتضمنه القرءان من علوم مختلفة تمثلت بعد عصر النبوة في المكتبة العربية التي ورثها أجيال المسلمين كابرا عن كابر إلى يومنا هذا.يروي البيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال :" من أراد العلم فليثور القرءان (أي ليدرس القرءان ويدخل في عمق القرءان وآياته) فإن فيه علم الأولين والآخرين " وعلق البيهقي قائلا إنما أراد ابن مسعود أصول العلم.

وهناك من اعترض قائلا كيف تحملون القرءان المحدود الصفحات كل العلوم ؟؟ أجاب العلماء عن هذا التساؤل، قالوا :" نعم القرءان عبارة عن معين لسائر العلوم، لكن بوجهين اثنين:

الوجه الأول :أن هنالك بعضا من العلوم فعلا القرءان هو مصدرها مثلا اللغة العربية وما فيها من نحو وصرف وبلاغة من بديع ومعاني وبيان وعلم التوحيد وعلم التفسير علم الفقه علم أصول الفقه... و هنالك علوم القرءان يشتمل على مفاتيحها وعلى أصولها، ويبصرك على دراستها ومعرفتها وتبين تفاصيلها، دون أن يصاحبك في هذا الطريق إلى النهاية، مثل علم الفلك، علم الطب وعلوم كونية مختلفة.

الوجه الثاني :هو أن القرءان نبه العرب والمسلمون إلى ضرورة الإقبال إلى العلوم المختلفة، وكما نعلم أن القرءان هو أول مدونة وهو الذي جعل العرب يتعشقون العلوم والمعارف، وجعلهم يعكفون

على سائر العلوم.ونلاحظ أبرز العلماء من العرب منهم أبن النفيس الذي برع في الطب واكتشف الدورة الدموية بدقة، وقد كان فقيها شافعيا، والذي دفعه إلى دراسة الطب هو القرءان.ويقول عن نفسه :" أنه إذا غمض عليه أمر وتعقدت له المسألة ولم يتأتى له الوصول إلى حقيقتها، ترك ما هو بصدده وقام فصلى ركعتين بخشوع ثم أقبل إلى الله سبحانه وتعالى يستنزله الفتح، ويسأله أن يعلمه ما لم يعلم " ويتلقى الجواب عن سؤاله هذا.

معنى علوم القرءان اصطلاحا : في عصر الصحابة ما وجد مصطلح علوم القرءان، والصحابة إذا استشكلوا أمرا في القرءان عادوا إلى رسول الله ليوضحه لهم و إلى كبار الصحابة.في عصر التابعين أقبل كثير من العلماء إلى تفسير القرءان وأساتذتهم في ذلك هم الصحابة منهم" مجاهد ابن جبر"و " سعيد ابن جبير" و " عكرمة مولى سيدنا عبد الله ابن عباس " و "عطاء ابن أبي رباح" و"الحسن البصري" هؤلاء كلهم اهتموا بدراسة تفسير القرءان كعلم من علومه، وتولد عن التفسير فنون أخرى منبثقة منه مثل فن الناسخ والمنسوخ وألفت كتب لذلك.فن المكي والمدني وألفت كتب أي الفرق بين السور التي نزلت قبل الهجرة والتي نزلت بعد الهجرة، وموضوعات كل منهما، فن المحكم والمتشابه والمبهم في كتاب الله عز وجل، والمحكم هو الذي لا احتمال لتأويله ومعناها واضح بين ،والمتشابه هي الكلمات التي يتجاذبها أكثر من معنى على مستوى واحد،والمبهم هي الكلمة التي معناها غامض، فن القراءات .إذن المعنى الاصطلاحي لكلمة علوم القرءان والذي ولد في أواخر عصر التابعين هو هذه العلوم الملتصقة بكتاب الله عز وجل.

هنالك من قال أن الإمام الشافعي هو أول من أبدع المعنى الاصطلاحي لعلوم القرءان، لقد اتهم الإمام بالتشيع في عصر الرشيد فاستقدم حيث كان في اليمن، وأخذ يحاوره ومما سأله الرشيد: ماذا تعلم من كتاب الله؟ فقال: أي كتاب الله يعني أمير المؤمنين؟ قال: أحسنت، إنما أردت الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.قال: أي العلوم تعني؟ فإن لهذا الكتاب علوما كثيرة.لهذا تصور البعض أن الذي أبدع هذه العلوم الخاصة هو الشافعي، والله أعلم.

أولا: علم التفسير :

معنى التفسير: فهم كتاب الله تعالى وبيان معانيه واستخراج أحكامه.الصحابة فعلوا ذلك، والتابعين أيضا وهؤلاء دونوا هذا التفسير.

(الدرس 6)

أدوات تفسير كتاب الله :

ـ من آليات هذا التفسير علم اللغة بكل ما فيها من صرف وبلاغة بأنواعها الثلاث.

ـ علم أصول الفقه وفيه بحث مهم جدا وهو قواعد تفسير النصوص.

ـ علم القراءات، لأن تعدد القراءات كثيرا ما يستتبع تعدد المعاني

الفرق بين التفسير والتأويل: من الناحية اللغوية بين الكلمتين فارق :

ـ كلمة التأويل تعني كما قال الإمام النووي في كتابه تهذيب الأسماء واللغات "هو عبارة عن صرف الكلام عن معناه الظاهر إلى معنًا آخر يحتمله بموجب دليل قطعي في الأمور القطعية، أو بموجب دليل ظني في الأمور الظنية " أي لا نفسر الكلمة في القرءان بالمعنى الحقيقي، بل نفسرها بالمعنى المجازي.والذي يصرفنا إلى ذلك بدليل إما قطعي في أمور العقائد أو ظني في أمور الأحكام.مثل قوله تعالى :" حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ" تفسير الآية بمعناها الحقيقي أي نأخذ خيط أبيض وخيط أسود ونضعهما إلى جانب بعض وننتظر إلى أن يبزغ الفجر، وطالما كان السواد يمنعك من أن تفرق بين الخيطين إذا الفجر لم يبزغ بعد، وإذا رأيت أن ضياء قد انتشر في الأفاق وأصبحت به تفرق بين الخيطين إذا بزغ الفجر.لكن علماء تفسير النصوص واعتمادا على الآليات التي ذكرت عرفوا يقينا أن هذا ليس هو المعنى المراد فجنحوا إلى إخراج هذه الكلمة عن معناها الحقيقي إلى المعنى المجازي، حيث عندما يبزغ الفجر تجد في جهة الشرق خيط أبيض امتد أفقيا، وهو يطارد سواد الليل الباقي وهو المعني بالخيط الأسود، وإذا تبين لك هذا الخيط الأبيض وهو يتعالى في الأفق وقد لاح لك الفرق بينه وبين الظلام إذا قد دخل الفجر.عرفنا هذا من سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، حيث أن أحد الصحابة لما نزلت هذه الآية كان يفهم معناها الحقيقي، لما علم بذلك سيدنا رسول الله قال له :" إنك لعريض القفا ليس هذا هو المعنى المراد" وبين له المعنى الحقيقي.ونحن هنا ذهبنا إلى التأويل لمعرفة معنى السورة.

كلمة التفسير هي عبارة عن الوسيلة التي بها تصل إلى فهم معاني كتاب الله سبحانه وتعالى، إن عن طريق الحقيقة أو عن طريق المجاز.

العلماء قالوا أن العلاقة بين التأويل والتفسير هي علاقة بين العموم والخصوص والمطلق، والكلمة العامة هي التفسير، أما كلمة التأويل لا تستطيع أن تسمي عملك في فهم القرءان تأويلا إلا إذا

أخرجت الكلمة عن معناها الحقيقي وقصدت بها معناها المجازي،لهذا فإن كلمة التأويل خاصة.وكل تأويل تفسير، ولكن ليس كل تفسير تأويل

ـ شاع في صدر الإسلام وبعده استعمال كلمة التأويل بمعنى التفسير، واستعمال كلمة التفسير بمعنى التأويل.أي المعنى العلمي سقط، لكن بالنسبة للمعنى اللغوي باق.مثلا النبي عليه الصلاة والسلام دعا لسيدنا العباس فقال :

" اللهم علمه التأويل " وقصد بذلك عموم ما يسمى تفسيرا.

ننتقل إلى جواب عن سؤال

رُبَى سائل يقول إذا كان القرءان كلام الله تعالى المنزل خطابا لعباده، إذا ينبغي أن يكون هذا الخطاب غنيا عن التفسير؟ الجواب على هذا السؤال من عدة وجوه

الوجه الأول: أن معظم آيات كتاب الله عز وجل تحمل معنا سطحيا واضحا مكشوفا يدركه الكل، وتحت هذا المعنى يوجد معنى آخر لا يدركه إلا المثقفون، وتحته أيضا معنى أعمق لا يدركه إلا أصحاب الاختصاص بهذه المسألة التي يخاطبنا بها الله سبحانه وتعالى، ومن تما كانت الحاجة إلى تفسير كتاب الله عز وجل لكي نتجاوز المرحلة السطحية إلى المرحلة التي تليها، وربما إلى المرحلة الثالثة التي تليها أيضا.

أمثلة: البارئ سبحانه وتعالى يقول :" تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا " الآن الرجل العامي العربي يعلم معناها السطحي، حيث يعلم أن السراج هذه الشمس الوضاءة، وأن القمر منيرا، ولهذا المعنى السطحي معنا آخر أعمق نرجع إليه في التفاسير، لما رجع وجد أن كلمة السراج تعني الشيء الذي ينبثق النور من داخله نقول له سراج أو مضيء، ونقول عن شيء منير إذا كان الضوء ينعكس عليه من جرم آخر.وعلم هنا أن ربنا يقول أن الشمس ضوءها منبثق من داخلها، وأما القمر فنوره منعكس عليه من جرم آخر.وأراد التعمق أكثر فرجع إلى كلام المفسرين الذين يبالغون في استخراج المعاني العميقة لكتاب الله عز وجل مثل تفسير أبي فخر الرازي، أبي سعود، وإذا به يجد نفسه أمام معنا آخر: الشيء تسميه سراجا إذا كان يبث مع الضياء حرارة، وتقول عنه منيرا إذا كان لم يكن يبث مع الضياء حرارة.

الوجه الثاني: قال العلماء القرءان كلام متكلم لم يصل الناس إلى مراده بسماع منه مباشرة، بخلاف كل فنون الكلام الأخرى.هذا الفرق يجعلنا نرهب من اقتحام كلام الله عز وجل بتأويل

والتفسير الذي يمكن أن نتخيله في أذهاننا، لهذا كانت الحاجة إلى وجود أناس متخصصون في قواعد اللغة العربية، وقواعد تفسير النصوص وما إلى ذلك لتفسير كتاب الله سبحانه وتعالى، لهذا نجد سيدنا أبو بكر يقول :" أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم " لأنه كلام من لا سبيل للوصول إليه ولم يسمع منه مباشرة وهو إلهًا وليس كائنا مثلي حتى أقيس كلامه على كلامي.

لقد شاع في هذا الزمن ما يسمى بالقراءة المعاصرة أي قراءة القرءان التي تصطحب تفسيرا غير التفاسير السابقة التي اعتمدها أصحاب رسول الله والتابعون، ثم دُوِّنَ ذلك ووصل إلينا.هؤلاء المعاصرين يجلس الواحد منهم ليخربش بما يشاء على كتاب الله سبحانه وتعالى، هذا نتيجة الاستخفاف بكتاب الله عز وجل وازدراء له.ودليلنا على صدقهم أو عدمه هو سلوكهم ومدى التزامهم بأوامر الله عز وجل، ومدى انضباطه بآداب الشريعة الإسلامية.

الوجه الثالث: للحاجة إلى التفسير أن القرءان لا يحوي علما واحدا، وإنما هي علوم شتى منها مبادئ العقيدة، ومبادئ الشريعة من أحكام الفقه في العبادات الطهارات المعاملات...، يحوي القرءان التوجيهات الأخلاقية وغيرها يحوي هذا كله بعبارات مركزة، ويقدم لك خلاصة لكل علم من هذه العلوم.ومن أراد التعرف على تفاصيل هذه العلوم هنا يحتاج إلى التفسير.مثلا: آية في سورة البقرة من خمسة أسطر تقريبا، عن ظاهرها فأي عربي يفهم معناها وهي قوله تعالى :" وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" العربي باللسان يفهم ظاهر الآية، ونقول أن الآية حوت ستة وعشرين حكما والتي لا يمكننا إدراكها إلا بالتفسير، الذي يعتمد في تفسيره على أذوات منها علم اللغة العربية بكل فروعها، وعلم البلاغة من معاني وبيان وبديع، وعلم قواعد تفسير النصوص، وعلم القراءات، وعليه أن يكون على بينة بسنة رسول الله، لأن في كلامه ما هو تفسير لهذه الآيات.

الوجه الرابع: أنه عندما نقول أننا بحاجة إلى التفسير لا نعني به شرح كلمة،بل يتعدى ذلك إلى وجوه من الاستنباطات،قد تكون من علوم الفلك أو علوم الجيولوجيا من علم النفس.وهذا لن يتأتى إلا للمتخصص في التفسير.

(الدرس7)

نشأة التفسير وتطور منهجه :

ـ نشأ التفسير في صدر الإسلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ولم يكن يسمى آنذاك علما، وأول المفسرين وسيدهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الصحابة يأخذون منه ما غمض عليهم من تفسير آيات كتاب الله سبحانه وتعالى.وأسئلتهم قليلة حيث كانوا إذا احتاجوا سألوا لرهبتهم من سيدنا رسول الله، والأعراب كانوا يسألون أي شيء حيث لم تهيمن رهبة رسول الله في قلوبهم، والصحابة يفرحون لمجيئهم لأنهم يسألون، أما الصحابة يسألون في الأمور المهمة خاصة ما يتعلق بالعقيدة أو السلوك.

الطبقة الأولى من المفسرين: وهم من الصحابة، حيث أخذوا ما أخذوا من التفسير مما قاله رسول الله، وما لم يسألوا فيه رسول الله اعتمدوا على ملكتهم اللغوية، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون، ثم سيدنا " عبد الله ابن عباس " الذي دعا له رسول الله أن يعلمه التأويل و"عبد الله ابن مسعود" و"زيد ابن تابت" و"ابي ابن كعب" و"أنس ابن مالك"... والصحابة كانوا متفاوتين في تفسير كتاب الله عز وجل، تماما كما كانوا متفاوتين في معرفة الفقه.حيث منهم المنشغلين بدنياهم ولا يتأتى لهم الجلوس إلى رسول الله الساعات الطوال لتلقي العلم، واحتاجوا إلى رفقائهم من الصحابة سواء في الفقه أو تفسير كتاب الله.هؤلاء الصحابة النخبة كان في مقدمتهم سيدنا "عبد الله ابن عباس" وكان أكثرهم تفسيرا أطولهم عمرا، وكان " عبد الله ابن مسعود " يسمي "عبد الله ابن عباس" ترجمان القرءان.التفسير في هذه الفترة كان شفهيا.

ـ في المرحلة الثانية تأتي طبقة التابعين وهم ينقسمون إلى ثلاثة فئات :

فئة سيدنا "عبد الله ابن عباس" وفئة سيدنا "عبد الله ابن مسعود"وفئة سيدنا "أنس ابن مالك" وكل فئة أخد منها مجموعة من التابعين، أقواهم هي فئة :

سيدنا "عبد الله ابن عباس": تتلمذ على يده "مجاهد ابن جبر" و "سعيد ابن جبير" و" عكرمة مولى "عبد الله ابن عباس"و " طاووس ابن كيسان" و " عطاء ابن أبي رباح "، من هؤلاء كان "مجاهد ابن جبر" كاتبا حيث تمكن من كتابة القرءان كله مفسرا مأخوذا من "عبد الله ابن عباس"

فئة سيدنا "عبد الله ابن مسعود": كان مقيما بالكوفة تتلمذ على يده " علقمة ابن قيس" و"إبراهيم النخعي" من أصحاب "الإمام أبا حنيفة" و"الأسود ابن يزيد" و"الإمام الشعبي" كلهم من كبار المفسرين.

فئة سيدنا "أنس ابن مالك": من تلامذته " زيد ابن أسلم "و " قتادة ابن دعامة السنوسي" و " الحسن البصري" و"عطاء ابن أبي سلمة".

الفرق بين هذا العصر والذي قبله أنه بدأ فيهم من يكتب، لكنها كتابة مبتورة أي ليست بين غلافين، وتفسير هؤلاء التابعين احتضن قضايا تتعلق بالقراءات، وقضايا تتعلق بالعقائد، وأخرى تتعلق باللغة العربية.وهذا ما لم يكن في عصر الصحابة.

الطبقة الثالثة: هم العلماء الذين نضج التفسير في عصرهم، ومن أبرز علماء هذه الطبقة " سفيان ابن عيينة" له تفسير موسوعة لكن لم يصل إلينا، و "وكيع ابن الجراح" و " شعبة ابن الحجاج" هؤلاء هم الذين دونوا وكتبوا لكن مدوناتهم لم تصل إلينا، إلا أن تلميذا لهم جمع ما كتب هؤلاء وهو "ابن جرير الطبري" وهو أقدم تفسير مدون وصل إلينا وهو نتاج تفاسير الطبقة الثالثة وزاد عليها أيضا، ووضع لذلك منهاجا ووسع في تفسيره، حيث تحدث عن القراءات واللغة العربية.... وتميزت تفاسير الطبقة الثالثة بنخل الأحاديث التي وردت من التابعين، والسبب أنه في عصر الصحابة لا مشكلة كلهم عدول، وفي صدر عهد التابعين كذلك، لكن لما اتسعت الفتوحات الإسلامية وتسلل إلى الساحة الإسلامية أناس مُزَيفُون ومُزَيَفُون شأنهم الدس في التفاسير ما لم يصح لا عن الصحابة ولا عن كبار التابعين، فكانت مزية التفاسير التي دونت في هذا العصر أنها نخلت الرويات السابقة وميز ما بين الصحيح وغيرها، و"ابن جرير الطبري" وضع سلم السند.في مقدمته يوضح أنه لم يعتمد ولم يدون تفسيرا لآية من كتاب الله عز وجل مرويا عن الصحابة أو مباشرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وذكر الإسناد كاملا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويذكرنا بالقاعدة القائلة "من أسند فقد أسلمك " ومن السند تعرف صحة الحديث أو عدمه.

في هذه الفترة كان علم التفسير يحوي كل ما يتعلق بتفسير كتاب الله تعالى، من قراءات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمكي والمدني ومعاني الآيات والنواحي البلاغية والنحوية أي الاختصاص الدقيق ما كان موجودا.

4 ـ وجود الاختصاصات الدقيقة: حيث وجد من عكف على الناسخ والمنسوخ في القرءان الكريم، ووجدت مؤلفات تتعلق فقط بالقراءات، ووجد من العلماء من عُني باللغة العربية واهتم بتفسير كتاب الله بما يتعلق باللغة العربية، ووجد من اهتم بالأحكام الفقهية....

مذاهب التفسير: هنالك مذهبان تبلور كل منهما فيما بعد وهما

مذهب التفسير بالمأثور :أصحاب هذا المذهب ألزموا أنفسهم أن لا يزيدوا في تفسير القرءان على ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو ورد عن أصحاب رسول الله بطريق التابعين، أما ما وراء ذلك مما يمكن أن يستنبطه الإنسان بملكته العلمية أو اللغوية أو الفقهية وقفوا عند ذلك ولم يتجوزوا هذا الحد، هذا النهج يسمى التفسير بالمأثور،وأول من سلك هذا المذهب "الإمام ابن جرير الطبري"لهذا نجد تفسيره كله عن ما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم،سار على هذا المنوال"ابن كثير"

مذهب التفسير بالرأي: معناه أن علماء التفسير بالرأي أخذوا ما دونه علماء التفسير بالمأثور وزادوا عليه ما يمكن أن يستنبط عن طريق قواعد تفسير النصوص، من الكتب التي سار أصحابها على هذا النهج "الإمام الرازي" في تفسيره المسمى "مفاتيح الغيب" تفسيره هذا فيه فلسفة وعقيدة وقضايا علمية مختلفة إلى جانب ما قد تجده من المأثور المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، تفسير "أبي السعود" و " تفسير القاضي البيضاوي"كلهم ساروا على هذا المنوال.

الجامع المشترك بين المذهبين هو عدم الخروج على ما قد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أحد من أصحابه في تفسير آية من الآيات.والنبي عليه الصلاة والسلام حذرنا من أن نسلك مسلك الاعتماد على أمزجتنا في التفسير.

(الدرس8)

شروط تفسير كتاب الله عز وجل: هنالك عدة شرائط ينبغي ملاحظتها وهي :

1 ـ أن لا يخالف تفسيره لآية ما في كتاب الله عز وجل آية أخرى، والقرءان يفسر بعضه بعضا.مثال: في قوله تعالى :" يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ " ويقول :" وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ

قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "من المعاصرين من يفسر القرءان حسب مزاجه ويقول عن معنى الآية، أن البارئ يضلُ من يشاءَ أن يُضَلَ، ويهدي من يشاء لنفسه الهداية.حيث جعلوا فاعل يضل ويهدي الإنسان، ضنا منهم أنهم خرجوا من إشكال كيف أن الله يعذب من أضله.لكن هذا التفسير يناقض كلام الله عز وجل، حيث يوجد بالقرءان أكثر من آية ترد على هذا التفسير، حيث يقول تعالى :" من يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ " الذي يشاء هو الله تعالى.ويقول تعالى أيضا :" إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ " إذن الله تعالى هو الهادي وهو المضل.

2 ـ أن ينضبط المفسر في تفسيره لآيات الله تعالى بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن وجد حديثا صحيحا أو حسن لرسول الله يفسر الآية، فلا يجوز له أن يخرج عن ذاك التفسير الذي قاله رسول الله، وخاصة ما يتعلق بالأحكام من أوامر ونواهي، حيث يقول الله تعالى لرسوله :" وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ "وآيات الأحكام أنزلت مجملة، ونعود إلى رسول الله في تفصيلها.

ـ ونأخذ بالحديث الضعيف احتياطا عندما يكون موضوع الحديث متصل بمسألة داخلة في فضائل الأعمال، مثلا الصوم، الذكر، صيغة من صيغ الصلاة على رسول الله... وهي أمور ثابتة سواء صح الحديث أم لم يصح.وبالنسبة لتفسير كتاب الله ورد في تفسيرها حديث ضعيف الحيطة هو ترك الحديث حتى تثبت صحته.

النبي عليه الصلاة والسلام قال لنا في هذا الشرط :" من قال في القرءان برأيه فليتبوأ مقعده من النار" وعن هذا المعنى أيضا قال سيدنا أبا بكر :" أي أرض تقلني وأي سماء تضلني إن أنا قلت في القرءان ما لا أعلم "

3 ـ الانضباط والالتزام بما ورد من الصحابة في تفسير هذه الآية، إن لم يجد ما ورد عن رسول الله في تفسيرها.عليه أن يبحث فيما ورد من الصحابة بسند صحيح ويأخذ بها، إلا إذا اختلف الصحابة، عندها على المفسر أن يختار من بين أقوال هؤلاء الصحابة ما طاب له، ولا يخرج عن آرائهم.

4 ـ الالتزام بقواعد اللغة العربية، من نحو وصرف وبلاغة، يروي البيهقي في سنده عن " مالك ابن أنس " رضي الله عنه يقول :" لا أُوتَى برجل غير عالم بعلم لغات العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا" أي أنزلت عليه عقابا يجعله عبرة للآخرين.من الذين يفسرون القرءان حسب أمزجتهم مثلا في قوله تعالى :" فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ"أي إن لم تأتوا بمثل هذا القرءان ولن تأتوا بمثله فاتقوا النار، نص صريح أن الجاحد مآله أن يعذبه الله بالنار.ويأتي من يقول لا يوم القيامة عذاب الجاحدين والكفار الخزي، أي الواحد منهم يندم ويخجل مما غبر في حياته من أعمال السوء، وندمه هذا يلهب بين جوانحه مشاعر من الأسى، فذاك هو العذاب الذي توعد الله به الجاحدين.هذا المفسر ألقى كلام الله وما تقتضيه قواميس اللغة العربية وراءه ظهريا، وفسر على مزاجه.والنار أبدا لا تعني الخزي.

مثال أخر: الله تعالى يقول على لسان عباده الصالحين يلقنهم كيف يناجون الله تعالى :" رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ" يعني أن الخزي نتيجة الوقوع في النار، إذن هما عذابان.

مثال ثالث: من منحرفو التصوف طاب لكثير منهم أن يفسروا القرءان حسب أمزجتهم مثلا ما قص الله تعالى لنا من خبر الخضر مع سيدنا موسى في قوله تعالى :" فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا " قالوا أن المراد بالغلام النفس الأمارة بالسوء، على الإنسان أن يقتلها، بمعنى يخالفها، هذا تلاعب بألفاظ القرءان وألفاظ اللغة العربية، وهذا يدخل فيمن قال عنهم سيدنا رسول الله :" من قال برأيه في كتاب الله فليتبوأ مقعده من النار ".

5 ـ أن ينضبط هذا المفسر بقواعد تفسير النصوص، حيث أن اللفظ العام يفهم عاما إلى أن يأتي ما يخصصه، اللفظ المطلق يجري على إطلاقه إلى أن يأتي ما يقيده، "وإذا أطلق اللفظ حمل على الفرد الكامل " وهذه من قواعد تفسير النصوص و " اللفظ يدل على معناه بمنطوقه وبمفهومه الموافق، وبمفهومه المخالف " بضوابط وشروط،هذه قواعد التفسير وغيرها كثير.تفسيرك لنص من القرءان أو حديث أو مقولة فقهية ينبغي أن تنضبط بقواعد.وهنالك علم خاص يسمى علم قواعد تفسير النصوص، وربما سمي بعلم أصول الفقه.

مثال لتفسير آية، في قوله تعالى :" أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا " قد يستشكل أحدا قائلا أن هنالك تناقض، حيث الخضر يقول أن هناك ملك ظالم كلما مرت سفينة من عنده أخذها ،ثم يقول أردت أن أعيبها، سواء أعبتها أم لا سيأخذها.الجواب عن هذا قاعدة هي :" إذا أطلق اللفظ حمل على الفرد الكامل" أي يأخذ كل سفينة صالحة، لا عيب فيها.

ملاحظة: وجد ما سمي اليوم بالقراءة المعاصرة أقحمت في علم تفسير القرءان ولم تتواجد في غيره من العلوم، كل هذا من أجل تفريغ القرءان من مضامينه، ونجعله مخلاةً لنملأ به ما نشاء من أفكارنا، ومن الدجل الرخيص.

(الدرس 9)

ثانيا: المكي والمدني :

اهتم علماء القرءان بالبحث في القرءان المكي والقرءان المدني والفرق بينهما وخصائص كل منهما، والصحابة اهتموا بأكثر من ذلك حيث عنوا بالآيات التي نزلت بالليل والتي نزلت في النهار، واهتموا بأماكن نزولها أيضا، وجعلوا من تلك الأماكن ذكريات نزول تلك الآيات.كل هذا لاهتمامهم الكبير بكتاب الله تعالى.

تعريف المكي والمدني: هنالك خلاف عند علماء القرءان في تعريف كل من المكي والمدني :

ـ من العلماء من قال :"إن المكي كل ما نزل قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمدني كل ما نزل بعد الهجرة " أي العبرة بالزمن وليس بالمكان.وأصحاب هذا الرأي هو المعتمد.

ـ الرأي الآخر يقول المكي هو كل ما نزل بمكة إن كان قبل الهجرة أو بعدها، والمدني هو كل ما نزل بالمدينة إن كان قبل الهجرة أو بعدها.هذا الرأي يعتمد على الميزان المكاني.

ـ رأي ثالث يقول المكي كل ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني كل ما وقع خطابا لأهل المدينة، والعبرة هنا بالموضوعات.المعتمد هو القول الأول.

عندما نقرأ القرءان بالمعتمد الأول ممكن أن نجد في القرءان سورا كلها نزلت قبل الهجرة مثل سورة "ق" سورة "يوسف"، وممكن أن نجد العكس سورا نزلت بأكملها بعد الهجرة فهي مدنية مثل سورة "البقرة"سورة "آل عمران"، ونجد سورا فيها مزيج من آيات مكية ومدنية مثل سورة "الأنعام" حيث فيها إلا ست آيات نزلت بعد الهجرة.وهكذا.كل هذا ثقافة لا يترتب عليه شيء.

السؤال الوارد: كيف تسنى لعلماء التفسير أن يميزوا السور أو الآيات التي نزلت قبل الهجرة من التي نزلت بعد الهجرة؟ الجواب هم الصحابة واهتماماتهم جعلت هذه المهمة للعلماء من بعدهم مهمة يسيرة.ومما يدل على اهتمام الصحابة في ربط هذه العلاقة الزمنية لآيات كتاب الله عز وجل ما يرويه البخاري في سنده عن "عبد الله ابن مسعود" يقول :" والله الذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله عز وجل إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيما نزلت ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لسرت إليه"

خصائص الآيات المكية والآيات المدنية: أي إذا قرأنا كتاب الله عز وجل كيف نستطيع أن نميز الآيات المكية عن المدنية دون الرجوع إلى كلام أصحاب رسول الله في تواريخها.

ـ الآيات المكية تمتاز بأربع مزايا وهي :

الآيات المكية تتضمن ذكر قصص الأمم الخالية من أقوام مثل هود وقوم صالح ولوط...إلا السور التي تتحدث عن السيدة مريم عليها السلام، وسيدنا عيسى عليه السلام مثل سورة مريم وآل عمران هما سورتان مدنيتان.والكلام عن سيدنا عيسى نزل على رسول الله بالمدينة بمناسبة المناقشة التي امتدت بين رسول الله ونصارى وفدوا من نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تتضمن المناقشة والحجاج مع المشركين في أمر العقيدة، مثل آيات تتضمن الدليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى، مثل قوله تعالى :" قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ" آيات نزلت قبل الهجرة.عندما تجد آيات تتحدث عن بعث الأجساد وتلاقي الأجساد مع الأرواح وتأكيد ذلك، ووصف يوم القيامة، فلنعلم أنها آيات مكية.مثل قوله تعالى :" زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ"وقوله تعالى:" لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ "

الآيات المكية تتضمن تصبير النبي عليه الصلاة والسلام، وتثبيت فؤاده مثل قوله تعالى :" فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ

النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ " ومثل قوله تعالى :" نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ "

من علامات الآيات المكية أنها قصيرة، وذات وقع شديد، وذات موسيقى داخلية رتيبة، ونجد جميع آيات جزء عمَّ من هذا القبيل، سورة الملك وما وراءها، كلها آيات تبعث على الخشية وتشع بالرهبة.مثلا قوله تعالى في سورة الحاقة :" كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ " مضمون الآيات يبعث على الخشية، وفي نفس الوقت تتحدث عن الأمم السابقة.

خصائص الآيات المدنية: وهي التي نزلت بعد هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم :

وهي كل الآيات التي لا تجد فيها هذه العلامات الأربع فهي آيات مدنية.

آيات تتضمن أحكام تشريعات، وأحكام الحلال والحرام، المعاملات...كلها نزلت بعد الهجرة، وآيات الجهاد القتالي أيضا مدنية، مثل قوله تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ "

آيات تبحث في شؤون الحكم بما أنزل الله والشورى.

آيات يغلب عليها أن تكون آياتها طويلة مثل آيات سورة البقرة، وهي عكس الآيات المكية، لأن مضمون الآيات المدنية تحتاج إلى نفس طويل، مثل حكم المداينة، حكم توثيق العقود، أحكام الحلال والحرام.ولكل آيات نوع من البلاغة فيها.

الفائدة من هذا العلم: أهم الفوائد التي نجنيها من هذا :

ـ أن نعلم ما في القرءان من ناسخ ومنسوخ، ولكي تميز بينهما عليك أن تعلم المكي والمدني، وإذا علمت أن هذه الآية نزلت قبل الهجرة، والأخرى بعد الهجرة علمت أن المكية منسوخة، والمدنية

ناسخة.مثل التدرج في تحريم الخمرة.وبعدما كان مباح، نزلت آيات لتحريمه نسخت ما قبلها.وكلاهما قرءان يتلى إلى يوم القيامة.

(الدرس 10)

ثالثا :المحكم والمبهم والمتشابه في كتاب الله عز وجل :

كل ما نقرأه في كتاب الله عز وجل لا يخرج عن هذه الأقسام الثلاثة، فإما أن يكون خطاب الله عز وجل لنا من نوع المحكم وهو الغالب، وإما أن يكون من نوع المبهم، وإما أن يكون من نوع المتشابه :

المحكم :عرفه العلماء بأنه ما عرف تأويله وفُهِم معناه وتفسيره بشكل جلي.

المبهم: هو ما غمض معناه في كتاب الله سبحانه وتعالى، ظاهره مفهوم لكن العقل يتوقف عن فهم المعنى المراد. منه، إما من حيث هو أو من حيث الزمن المتعلق به.وهو درجات ويوجد من الألفاظ المبهمة ما يكون إبهامه كليا، وفيه ما يكون إبهامه جزئيا.

المتشابه:هو الكلام الذي يتجاذبه أكثر من معنى، وفي الغالب يكون التجاذب على مستوى واحد، ولا نعلم ما الذي أراده الشارع من هذه الإحتمالات لهذه الكلمة.

قال العلماء وباتفاق أن كل ما يتعلق في القرءان بالأوامر وبالنواهي، وبالوصايا والإرشاد، وأمور العقيدة كل ذلك من نوع المحكم.وهذا ما يشير إليه بيان الله عز وجل في قوله :" هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ".

نتساءل هل يا ترى المبهم أو المتشابه ممكن أن يعرف معناه عبد من عباد الله تعالى الصالحين أم إن معرفة معنى المتشابه والمبهم وقفٌ على من أنزل هذا القرءان وهو الله عز وجل؟ هنالك من العلماء من قالوا ا، المتشابه لا يعلمه إلا الله ، وإنما يمكن أن يدرك الإنسان من القرءان ما يدخل في موضوع المحكم.ولكن جمهور علماء اللغة العربية، وجمهور علماء التفسير قالوا: لا يمكن أن يخاطبنا الله عز وجل إلا بما يمكن أن نصل إلى معناه، قد تكون هنالك صعوبة ودقة في المعنى المراد، لكن يستطيع الإنسان إذا بدل الجهد وكان صاحب اختصاص في هذا الأمر أن يدرك المعنى الذي أراده البارئ عز وجل.وأساس الخلاف يأتي من الآية التالية :" هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ

رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ " إذا قلنا أن الواو في قوله :" والراسخون " إستئنافية فا معنى ذلك أن المبهم لا يعلمه إلا الله وإذا قلنا الواو عاطفة أي أن الراسخون في العلم هم أيضا يعلمون المبهم والمتشابه.

ـ "ابن قتيبة " له كتاب اسمه "تأويل مشكل القرءان" يقول :" صعب أن نقول لا يعلم تأويل المبهم والمتشابه في القرءان أحدٌ إلا الله "، وإذا قلنا هذا يعني أن النبي لا يعلم المبهم في القرءان، وهذا مستحيل، حيث أن رسول الله أطلعه الله عز وجل على بعض المغيبات، فكيف لم يطلعه على المتشابه الموجود في القرءان.وإذا قلنا بعلم رسول الله بالمتشابه لا يبعد أن يعلمه بعضا من أصحابه، مثل سيدنا علي، سيدنا أبا بكر... ومن تما فإن الرأي الراجح أن كلً من المبهم والمتشابه ممكن أن يعلمه الإنسان فيما إذا كان راسخا في العلم، هذا دليل نقلي.

ـ أما العقلي فهو أن القرءان خطابٌ لنا، ولا يمكن أن يخاطب الله عباده بكلام لا سبيل لهم إلى معرفته.

معنى المبهم: هو نوعين :

نوع إبهامه كلي: وهذا يتجسد في الأحرف المقطعة في افتتاحيات بعض السور من كتاب الله مثل قوله " حم " و"ألم" و"كهيعص"... وقال العلماء في حق هذا النوع من المبهم وهم فريقان:

فريق أول: قالوا أن هذه الأحرف المقطعة التي افتتح بها بعض السور ،تتضمن أسرارا استقل الله عز وجل بعلمه، ويروى هذا الرأي عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، ينقلون عنه أنه قال :" في كل كتاب سر وسره في القرءان في أوائل السور.

فريق ثان: ورأيه هو الراجح والذي ذهب إليه معظم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن هذه الأحرف المقطعة التي افتتح بها بعض السور لها معان مراده يتأتى للإنسان إذا دقق أن يصل إلى شغافها، وأن يدرك المعنى المراد منها.وهذا ما ذهب إليه علماء العقيدة وعلماء التفسير، ومن علماء اللغة العربية.

وإذا سألنا هؤلاء العلماء ماذا تعني هذه الافتتاحيات؟ الواقع أن العلماء بحثوا في معاني هذه الافتتاحيات، ووجدت مؤلفات فيها واختلفوا في تأويلها وتفسيرها.ولكن جمهور علماء اللغة العربية، وجمهور علماء التفسير ذهبوا إلى أن المراد من هذه الأحرف :" بيان أن القرءان الذي نقرأه إنما تَكَوَّنَ وتناسقت ألفاظه من هذه الأحرف التي نبني منها كلماتنا نثرها وشعرها، فهل لكم أن تستعينوا بهذه

الأحرف التي هي مصدر القرءان وأساسه وسداه ولحمته لتأتوا بمثل هذا القرءان، لا تستطيعوا" والدليل على أن هذا هو المعنى المراد بهذه الأحرف المقطعة هو قول علماء اللغة العربية :" أننا نجد دائما هذه الأحرف المقطعة التي تأتي افتتاحية لبعض السور، أن الكلمة التي تأتي بعدها مباشرة هي إما لفظ الكتاب أو مرادفة للكتاب بمعنى القرءان، وهي تقع موقع الخبر من الأحرف المقطعة" مثلا في سورة البقرة يقول تعالى:" الم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ" وكأن الم مبتدأ، وذلك الكتاب خبر، هذه الجملة أفرزت المعنى الذي قلته، أي ذلك الكتاب الذي تحيرتم فيه مؤلف من أحرف ألم وغيرها.مثلا في سورة الأعراف يقول الله تعالى :" ألمص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ " وقوله تعالى :" الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ " وهكذا دائما بعد الأحرف المقطعة يأتي لفظ الكتاب أو فيما معناه.

الإبهام الجزئي :الإبهام الذي فيها آتٍ إما من الزمن المتعلق بالجملة أي زمن غامض، أو من حيث تعين أسماء الأشخاص الذين تخاطبنا الآية عنهم.مثلا عندما يحدثنا الله عز وجل عن الساعة يقول :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ "هنا الإبهام في زمن وقوع الساعة.النوع الثاني حديث القرءان في سورة المائدة عن ابني آدم اللذان تخاصما فقتل الواحد منهما الأخر، في قوله تعالى :" إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ " الغموض في اسم الأول وإسم الثاني.لكن السنة كشفت وبينت اسم المقتول هابيل، واسم القاتل قابيل.

إبهام في كلمات لأول مرة نسمعها: مثل قول الله عز وجل :" قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا" الإبهام في كلمتي يأجوج ومأجوج.ويرتفع الغموض عنها عندما يحين ظهور هذه الخليقة.وقوله تعالى :" وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ "الغموض في دابة، والدابة في اللغة العربية كل ما يدب على الأرض ومنها الإنسان.ودابة هنا نكرة وهي للإغراب، أي دابة غريبة ليست مما تعرفون وتألفون.ويكشف غموضها ميقات ظهورها.

رب قائل يقول: أن القرءان نزل خطابا لنا، ألم يكن الأولى أن يكون كل ما فيه واضحا جليا، يستطيع الإنسان أيا كان إذا قرأه أن يتبينه؟ ولماذا وجد إلى جانب المحكم مبهم ومتشابه؟ ذكر ابن قتيبة رحمه الله تعالى في كتابه " تأويل مشكل القرءان " هذا السؤال وأطال في الجواب عنه.خلاصة

الجواب " أن القرءان كلام مما كان يتبادله العرب فيما بينهم ويتخاطبون به، واللغة العربية التي يصوغها العربي خطابا لأخيه دائما، تحمل هذه اللغة عدة طبقات من المعاني، الطبقة الأولى معنى واضح، لكن تحمل أيضا معنى خفي لا يدركه إلا صاحب اختصاص، وهناك أيضا معنا ثالث يدركه من يتعمق ويتصف بالقدرة العلمية التي لم يتأتى لغيره أن يتصف بها.مثلا في قوله تعالى :" وعلى المولود له رزقهن " وله يقصد بها الأب ورزقهن لزوجة، والدارس لقواعد تفسير النصوص يدرك أن الولد من باب أولى على الأب رزقه.وهذا اسمه دليل الخطاب.ولو جاء الخطاب واضحا لاستوى العالم والجاهل وصاحب الاختصاص، وعندها لا داعي لتعلم.والبارئ أمرنا بالتعلم لما قال :" اقرأ باسم ربك..."

(الدرس 11)

المتشابه في القرءان الكريم:

هي الجملة التي يتجاذبها معنيان، دون أن يتبين الدليل القاطع عن المعنى المراد الأول أم الثاني، وهذا المتشابه في كتاب الله تعالى خاضع لإمكانية المعرفة وحل المشكلة في ذلك، والمتشابه الذي كثر الحديث عنه في كتاب الله هو آيات الصفات في الأسماء أو الأفعال التي نقرأها في كتاب الله عز وجل

هنالك نوع من المتشابه الخطب فيه سهل وهي كلمات أو جمل استعمل فيها المجاز والمعنى الحقيقي فيها مكشوف ومراد، حيث في القرءان آيات عديدة أخرج البيان الإلهي هذه الآيات من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي، وفي الحقيقة هذا ليس من النوع المتشابه، والإنسان بإمكانه بقدر بسيط من التأمل يدرك المعنى الذي أراده الله عز وجل.وأمثلة ذلك منها :

1 ـ قوله تعالى :" سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ " ظاهر الآية تفهم ما لا يليق بالله عز وجل وكأنه يقول أنا الآن غير متفرغ لكن فيما بعد أتوجه إليكم.. مع شيء من التدبر والتأمل، اعتمادا على معرفة قدر بسيط من اللغة العربية، فإن المعنى أننا سنتوجه إليكم بعد طول إمهال.ولله المثل الأعلى مثلا شخص يقول لابنه وهو يعتوا فسادا من حوله: سأتفرغ لك بعد قليل، أي يهدده ويعطيه مهلة بهذا الكلام.

2 ـ مثال قوله تعالى :" يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ " المعنى المتبادر إلى الإنسان السطحي وهو يقرأ كتاب الله أن هنالك حوارا بين الله تعالى وجهنم، لكن مع شيء من

التدبر والتأمل في هذا الكلام البليغ تدرك أن معنى هذه الآية، أن الله عز وجل يعبر بهذا الأسلوب عن مدى اتساع هذا العالم الذي يسمى جهنم.مع العلم أن الله قادر أن يحاور جهنم، قادر أن يخلق لذلك العالم القدرة على الكلام والسؤال والإجابة.

3 ـ ويقول تعالى :" يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ "القارئ بدون تدبر يفهم أن إنسان كشفت ساقاه لأمر ما، لكن إذا تدبرت في هذا الكلام وكنت عالم باللغة العربية حيث يعبر عن ساعة الشدة بكلمة كشف عن ساق، أي الأمر خطير جدا، هنا كناية عن اشتداد الأمر.وهنا يحدثنا البارئ عن الكرب الذي يطوف بالناس يوم القيامة.

4 ـ قول الله عز وجل عن أناس طغاة طغوا وبغوا ثم أهلكهم الله عز وجل، وأصبحوا أثرا بعد عين، مثل قوم عاد وثمود، وقوم لوط، يقول البارئ عنهم :" فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ " والمراد أنه ما بكى لهم باكٍ ولا اهتم بهم أحد. كل هذا من النوع البليغ في كتاب الله عز وجل.

المتشابه الذي تحدث العلماء طويلا فيه هو من النوع الثاني، كما قلنا آيات تتحدث عن صفات متعلقة باسمه أو صفات الأفعال كلها فيها تشابه، وفيها معنيان يتجاذبان هذه الآيات،واختلف العلماء في أي المعنيين نشد الآية إليه. ـ مثلا البارئ يقول :" الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ" استوى بمعنى الجلوس ، وهذا لا يمكن أن ينسب إلى الله تعالى.فما المعنى المراد؟ هذا من نوع المتشابه.

مثال أخر: في قوله تعالى :" إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ " نسب الله عز وجل إلى نفسه يدا، وهذا وصف تابع لصفات الله سبحانه وتعالى.والمراد باليد هنا يوجد معنيان يطوفان بهذه الآية.حيث يقول تعالى في موضع آخر لسيدنا موسى :" ولتصنع على عيني " وهنا نفس الشيء بالنسبة للعين، معنيان يطوفان بالآية.وقوله تعالى :" وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا " هنا نسب الله إلى نفسه فعل المجيء.

هذا من نوع المتشابه الذي خاض فيه العلماء مخاضه كبيرة في تفسيره.

بالنسبة لموقفنا من هذه الآيات وأمثالها، وهي من آيات الصفات أو آيات الأفعال، هناك مرحلتين في التفسير: في المرحلة الأولى متفق عليها عند كل علماء التفسير، من عصر رسول الله إلى يومنا هذا.وهي أثناء تفسير هذه الآيات ضرورة تأويلها وأمثالها تأويلا إجماليا بحيث نبعد البارئ عز

وجل عن التشبيه بمخلوقاته.مثلا عندما يقول البارئ :" بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ" مما اتفق عليه الخلف والسلف والصحابة والتابعين، أنه يجب أن لا نفسر اليد بهذه الجارحة التي نعرفها ،لأنك إن فعلت هذا خالفت قول الله عز وجل:" ليس كمثله شيء"

المرحلة الثانية فيها خلاف، هنا يدخل المراد من قوله مثلا :" بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ"والآيات الأخرى التي ذكرت.

ـ هنا نقول أن معظم السلف وقفوا عند هذا الأمر وقالوا :" نثبت لله ما أثبته لنفسه وهو اليد مثلا دون تشبيه، ودون تنظير نهائيا، ونقول بعد ذلك الله أعلم"حيث سئل الإمام مالك، وسئلت أم سلمى رضي الله عنها عن الاستواء فقالت :" الكيف غير معقول(أي محال على الله التكيف) والاستواء غير مجهول باللغة والإقرار به من الإيمان به والجحود به كفر "كذلك الإمام مالك قال :" الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإيمان به بما قاله الله عن ذاته واجب، والسؤال عنه أكثر من هذا بدعة "

ـ وأما الخلف الذين جاءوا بعد القرون الثلاثة، فهؤلاء فريقان: فريق تمسك بما تمسك به السلف، وفريقا أول تأويلا تفصيليا بالإضافة إلى التأويل الإجمالي، فمثلا قالوا عن قوله تعالى :" :" بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ" اليد هنا كناية عن الكرم.وقوله :" ولتصنع على عيني " العين هنا كناية عن الرعاية والحماية، وقوله :" الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ"كناية عن التسلط.

ـ هنالك من يقول أن السلف كلهم أنكروا تأويل هذه الآيات المتشابهة وهي آيات الصفات في كتاب الله تعالى، وفسروا هذه الكلمات على ظاهرها بدون تشبيه، وهذا غلط حيث أن السلف أنفسهم اختلفوا، لكن الكثير منهم جنحوا إلى عدم التأويل.ومنهم من أول تأويل إجمالي وأيضا تفصيلي.

مثلا "الإمام أحمد" من السلف عندما سئل عن قوله تعالى :" وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا " أول المجيء بالأمر أي وجاء أمر ربك.حيث هنا فسر القرءان بالقرءان.حديث البخاري ومسلم :" ضحك ربكما اليوم من فعالكما " السلف كلهم أولوا الضحك بالرضا.

كذلك يروي البيهقي في كتابه "الأسماء والصفات" عن "حماد ابن زيد" وغيره من السلف، أولوا النزول في أحاديث النزول مثلا :" ينزل ربنا في كل ليلة إلى السماء الأولى فيقول آلا هل من مستغفر فأغفر له..."أول "حماد ابن زيد" النزول بإقبال الله عز وجل إلى عباده وتجليه عليهم تجلي رحمة

وتجلي استجابة لمطالبهم ولأدعيتهم."ابن تيمية" فسر الوجه في قوله تعالى :" وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ " بالدين.ونسب ابن تيمية إلى "جعفر الصادق" وهو من عيون السلف، تأويله الوجه بالدين."الحافظ ابن حجر العسقلاني"في كتابه " فتح البارئ في صحيح البخاري" والبغاوي في تفسيره أيضا ينقلان عن "عبد الله ابن عباس" وهو من الصحابة أنه أول الاستواء بالعلو أي بالتسامي.

النتيجة أن في السلف من وقف في التأويل الإجمالي لهذه الآيات، وفيهم من أول تأويلا إجماليا وتأويل تفصيلي أيضا، والخلف أيضا.إذن هذه الآيات المتشابهة في كتاب الله عز وجل يخضع تفسيرها للاجتهاد.

مثلا في قوله تعالى :" يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ" ففي قوله يحبهم، فإن هذه خلعة كبيرة ، يعلن البارئ أنه يتصف بها اتجاه عباده، لا أفسرها بالعطاء لأن عطاءه مهما بلغ في كَفَةٍ، ولما يقول لعبده أنا أحبك في كفة ثانية، ومحبته أغلى من هذا كله.وتأويلي لها تأويل إجمالي، وليس المراد بالحب الذي نسبه الله عز وجل لذاته العلية هذا الحب الذي نعرفه نحن.وهو حب الله أعلم به وهو حقيقي يناسب ذاته وربوبيته.

ما ينبغي أن نجعل من هذه المسألة سببا لتمزيق وحدة الأمة، كما يفعل البعض إلى الآن.حيث أن الصحابة اختلفوا والكل لم يضق ذرعا من بعض الأخر، وكلهم متحابون متفقون، لأن المسألة اجتهادية، ولا يجوز لأحد أن يجعل من اجتهاده هو دين الحق وحده، وأجعل من اجتهاد الآخرين أنه باطل، ثم ألزمك أن تتحول من باطلك الاجتهادي إلى حقي الاجتهادي، وهكذا... بذلك نصبح أشلاء مقطعة الأوصال ،بدل أن نكون أمة متحابة متعاونة.

(الدرس 12)

رابعا: القراءات والقراء :

يتعلق هذا البحث بالأشخاص الذين يريدون أن يدرسوا القراءات المختلفة والحصول على إجازات فيها.

لقد قلنا بأن القراءات السبعة أو العشرة هي أوجه مختلفة في النطق والأداء، لكنها متفقة في الكتابة والرسم، فإن كانت هذه قد وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكل متواتر فهي قراءة باقية إلى يوم القيامة، وهي جزء من القرءان المتلو والموحى به إلى رسول الله.لذلك كان من

الحكمة أن يبقى مع اختلاف الزمن علماء مختصون بقراءات القرءان، أي يلمون بالقراءات الصحيحة المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.وهذه لا بد أن تكون متفقة مع وجه من وجوه اللغة العربية.وبالنسبة للأوجه المتنوعة المختلفة في الأداء والمتفقة في الرسم قد تكون أكثر من عشرة، والعدد يراد به الذين اختصوا بهذه القراءات، فهنالك قراءات منسوبة إلى سبعة اختصوا بها كل واحد منهم طاب له أن يلتزم قراءة من هذه القراءات فنسبت إليه، وثلاثة أخرين أيضا رووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءات أخرى.

إذن الفرق بين القراءات والأحرف أن الأحرف مختلفة في الأداء والرسم أيضا، بينما القراءات مختلفة في الأداء ومتفقة في الرسم.

منهج القرءان وأسلوبه

نتحدث باختصار عن منهج وأسلوب القرءان الذي يتميز به عن غيره من الكتب الأخرى، ومن أهم الخصائص التي يتميز بها القرءان عن كل ما نسمعه من القراءات العربية الأخرى إن من الشعر أو النثر وهي خمسة:

جريان القرءان على نسق بديع خارج عن المألوف مما نقرأه أو نكتبه أو نقوله، وكلام العربي ينقسم إلى قسمين شعر له ضوابطه وموازينه، ونثر ينقسم إلى مرسل و سجع وهو ما كان الكلام فيه مقطع إلى جمل وتختم بحرف واحد مثل الهاء.. مثلا أبو طالب خاطب " سيف ابن زياد " بكلام مسجوع قال له :"منبتك منبت طابت أرومته، وحسنت جرثومته و بسق فرعه، ونما أصله ".والقرءان الكلام فيه لا ينتمي لا إلى الشعر أو نثر.بل هو نسق فريد خارج عن المألوف له في الأذن إيقاع.منها مثلا تلك الآيات التي واجه بها رسول الله عتبة ابن الربيع، ذلك الشيخ الوقور الذي أرسلته قريش ليفاوض رسول الله صلى الله عليه وسلم، لعله يترك هذه الرسالة التي بعث بها على أن يعطيه العرب ما يشاء، جاء عتبة يعرض هذه الأمور لما أنهى قال له رسول الله :ط أفرغت يا ابن أخي؟ قال نعم، فتلا له هذه الآيات :" حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ.." مقاطع فيها إيقاعات مختلفة ليست من الشعر أو النثر المعروف، وكل ما في القرءان مثال على هذا، مثل قوله أيضا :" لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ

الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ" نلاحظ هذا التقطيع وهذه الإيقاعات في هذه الآيات أيضا، وهكذا كل القرءان.قد يقول قائل أنه سجع نقول لا ،لأن السجع له شرطان الأول أن يكون حجم الجملة الأولى قدر الثانية وهكذا، وأن يكون الراوي واحد هنا الآيات تختلف في حجمها منها ذات الكلمتان أو ثلاثة أوسبعة مثلا.هنالك إيقاع لا تستطيع أن ترصد قواعده

يجري على نسق باسق من البلاغة والبيان على الرغم من اختلاف موضوعات القرءان، والمعاني التي يحتضنها وينقلها إلينا.حيث أنك إن قرأت الآيات التي تتعلق بالتشريع تجد هذا المستوى الباسق في البلاغة العجيبة، وإن أردت أن تصغي السمع إلى أوصاف يوم القيامة تجد نفس الشيء، وفي آيات تتعلق بالعقيدة تجد نفس الشيء أيضا وهكذا.في حين أن ما يعرف عند العرب في موازين المنطق أنه كلما أردت أن تخاطب زيدا من الناس فكلما كان الكلام فضفاضا مرنا كلما كان مجال البلاغة أيسر، وكلما كان المعنى ضيقا دقيقا مثل معاني علمية رياضية يكون مجال السمو البلاغي فيه أصعب.مثلا لنتأمل المستوى البلاغي الذي تتمتع به هذه الآية في قوله تعالى :" وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"

(الدرس 13)

صلاحية القرءان من حيث الصياغة لمخاطبة الناس كلهم مهما كانت مستوياتهم، مثلا معنى من المعاني يتناوله القرءان بالبيان فإنه يصوغ هذه المعاني بعبارات، يجعل العامي يدرك المعنى السطحي لها، والمثقف يدرك المعنى السطحي و الأدق، والمتخصص يفهم المعنى العلمي بسبب اختصاصه.وهذه المعاني بينهما متكاملة والمعاني المتفاوتة البعض منها تفاوتها بسبب اختلاف ثقافة الناس، وهناك اختلاف في المعاني بسبب اختلاف العصور.مثلا في قوله تعالى :" وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" هذه من الآيات التي يتحدث فيها البارئ عن النعم

التي أسداها إلى عباده، والتي كرمهم من خلالها.في صدر الإسلام عندما قرأ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية، فهموها بالقدر الذي يتفق مع عصرهم، حيث أعقب الآية بقوله " وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" الله أعلم ما هي هذه المخلوقات، مرت الأيام وظهرت وسائل أخرى لنقل، وعدنا نحن أصحاب هذا الجيل إلى هذه الآيات، فأدركنا معنا أخر خفيا تفجر من طبيعة العصر الذي نحن فيه، ووجود وسائل جديدة لركوب، ولم يتناقض هذا الفهم مع فهم الصحابة أو التابعين.لنرجع إلى الإمام الرازي في تفسيره لقوله تعالى:" وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" بأنه سيخلق أمورا أخرى بالإضافة إلى هذه التي نراها.

أمثلة: في قوله تعالى :" وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ " لو رجعنا إلى القاموس نجد أن معنى كلمة دحاها أي بسط ووسع، وتأتي أيضا بمعنى كور.وفي البيان الإلهي فإن الرجل البدوي، والصحابة في عصرهم فهموا من قوله تعالى :" وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا " بسطها ووسعها، جاء العلماء الذين اهتموا بالعلوم الكونية من علم فلك ونحو ذلك وتعمقوا في هذا، فهموا المعنى الأول المبسط، وفهموا أيضا الفهم الثاني وهو ما تقول به اللغة العربية بمعنى كور.أي مبسطة ومكورة أيضا.

لابن الرومي أبيات يصف فيها خبازا أعجب بسرعته ودهائه في عمله يقول :

إن أنسى لن أنسى خبازا مررت به ، يدحو الرقاقة وشكا اللمح بالبصر، ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يلقى به بالحجر.وفي آية أخرى نجد قوله تعالى :" والأرض كيف سطحت " وهي مسطحة وممتدة امتدادا كليا لا حافة لها، وهذا يعني أنها تكون دائرة بمعنى دحاها.

مثال أخر: يقول تعالى:"أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا" معنى كفاتا أي الجدب، والرجل العربي يعلم أن معنى ألم نجعل الأرض كفاتا أي أن الأرض تحتضنه وترعاه.أما عن العالم الذي درس علم الفلك، لا يقف عند الاحتضان والرعاية، وهذا يستثير لدينا غرابة كيف يعيش الإنسان على هذه الأرض وهي كروية، والبارئ يوضح لنا أن هذه الأرض تجذبكم أينما كنتم تعيشون عليها، لهذا العلماء استنبطوا من القرءان قانون الجاذبية.وهذا الكلام كان موجودا لدي العلماء نطقا وكتابة وتأليفا.وذكر هذا "العضد الإيجي" في كتابه المواقف عن" يونس ابن قرة" وهو مسيحي من علماء الفلك يقول :" الأرض فيها قوة جاذبة

إليها تجدب الإنسان بالقدر الذي يمكنه من أن يعيش فوقها، ويستشهد بهذا من قوله تعالى:"أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا" كلام موجود لما جاءت المناسبة ذكرته.والأرض تجذبكم وأنتم أحياء فوقها، وعندما تدفنون في باطنها.

في بداية القرن العشرين عالم روسي اكتشف نظرية واعتبرها اكتشاف كبير سماها نظرية رد الفل الشرطي، ومن أجل الدعاية جرب النظرية إلى أخره، وهي تعني أن المؤثر الطبيعي إذا صاحبه مؤثر صناعي يكتسب منه هذا التأثير.وهذا العالم الروسي بافلوف قبل أن يكتشف هذه النظرية ما الداعي أن نقول له أن الإمام الغزالي في كتابه المصطصفى قال عن قانون اسمه سبق التصور إلى العكس، وذكره المسكاويه.. لكن لما جاءت المناسبة ذكرناها لكم.

وذكر مثال الشمس وكونها مضيئة وأنها سراجا، ووصفه القمر بالإنارة.

(الدرس 14)

ظاهرة التكرار لألفاظ القرءان ومعانيه، وهذا التكرار هو مزية، حيث هنالك تكرار لبعض الألفاظ خاصة إذا كانت غريبة مثل :" الحاقة ما الحاقة " و "القارعة ما القارعة"، وهنالك تكرار لجمل جعلها الله محور لبعض السور مثل قوله :"فويل يومئذ للمكذبين" أو في سورة الرحمان :"فبأي آلاء ربكما تكذبان" وهنالك تكرار للمعاني ولبعض القصص، وللبارئ عز وجل في ذلك حكمة، حيث أنك عندما تقارن قصة ذكرت ثلاث مرات أو أربعة لن تستطيع أن تجد أي تشابه بين هذه المرات، من ذلك قصة سيدنا نوح في سورة هود، وقصته في سورة نوح، وقصته في سورة القيامة، إن قرأتها تجد فارق كبير من سورة لأخرى.وهذا التكرار مزية للقرءان عن سائر كلام العرب وميزة يتميز بها.

تداخل موضوعات القرءان الكريم، وهذه أيضا مزية في القرءان ، ومن حكمة رب العالمين أنه جعل منهج القرءان يختلف عن كل المناهج السابقة والحالية واللاحقة أيضا، وجعلت موضوعاته متداخلة مثلا تجد أنه بينما يحدثك عن قصة من القصص، فإذا به ينقلك إلى صورة من صور يوم القيامة، ثم ينتقل إلى التحدث عن صفاته بأنه غفور رحيم وإذا أخذ أخذَ أخْذَ عزيز مقتدر.

إعجاز القرءان

هذا المبحث من أهم البحوث المتعلقة بكتاب الله سبحانه وتعالى، ويعتبر لب علوم القرءان وآدابه وجوهرها وأساسها.وهناك من يضل محجوبا عن فهم الإعجاز القرءاني لكونه عاش غريبا عن

القرءان، حيث لم تتهيأ لهم أسباب تلاوته بدقة، وأسباب تلقيه تلقيا سليما.وهنالك عامل أخر يحجب المسلمين اليوم عن إدراك إعجاز القرءان، وعن تذوق هذا الإعجاز، وهو عامل إضعاف اللغة العربية، وهنالك من يعمل من أجل تحقيق ذلك، إما تحت شعار تبسيط قواعد اللغة العربية، أو الدعوة إلى تبسيط الكتابة باللغة العربية، وهناك دعوة أيضا إلى ازدواج بين اللغة العربية والعامية... الهدف من هذا كله حجب هذه الأمة عن قرءانها، لأن السبيل إلى فهم هذا القرءان هو اللغة العربية ومدى التعمق فيها.إذا صلتنا بالقرءان وتعشقنا لقراءته هو متعلق بمدى اهتمامنا باللغة العربية .

أولا: تعريف إعجاز القرءان: قد أجمع عامة الباحثين من علماء اللغة العربية والتشريع والفلسفة والأدب على أن هذا القرءان معجز.كما يقول أبى العلاء المعري في رسالة الغفران.ومعنى كون القرءان معجز جوابان، الأول أجمع عليه جمهور العلماء، وتعريف أخر ذهب إليه بعض المعتزلة وعلى رأسهم "النَّظَامْ.

ـ فأما التعريف المعتمد من قبل الجمهور فهو :" أن القرءان قد سما في علوه إلى شأوٍ بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله سواء في بلاغته أو تشريعه أو غيبياته وعلومه "

ـ أما التعريف الثاني جاء به النظام وهو من رؤوس المعتزلة قال :" أن إعجاز القرءان أن الله عز وجل صرف قدرات البشر عن أن يأتوا بمثله "كأنه يريد أن يقول أن القرءان بحد ذاته عادي، لكن الله عز وجل ما مكن الناس من أن يجربوا حظهم بأن يأتوا بكلام على مستواه، وإذا حاول أحدا ذلك شعر بالإحجام و الذعر والهيبة، فهذا الذي صرف قدرات البشر عن تقليد القرءان هو حقيقة الإعجاز.هذا كلام النظام، إضافة إلى قولهم أن الإعجاز ليس صفة نابعة في القرءان، وإنما هي صفة كامنة في الناس الذين صُرِفُوا عن أن يؤلفوا كلاما يرقى إلى مستوى القرءان، لهذا يعرفون الإعجاز بالصرفة.

إذا أردنا أن نتساءل أي التعريفين هو الصحيح علميا؟ لا شك أنه التعريف الأول، لأن الثاني تعريف متهافت جدا جداً، لو كان الأمر صحيح لكان الأمر كما جاء في رد كثير من العلماء مثل "أبي قتيبة" وغيره قالوا :" ما دام الأمر كذلك إذن كلما كان القرءان أخفض في مستوى النطق العربي، وأدنى فيما يتعلق ببلاغته فإن ظاهرة الإعجاز تظهر أكثر" لأن لو كان القرءان بسيط جدا وهؤلاء الناس لا يستطيعون أن يأتوا بمثله يكون هذا أغرب، لكن لو كان أعمق في بلاغته يكون

عدم قدرة الناس على تقليده ممكن لكونه بليغ، وبتالي لو كان مصدر الإعجاز صرف الناس عن الإتيان بمثله، فيجب أن يكون مستوى القرءان متدني كثيرا في بلاغته حتى يظهر العجب.

إذن ليس صحيحا أن الناس صرفوا عن تقليد القرءان، وليس صحيح أن إعجاز القرءان ليس كامن في القرءان وإنما هو كامن في عجز الناس.

والإعجاز هو:" سمو القرءان إن في بلاغته أو تشريعه أو علومه أو غيبياته إلى شأوٍ عال لا يتأتى لطاقة البشرية أن تسمو إليه"

ثانيا: الدليل على الإعجاز القرءاني : لنلاحظ كلام القرءان في تتبع أقوال المشركين من العرب أول ما سمعوا القرءان قالوا :" وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ "عندئذ تحداهم القرءان من أن يأتوا بمثله في قوله تعالى:" وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ " ولما لم يستطيعوا قالوا هذا سحر بل كهانة وتنجيم، لا بل شعر... واجتمعوا للاتفاق على رأي في وصف القرءان، وما اتفقوا على رأي حتى قال كبيرهم " والله ما هو بسحر ولا كهانة ولا تنجيم، والله إنه لكلام يعلوا ولا يعلى عليه، وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر " فقال بنو هاشم لنا السقاية قال :هي لهم.قالوا لنا رفادة البيت قالوا هي لهم.ويدعوا أيضا النبوة لا، لا يمكن هذا ؟؟ يعني أن إنكارهم لإعجاز القرءان ليس كامنا في قناعتهم بأن القرءان معجز، لكن السبب كامن في عصبيتهم، لأنهم لا يريدون أن تظهرالنبوة في بيت بني هاشم، وهم محرومون من ذلك.

(الدرس15)

الدليل في إعجاز القرءان هو دليل التجربة والمشاهدة، وهي من أقوى الأدلة في المحاورات العلمية وتفصيل ذلك:

مراحل دليل التجربة والمشاهدة: عندما جاء رسول الله برسالة التي كلف أن يبلغها لناس، وقدم رسول الله نفسه بأنه نبي مرسل من عند الله تعالى، طلبوا منه دليلا على نبوته، وقد نقل البارئ في بيانه المبين طلبهم هذا وقال :

" وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " عندما أسمعهم

رسول الله هذا الكلام أجابوا قائلين، ـ في قوله تعالى عن إجابتهم :" وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ " ـ عندئذ تحداهم الله عز وجل بآيات عدة وبأساليب شتى، من ذلك قوله عز وجل :" وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ " وقال أيضا :" قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا " كلها تحديات من رب العالمين لهم وقوله تعالى :" أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ "

ـ وعن موقفهم بعد هذه التحديات من المولى عز وجل، جلسوا عاجزين عن هذا الذي أوضحه لهم الله سبحانه وتعالى، حيث أن البارئ استدرجهم، إلى أن تحولوا إلى قولهم أن هذا سحر، ثم قالوا لعله نوع من الكهانة، وقال قائل منهم هذا فن جديد من الشعر.وهكذا اضطربت أقوالهم في تفسير الذي يسمعونه من كلام الله تعالى، ثم إنهم اعترفوا وقال قائلهم :"والله ما هو بسحر ولا كهانة ولا تنجيم، والله إنه لكلام يعلوا ولا يعلى عليه، وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر "ومع ذلك أعلنوا عصبيتهم التي أحالت بينهم وبين إيمانهم برسول الله، وقال عنهم البارئ عز وجل :" وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ "

العرب في عهد رسول الله ومن بعده فريقان اثنان، فريق أعلن عن عجزه ولم يشأ أن يقحم نفسه فيما يخجله ويفضحه، وفريق أخر غامروا وحاولوا مثل مسيلمة ابن حبيب اليمني المعروف بالكذاب وهو عربي له فصاحة، فلما أراد أن يأتي بكلام على نسق القرءان، وأراد أن يجاري القرءان ، جاء بكلام هبط به عن مستوى قدرته هو.واستمر هذا خلال القرون المختلفة إلى يومنا هذا.ولله الحمد الجمهور علموا أن هذا كلام الخالق وليس بكلام مخلوق، يتشرفون به ويطربون بسماعه وتلاوته ويعملون جهد الاستطاعة به.

إذا القرءان يسمو بأسلوبه البلاغي وبمضموناته العلمية إلى درجة لا يتأتى لطاقة البشرية أن تسمو إلى مثل هذا الشأو، والمقلد دائما يهبط بصاحبه سواء للقرءان أو غيره.

وجوه الإعجاز :وهي كثيرة وحديثنا الآن عن ما اكتشفناه من هذه الوجوه ،والزمن كشاف للمزيد، وسنتحدث عن الوجه البلاغي في إعجاز القرءان، ونتحدث عن الوجه العلمي والغيبي في إعجاز القرءان، ونتحدث عن الإعجاز في التشريع، ونتحدث عن مظهر جلال الربوبية في القرءان،

وأتبع معكم منهج الاعتدال والانضباط لقواعد العلم. الوجه الأول: الإعجاز البلاغي في القرءان الكريم للكلمة: والتعريف الذي ذكر يكمن في هذا النوع من الإعجاز البلاغي واللفظي وهو" أن القرءان سما في تعبيره وأسلوبه إلى شأو تعجز الطاقة البشرية عن بلوغه " ونقصد بكلمة البلاغة هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، أي اللفظ لبس رداء معناه، ونجد في القرءان أن اللفظ على قدر المعنى، والمعنى يساوي اللفظ، بحيث أنك إن حذفت كلمة لاضطرب المعنى الذي أراد الله أن ينهيه إلى أذنك، ولو قدمت وأخرت لاضطرب نسق الكلام في أذنك أو اضطرب دلالة الكلام على المعنى.أي واحد منا أراد التعبير عن معنى يختلج في دهنه يعاني من نوعين من العجز،وهذا مهما كان حتى الرسل والأنبياء.

النوع الأول: نتبين عند التدقيق أن المعاني التي تخطر في بال الإنسان، والتي تنبع من نفسه وفكره أوسع أضعاف أَضعاف المرات من المتن اللغوي الذي متعنا الله سبحانه وتعالى به، لأن المعاني والمشاعر نابعة من داخلك وألفاظ اللغة آتية من الخارج وهي محدودة.مثلا: تقول أنا أتألم لهذا الأمر، وإذا تأملت تجد أن معنى الألم ليس واحدا، وإنما هناك معاني كثيرة للألم، فهناك ألم لوجع في الجسم، وألم لمنظر بائس رأيته في الطريق، وهما ألمان مختلفان وغيرها من الآلام.وكلمة الجمال ومعانيها كثيرة جدا جدًا، إلا أن اللغة لا تعطيك لتعبير عنه إلا كلمة واحدة.

النوع الثاني : من العجز نجد أن اللغة لها مترادفات مثل مضى ،انطلق، مشى، سعى.الحقيقة أنها بحسب الظاهر مترادفة لكن عندما تريد أن تكون دقيقا في تعبيرك فإن كل كلمة من هذه المترادفات تحمل معنى مختلف عن معنى الكلمة الأخرى.والإنسان مهما أوتي من القدرة البلاغية إلا ويجد أن كلامه خاضع لتمحيص وتغير، لعدم قدرة الإنسان اختيار الكلمة الدقيقة لتعبير ما.

ونجد أن كلام ربنا مبرأ من هذا العجز تماما، فهو عندما يخاطبك يعبر عن المعاني التي تدغدغ بين جوانحك، وعجز اللغة ومحدوديتها لا تقف حاجزا دون ذلك، ثم إن البيان الإلهي لما يعبر عن معانيه بالألفاظ يأتي باللفظ الدقيق الذي لا يصلح لهذا المكان غيره.

(الدرس 16)

أمثلة من القرءان الكريم عن المعنى الأول: البيان الإلهي لما ضاقت اللغة عبر بالجرس والإيقاع والأحرف :

مثال 1: عن ظلام الليل قال :" أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا "لنتأمل إلى المعنى الذي تبته كلمة أغطش، عبرت عن ما تدلك اللغة عليه، وزادت الكلمة بجرسها وبطبيعة حروفها فعبرت عن المشاعر التي تنتابك عندما ترى الليل وسكونه ووحشته وظلامه الدامس المنتشر في الأفاق.

مثال2: ولنرى كيف يعبر لنا البارئ كيف يطارد الظلام فلول الضياء من النهار السابق، ونحن نرى هذا ساعة الغروب، والبارئ عبر عن هذه الحالة في قوله تعالى :" وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ" كلمة عسعس تعبر عن معنيين اللغوي، ومعنى الوزن والشعور بقدوم الليل، ثم لما حدثنا عن الفجر بعد ليل طويل الذي غمس الكون بظلامه قال " والصبح إذا تنفس " حيث يصور لك من الليل شيئا كاد أن يختنق محبوس ضمن الظلام الدامس، ثم إنجاب هذا الظلام عنه فتنفس.

مثال 3 :البارئ سبحانه وتعالى يتحدث عن المنافقين أو عن ضعاف الإيمان، الذين يتكاسلون عن النهوض إلى الجهاد، وتلبية الداعي إلى الجهاد في سبيل الله يعبر البارئ عنهم في قوله تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ " كلمة إثَّاقلتم تصور لك أناس كلما شددتهم إلى الأعلى انحطوا إلى الأدنى، والتصقوا بالأرض تماما.يعبر الله تعالى إضافة إلى المعنى اللغوي ،تجد جرس للكلمة ووزن لها.

مثال 4: يقول عز وجل عن ذاته العلية :" فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ "حيث يصور لنا هنا البيان الإلهي شيء آخر من الليل، وهو هذا الهدوء الذي يتلقاك به الليل بعد ضجيج النهار وعبر عنه بسكون، هذا الذي يعجز الإنسان عن التعبير عنه بالنسبة للكلمات التي أعطتك مدلولها اللغوي ثم عجزت عن تصوير مشاعرك العميقة، فإن البارئ عز وجل عندما يخاطبنا ببيانه القديم القويم يعبر عن مشاعرك التي تنتابك وهو يخاطبك باللغة.وعلماء فقه اللغة أفاضوا في هذا، وعلماء إعجاز القرءان أيضا.

أمثلة من القرءان في النوع الثاني :قلنا أن الإنسان عندما يريد أن يعبرعن معنى من المعاني يجد أمامه كلمات مترادفة كثيرة، ولا يستطيع دائما أن ينتقي بدقة الكلمة التي تعبر عن المعنى الذي يريد، لأن دهنه يتذكر ألفاظ وتغيب عنه أخرى، لهذا فإن كلام الإنسان المخلوق خاضع لتنقيح وتطوير إلى الأفضل.أما بيان الله عز وجل فما عاد الله، حيث أن كلمات القرءان كلها تعبر عن المعنى الأدق

للمعنى الذي أراده الخالق عز وجل، وآية ذلك أنك لو شئت أن تستبدل كلمة قرءانية بغيرها، فإنك لن تجد نهائيا كلمة تحل محلها.وأمثلة ذلك في القرءان كثيرة جدا منها :

مثال 1: في قوله تعالى :" إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ" كلمة فالق لنغيرها إلى كلمة أخرى مثل مفجر، محطم، مقسم... هل يمكن لأحد هذه الكلمات أن تحل محل فالق وتؤدي المعنى الدقيق الذي أدته كلمة فالق.لا أبدا، لأن كلمة فالق تعني انشطار الشيء لقسميه، وهكذا يحدث للحب والنوى، فما الفرق بينهما، فإن الحب مما يزرع ويؤكل، والنوى هو ذاك الذي يزرع ولا يؤكل.وكلمة يخرج فعل مضارع يدل على الاستمرار والتجدد، النبات الذي يخرجه الله من الميت وهو النوى، وهو نبات يظل ممتدا متطورا وهكذا، وقوله مخرج الميت من الحي فنوى لما أخرجها من النبات تصلبت وجمدت وبقت على حالها الواحدة.

مثال 2: في قوله تعالى :" فالق الإصباح " لنغير ونقول مثلا فالق الصباح، فو الله الذي لا إله إلا هو إننا نشعر أن المعنى اختلف من السماء إلى الأرض.والفرق أن الإصباح هي الحالة التي تتجدد أي الفجر يتنامى شيئا فشيئا، بينما كلمة الصباح تعني الحالة الجامدة التي تكامل فيها النهار وانتهى.

مثال 3: البارئ عز وجل صور لنا من قصة سيدنا يوسف مشهد، وهذا عندما سمعت امرأة العزيز أن نساء في المدينة ينتقدنها، عندما شاع أنها قد راودت غلامها عن نفسه، البارئ عز وجل روى لنا أنها استقدمت هؤلاء النسوة إلى بيتها، وصور لنا مجلس امرأة العزيز، من أجل أن تريهن سيدنا يوسف ليعذرنها فيما أقدمت عليه، البارئ وهو يصور لنا هذا المجلس فإن كل ما فيه ممتع منها الطعام، واحد مثلي إذا أردت تصوير المجلس أقول :" وأعدت لهم طعاما لذيذا.. " وخيال القارئ يذهب إلى المطبخ ورائحة الأطعمة وأنواعها.لنرى البيان الإلهي كيف عبر عن المشهد في قوله تعالى :" فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً " متكأ هو الطعام الذي يؤكل ترفا ولا يؤكل عن جوع، أي على اتكاء تزيدا، ويجمل به المجلس ولا يؤتى به لحاجة، كلمة متكأ صورت لنا المشهد دون أن تفسد الصورة لجائع أو غيره.حاول أن تأتي بغير هذه الكلمة وتبقي المشهد على حاله، لا ولن تستطيع.

مثال 4: البارئ عز وجل حدثنا عن النار وفوائدها، إذا عبرنا نحن عنها قلنا أنها تفيد في إنضاج الطعام، ويستفاد منها أنها محور أنس في البيداء، وألوان يبدعها العلم مما لم يكن معروفا لفوائد كثيرة

اكتشفت لنار.هل بإمكانك أن تعبر عن هذه الفوائد بكلمة واحدة ؟؟ لا يستحيل لي ذلك مهما بلغت من معرفة في اللغة العربية، والبارئ عز وجل عبر عنها بقوله :" أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ " المقوين نقول فلان أقوى أي عاش في الصحراء، وهؤلاء ما اجتمعوا إلا والنار تتقد بينهم، والمقوين للجائعين، وبالنار يستحضرون طعامهم، والقوى أيضا المتع، وهذا المعنى يعبر عن كل ما يأتي به الزمن والعلم من الفوائد المستحدثة لنار.كلمة مقوين عبرت عن كل الفوائد السابقة والحديثة وما سيأتي به المستقبل.

مثال 5: لنرى كيف يصور لنا البارئ جبن المنافقين في قوله تعالى :" لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ"كلمة مدخلا تعبير عن مكان ضيق لا يكاد الإنسان يحشو نفسه فيه، وهي حالة جبن المنافق وهو هارب من القتال.

هكذا هي الكلمة القرءانية الإعجاز فيها من جانبين أن البارئ عز وجل يعبر بها عن طريق اللغة، ويعبر بها أيضا عن طريق الجرس والصياغة وطبيعة الحروف، لكي تعبر الكلمة عن مشاعرك الخفية التي لم تستطع اللغة أن تعبر لك عنها.والكلمات التي انتقاها البارئ في القرءان لتعبير عن المعنى لا يمكن أن تجد في اللغة ومتنها ومترادفاتها ما يحل محل هذه الكلمة.

(الدرس17)

الإعجاز البلاغي للجملة القرءانية :وكما نعلم أن الجملة هي مجموعة كلمات تكون منها مفهوم مركب، والجملة القرءانية هي الأخرى يتبدى ويجلو فيها الإعجاز البلاغي بشكل عجيب وغريب، ووجوه الإعجاز في الجملة القرءانية هي ثلاثة وجوه :

الوجه الأول: الاتساق اللفظي والإيقاع الداخلي الذي تشعر به الأذن عندما يسمع الجملة القرءانية أو عندما يتلوها، وإذا تأملت وأنت تنطق بهذه الجملة تشعر بإيقاع داخل هذه الجملة والقرءان كله مثال لهذا، منها:

مثال 1: قول البارئ عز وجل في سورة القمر:" كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ"

مثال 2: البارئ يتحدث عن إهلاكه لقوم لوط في قوله :" وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ" لاحظ أنك لو قرأت بطشنا أن

فجوة ظهرت في الآية، وأن إيقاع الذي ترصده أذناك قد فسد واختل، اقرأ القرءان كله تجده على هذا النسق بحيث لو غيرت كلمة بأخرى تجد أن نسق الآية اختل، في حين أن الآية تؤدي نفس المعنى، ونجد أن القرءان أسهل حفظا من أي كلام أخر، لإشعارك بالخطأ إن أخطأت، وأكثر الأخطاء تقع في التشابه الموجود في القرءان، من هنا تأتي صعوبة الحفظ.

مثال 3: في قوله تعالى :" فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ" إذا أردت أن أقول بماء متساقط، نلاحظ أن الصورة انتزعت وتغيرت، أو أردنا أن نقول بماء مستمر، أو بماء هاطل.. لا يمكن أبدا، الوزن والصدى والإيقاع في كلمة ماء منهمر

الوجه الثاني: دلالة الجملة القرءانية بأقصر عبارة وأقل ألفاظ على أوسع معنى، بحيث أنك إذا عمدت إلى جملة من جمل القرءان وأردت أن تترجمها إلى اللغة العربية ذاتها، فإنه لا يمكنك أن تبرز هذا المعنى إلا بثلاثة أو أربعة أضعاف هذه الجملة القرءانية.والقرءان كله دليل على هذا لنختار أمثلة

مثال 1: البارئ سبحانه وتعالى يقول :" إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ" البارئ عز وجل ألزم ذاته العلية لآدم بأن يحقق له كل مقومات العيش من طعام وشراب وملبس ومسكن... إذا أردت أن تعبر عن هذا يلزمك عدة أسطر لذلك، لكن الآية عبرت عن ذلك بجملة واحدة، ولنتأمل في قوله ولا تضحى أي لا يصيبك حر الضحى، وهي كلمة قرءانية أغنى بها اللغة العربية، وكلمة تعرى أيضا أي تجد من اللباس ما يقيك البرد والحر.

مثال 2: البارئ عز وجل في سورة الأنفال بين لنا حكما شرعيا هاما، أنه إذا كان المسلمون قد قرروا صلحا أو هدنة بينهم وبين أعدائهم المشركين وتما التوقيع على ذلك، عندها لا يجوز للمسلمين إذا وقعت خيانة من الأعداء لطرف ما منهم، أن يمزقوا صحيفة العهد بينهم، وإنما ينبغي أن يعلن المسلمين على أسماع أعدائهم أن فلانا قد غدر بنا أو جماعة منكم غدرت بنا وها نحن نمزق الوثيقة التي بيننا، من أجل أن يأخذوا عُدتهم، ولكي لا نفاجئهم.لنرى البارئ ما قاله تعبيرا عن هذا الحكم :" وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ "وإما أي في أي حالة ولأي سبب، فانبد إليهم أي عهدهم على سواء أي كلهم يسمعون.

مثال 3: آيات من سورة البقرة في خمسة أسطر تحوي ثلاث وعشرون حكما، بنص أو مقتضى النص و المفهوم الواضح وهي قوله تعالى :" وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ

لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ "ومن أتاه الله القدرة على التعبير وأراد أن يعبر عن هذه بعبارات جامعة مركزة أحتاج إلى عشرين سطر.

الوجه الثالث: البيان الإلهي يخرج معنى هذه الجملة في مظهر الأمر المحسوس، الذي يستقبله الخيال قبل أن يستقبله الإدراك، هذا في المعاني التي تقبل التجسيد والإبراز والتصوير.والقرءان كله مثال على ذلك نختار منه :

مثال 1: في سورة الكهف قوله تعالى :" أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا" عبارة قرءانية تنهي إلى عقلك أن الله قد استلب منهم الحياة و أنامهم، حيث جسد لك النوم بصورة خيالك يدركه ويجسده.ثم قال :" ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا" كلمة بعثناهم تصوير، لنتأمل كيف صور لنا موقع الكهف في قوله تعالى:"وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا "سبحان الله صورة غريبة وعجيبة وكأنك ترى هذا الكهف وموقعه من غروب الشمس وشروقها، وترى إليهم وهم في أقصى داخل الكهف، لقوله في فجوة منه، وكيف يقلبهم الله عز وجل ذات اليمين وذات الشمال، وصورة الكلب وهو جالس بمدخل الكهف وهو حارس لهم، وكلمة تزاور أي تطل عليهم دون أن تنعكس عليهم في الداخل، وعند الغروب تقرضهم أي تبتعد عنهم ذات الشمال، أي اتجاه الكهف لشمال.ولكي لا نغفل فإن هذه آية من آيات الله، ثم يكمل قائلا " وتحسبهم أيقاظا وهم رقود.." تجد نفسك أمام صورة عن هؤلاء الذين يتحدث عنهم البيان الإلهي.

مثال 2: في قوله تعالى :" كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ " هذا تصوير بليغ، والمعنى

المجرد بين ل إله إلا الله ،ونحن أمام صورة أن لسماء أبواب أغلقت على مياه كثيرة وفجأة فتحت هذه الأبواب، عندها كأنه ماء من السماء يتساقط، وصورة تفاهة السفينة لقوله على ألواح ودسر،أمام هذا الطوفان.ثم يقول تعالى:" وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ" أي هي تصوير لتاريخ مر وانقضى، لكن صدى هذا التاريخ لازال يملأ الأذان، ترى هل من أحد يعتبر بهذا الذي مر ؟؟ ويقول تعالى :" وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ "وأنت تقرأ القرءان وخيالك مع الصور التي يصورها البارئ عز وجل.

(الدرس18)

مثال 3: ربنا سبحانه وتعالى يحدثنا عن عادة المشركين في صدر الإسلام، كيف كان الواحد منهم يتبرم بالأنثى إذا ولدت في داره، وأحدنا إذا أراد أن يتحدث في هذا قال :" إذا أخبر أحدهم بأن زوجتك قد ولدت لك ابنتا، يكتئب ويحزن ويتألم، ويأخذ منه الكرب مأخذا..." لننظر إلى الطريقة القرءانية التي عبر بها بيان الله عن هذا المعنى، مخاطبا العقل مخبرًا ويخاطب الخيال مصورا.في قوله تعالى :" وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ "كظيم بمعنى ممتلئ غيظا لا يكاد يعبر عنه، والحيرة التي تنتابه في قوله أيمسكه أم يدسه في التراب، هذا يخفي ما يتصف به من عصبية في إخفاء هذا الطفل في طويا التراب.

مثال 4: يحدثنا البارئ عن جانب من أحداث يوم القيامة، في قوله تعالى :" وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ" الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة بمعنى قرب أو دنا نقول أزفة الترحل يعني دنا واقترب وقت الرحيل، والآزفة أي الساعة التي قربت منكم، وعندها عبر بالخوف في قوله :"إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ " أي القلوب من شدة الهلع ارتفعت حتى لأنها سدت الحناجر، كاظمين تعني فرط الألم والخوف والرعب على كيناتهم. فالقرءان كله ما عدا الآيات التي تتحدث عن دقائق الأحكام كالميراث، والعقوبات، وما يتعلق بالحج والصلاة هذه لا مجال فيها لتصوير.

مثال 5: البارئ عز وجل يقول :" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ " أخذناهم بالبأساء والضراء أي ابتليناهم بالشدائد، فهلا تضرعوا، لكن قست قلوبهم، ولما نسوا ما ذكروا به أكرمهم ونعمهم الله تعالى، لكن لا وكأن النعم التي أغدقها الله تعالى عليهم من كل حدب وصوب، كانت أبوابها مغلقة ثم فتحت لهم، حتى إذا فرحوا بها وظنوا أنهم قادرون عليها كما عبر البارئ في آية أخرى، أخذناهم بغتة.هي آيات تخاطب العقل بالمعنى المراد، وتخاطب الخيال بصورة.

مثال 6: البارئ عز وجل يصور أطلال البلاد التي أهلكها وأهلها في قوله تعالى :" فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ" يصور لنا قرية بها بناء تداعى سقفه ، وداخله فارغ وهو منهار، أي بئر بها دلو لا أحد به، وقصر فارغ لا أحد بداخله.القارئ لهذه الآيات لا يمكنه إلا أن يستسلم بكل مشاعره وإدراكه للإعجاز العلمي في هذا القرءان.

الوجه الثاني: الإعجاز بالغيبيات: وهذه يدركها العرب وغيرهم.ونعني بالغيبيات تلك الآيات التي تحدثنا عن أمر لم يقع، ويؤكد لنا البيان الإلهي أنه سيقع، حيث أن البيان القرءاني يحدثنا عن حوادث عامة ستقع في الكون، ويحدثنا عن أشخاص موجودين عن ما سيجري بهم، وعن النهاية التي سيؤولون إليها، وننظر فنرى أنه فعلا هذه هي العاقبة التي آل إليها هؤلاء الناس.ويحدثنا عن قوانين كونية في تصورنا خاضعة لتطور، لكن البيان الإلهي يقول أنها لن تتطور وستبقى كما هي.من هذا الذي يستطيع بقدرته العقلية وعبقريته الفكرية أن يتحدث عن مصير إنسان معين، أو يتحدث عن مصير دولة من الدول إلى ما سينتهي حالها، أو يتحدث عن نظام كوني معين أنه لن يتطور، لا أحد يستطيع ذلك.لكن بيان الله عز وجل يخبرنا عن هذا كله.

النوع الأول: حديث القرءان عن وقائع لأمم وقعت ويعلق البيان الإلهي ما الذي يؤول إليه أمر هذه الأمم بعد اليوم.

ـ مثال 1: في سورة الروم يقول الله عز وجل :" الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ

ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" كلمة بضع يعبر عنها ما دون العشر سنوات ، هذا إعلام عن واقع، وشيء سيقع، هنا الفرس تغلبوا على الروم في معركة معروفة أيام كسرى، المشركون كانوا يتعاطفون مع الفرس والجامع المشترك بينهم عبادة الأوثان، أما المسلمون كانوا يتعاطفون مع أهل الكتاب، وكانوا يودون لو أن أهل الكتاب هم المتغلبون، لكن الواقع أن أهل الفرس هم الذين تغلبوا، وأخبرنا الله تعالى أنه من بعد غلبهم سيَغْلِبون.تناقش المشركون مع سيدنا أبا بكر رضي الله عنه، فقالوا هذا كلام غير صحيح فالفرس هم الأقوى وهذه المعركة هي الفاصلة.فسيدنا أبو بكر جزم بالعكس وكان الرهان ما يزال موجودا لم يشرع لإلغائه بعد.فراهنهم سيدنا أبو بكر على عدد من القلاص، وقال خلال ست سنوات سترون النصر لروم، ومرت خمس سنوات فا ست ولم يتحقق النصر، رجع سيدنا أبا بكر إلى رسول الله ﷺ فقال له :" مددهم الأجل أي بدل ست قلاص عشرة، ففعل سيدنا أبا بكر ﷺ ففي العام السابع أنجز الله تعالى وعده وانتصرت الروم على الفرس.وهذا إعجاز غيبي إذ يتحدث عن أمر مستقبلي متعلق بأمة من الأمم، وفي القرءان من هذا النوع كثير.

مثال 2: يخبرنا الله تعالى أن المسلمون عام صلح الحديبية رجعوا إلى المدينة المنورة وهم مكتئبون حزانى حيث أرادوا أداء العمرة وزيارة مكة والطواف حول الكعبة لكن لم يتح لهم ذلك، حيث ظهرت غطرسة المشركين وطغيانهم.في هذا العام يخبرهم الله عز وجل في قوله:"لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا " المسلمون رأوا ما يدل على النقيض من ذلك، لكن الله عز وجل بشرهم أنهم سيدخلون، وحصل هذا حين دخول المسلمين مكة آمنين مطمئنين باقين وهم راجعين إلى أوطانهم.

النوع الثاني: إخبار القرءان عن مصير أشخاص، وهو ما لا يتأتى لرسول أو غيره أن يتحدث عنها، وهو أمر بيد الله عز وجل.رجل كافر وهو ينصب العداء للمسلمين وهو مضرب المثل في العداء، هل يتأتى لرسول الله إلا بوحي من الله عز وجل أن يعلم أن هذا سيسلم بعد حين، أو أنه سيظل كافرا يناوئ المسلمين ويبادلهم العداء ؟؟لا مستحيل ذلك، مثلا سيدنا عمر كان مضرب المثل في العداء وحمله السيف محاولا قتل رسول الله ثم أسلم.

مثال 1: لنرى مادا يقول الله عز وجل عن "الوليد ابن المغيرة" وهو من المشركين الجاحدين، ولكن سيدنا عمر كان أكثر جحودا منه، البارئ عز وجل يقول: " إنه فكر وقدر فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ "لنفرض أن هذا كلام بشر وليكن سيدنا رسول الله ﷺ، ما الذي أدراه أن "الوليد ابن المغيرة" لن يسلم؟ أي إنسان قال هذا فإنه أكيد سيخطر بباله ربما أعلن هذا الرجل إسلامه حتى يطلع غيري إني كذاب، لهذا لا يستطيع أن يقول عنه هذا، ولكن الذي يقول هذا الكلام " سأصليه سقر " هو ذاك الذي يعلم إلى أي عاقبة سينتهي بها هذا الإنسان، إذن لا يمكن لبشر أن يقول هذا الكلام.

مثال 2: قول الله عز وجل عن أبي لهب في سورة المسد :" تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ "لا أحد من البشر يمكنه أن يدلي بهذا القرار المستقبلي عن زيد من الناس، وباب الهداية مفتوح.لكن الذي أدلى بهذه النهاية لأبي لهب والوليد ابن المغيرة هو الله سبحانه وتعالى.لأنه علم النهاية التي سيختارها هذان المشركان وغيرهم، وأنهم لن يختاروا الإسلام .

مثال 3: البارئ عز وجل في أول سورة القلم يتحدث أيضا عن واحد من صناديد المشركين في قوله تعالى :" فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ " هذا تعبير عن العذاب واللعن اللذان سيلحقان بهذا الإنسان، عن طريق الاستهانة بهذا الإنسان واحتقاره، حيث عبر الله أن أول ما يصلى به النار هو خرطومه، لأن أول ما يتجلى في استكبار الإنسان هو أنفه الذي يرفعه.

مثال 4: في قوله تعالى :" وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ" وهم اليهود، ويقول أيضا عنهم :" وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ " هنا النار تتقد فيطفئها الله عز وجل، وهم دائما يسعون في الأرض فسادا، وكل أنواع الفساد الذي تسمعون عنه وينتشر في الأرض فإن اليهود وراء ذلك تماما.وهذا الانهيار الاقتصادي إنما افتعله اليهود، وغدا ستتجلى هذه الحقيقة.

حديث البارئ عز وجل عن أمور ستجري من نوع الحوادث، مثلا أخبرنا عن اليهود وبعض صفاتهم المستقبلية، وننظر فنجد أن واقع اليهود فعلا يجسد هذا الذي أخبرنا به البيان الإلهي.

النوع الثالث: البارئ عز وجل أخبرنا عن قوانين وأمور كونية، وهذه نقرأها في كتاب الله عز وجل فلا تجد أياً منها قد خالفها الواقع بشكل من الأشكال منها:

مثال 1: قوله تعالى :" وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ" نلاحظ أن الطب يتقدم، والإنسان يتصور أن الطب ربما يصل في يوم من الأيام إلى حيث يقضي على الشيخوخة، المتمثلة في المشيب وتقوس الظهر... ولا أحد يستطيع أن يقول "ومن نعمره ننكسه في الخلق " لكن ها هو بيان الله عز وجل، هذا قانون، وفيه أيضا إعجاز في الجملة القرءانية أقصر عبارة تحمل معنى كبير جدا.ونقف فنجد أن الطب لم يستطع أن يقف في وجه هذا الخبر.وعن الموت فإن العلماء المخترعون كانوا وما يزالون يحاولون أن يتعرفوا على أي وسيلة للقضاء على الموت أو تأخير أمده، ولم يتأتى لهم ذلك.لو قلنا أن القرءان ليس كلام الله عز وجل، ما أدرانا أن البشر في رحلتهم العلمية الاستكشافية الإختراعية سيبدعون نوع من الأدوية والعلاجات التي تقضي على الموت ممكن.لكن هذا كلام من خلق الموت، ومن خلق الحياة، ولذلك هذا الخبر يمخر عُباب الدهر ويمخر الأجيال ولن يستطع لا العلم ولا الطب أن يكسر هذا التحدي الإلهي الذي أخبرنا به.

مثال 2: البارئ عز وجل يقول :" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" تحدي من الله عز وجل أنكم لن تستطيعوا أبدا التعرف عن حقيقة الروح، والعلماء حاولوا ذلك مرارا لكنهم في كل مرة باءوا بالفشل.وكل الآيات التي تتحدث عن قوانين الكون من هذا القبيل.

مثال 3: قوله تعالى :" وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ" والبارئ عز وجل هو الذي أنزل هذا القانون حيث لا تزال المجتمعات البشرية ولا يزال الكون خاضع لهذا القانون، حيث أن الماء يكون موجودا في باطن الأرض وفجأة ينخفض منسوب المياه بعدما كن نحفر خمسة عشرة مترا نجده، بعد ذلك خمسين متر.. أين ذهبت؟ لا نعلم.لا إله إلا الله.

(الدرس 19)

مثال 4: ربنا عز وجل يقول :" نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ" هذا قانون من قوانين الله عز وجل الماضية في عباده، يعبر البيان الإلهي بها بسنة، وهذه السنة هي تفاوت الناس في الدخل وفي الرزق، وأن يتفاوتوا في القدرات.ونجد أن فئات كثيرة من الناس من علماء وباحثين واقتصاديين... عكفوا على أن يفعلوا العكس، ومنهم دعاة الاشتراكية الماركسية كان هذا من أهدافهم ، وبدلوا هؤلاء جميعا جهودا شاقة في هذا الصدد، وامتلكوا ناصية الاقتصاد وفرضوا توزيع الثروات على الناس في سبيل أن يصبح الناس كلهم سواسية في الدخل والقدرات والأعمال، على عكس ما قد قضى به الله عز وجل كما دلت به الآية.لكن الذي حصل أن قانون الله عز وجل هو الذي سار، وتلك المحاولات بادت، وظلت سنة رب العالمين هي الماضية في كل أنحاء العالم.ولله في ذلك حكمة :" لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ " أي متعاونين فيما بينهم.

مثال 5: البارئ عز وجل قضى بسنة أخرى في محكم تبيانه، بأن كل من آثر الحياة الدنيا وسعى سعيه من أجل مزايا الحياة الدنيا، فإن الله لا يحرمه من ذلك أي يعطيه ثمرة سعيه، لكن ليس له في الآخرة من نصيب، ولا يضيع عمل العاملين في دار الدنيا الذين قصدهم ثواب الله عز وجل ورضاه، فإن البارئ يكرمهم بتلك المثوبة يوم القيامة ويسعدهم سعادة لا شقاء بعدها.في قوله تعالى:"مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" ومن الناس من يستشكل الأمر قائلا لما هؤلاء مسلمين مصلين لا يتمتعون بتلك الأرزاق التي يتمتع بها الغربيين الكفار.لكن القارئ للآية يتضح له قانون الله عز وجل، وفي قوله أيضا:" مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا"إن الله تعالى يحب العدل وإن كان الذي يمارسها كافرا، ويكره الظلم وإن كان الذي يمارسه مسلم.وعندما نرى تطبيق سنن الله تعالى نزداد إيمانا به سبحانه وتعالى.

مثال 6: سنة أخرى في قوله تعالى :" وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ " الذين كفروا حيث نسو هوياتهم ، ونسو الغد الذي ينتظرهم، ونسو عبوديتهم لله عز وجل ومارسوا العبودية لأهوائهم وشهواتهم و

رغائبهم، على الرغم من أنهم يمارسون العدالة والبارئ يعطيهم ثمرات عدالتهم، لكن يبعث إليهم بين الحين والأخر هزة تلو الهزة إما تحتك بهم أو تنزل قريبا من دارهم، أو تأخذ ضاحية من ضواحيهم لعلهم يستيقظون ويؤوبون ويثوبون، لكن دون جدوى إلا أن يأتي وعد الله عز وجل.ونجد هذا أيضا في قوله تعالى :" لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ " كلها سنن نرى مصداقها في حياتنا اليوم.

يندرج الإعجاز العلمي في الإعجاز الغيبي: والسبب أن كلمة الإعجاز العلمي اليوم أصبحت بابا واسعا جدا يدخله المحترفون والمرتزقة والمدجلون، ويدخله الصادقون أيضا.أي أصبح باب ليس له حد، حيث كل من أراد ألقًا في المجتمع وشهرة، يأتي بمسائل علمية وبعض الآيات القرءانية ويسقط هذه على الأخرى بقدر من التكلف ويقول لناس أنظروا قد اكتشفت إعجازا علميا.وكثير ما يكون هذا إما من أجل شهرة أو كسب رزق.ونحن نريد وضع حدا لهذا حيث تجر الآية القرءانية برغم أنف قواعد اللغة العربية وقواعد الإعراب، ودلالة الكلمة العربية في القاموس، فتجر حتى تنطبق مع نظريات علمية.والملاحدة بسماعهم هذا يزدادون اشمئزازا وكراهية لدين، ويجعلون من هذه المواقف حجة لهم.

مثلا: ذاك الذي يقول من الإعجاز العلمي في القرءان ما ذكره القرءان لسيدنا يوسف :" اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ " قالوا ثبت علميا أن العرق إذا جمع وكحلت به العين الرمضاء أو المريضة أو التي لم تعد ترى فإنها تعود بعد ذلك إلى الإبصار.هل يمكن لأحدنا أن يصدق هذا الكلام.

أولا إذا كان هذا صحيح فإن هذا ينطوي على سيدنا يوسف.

ثانيا: عندما خلع سيدنا يوسف قميصه فإننا لا ندري إن كان عليه عرق أم لا، لنفرض فيه إلى وصولهم من مصر إلى البيداء التي فيها سيدنا يعقوب قرابة شهر، فأي عرق يبقى بالقميص.

وأمثلة كثيرة يمجها العقل والله تعالى لا يحتاج إلى تمحل المتمحلين، فالقرءان معجز ،ودلائل إعجازه تبهر البصائر والأبصار، وهو ليس بحاجة إلى هذه التمحلات أبدا بشكل من الأشكال.هناك إعجاز علمي كوصفه القمر بالإنارة والشمس بالضياء أو بأنها سراج، واللغة العربية

تقول أن وصفك الشيء بالإنارة إن كان الضوء ينعكس عليه من جرم أخر فتقول غرفة منيرة، وتقول عن شيء أنه مضيء إذا كان الضياء ينبثق منه ، وتقول لشيء سراج إذا كان يبث مع الضوء حرارة، وتقول منير إذا كان لا يبث مع الضوء حرارة.وقوله تعالى :" والأرض مددناها " حيث هناك امتداد كلي لا حدود له، أي أنها كروية، أي لا وجود لحافة.

وكثير من مؤسسات ظهرت في الإعجاز العلمي لفرض التكسب والاحتراف، وأمور أخرى، وربما كان منهم من لا يقيم لأحكام الشريعة وزنا.لهذا ندرجه في الإعجاز الغيبي، وفيه أمثلة كثيرة، ذكرنا طائفة منها.

الوجه الثالث: الإعجاز بالتشريع: والتشريع يعني أحكام الحلال والحرام، المتمثلة في السلوك منها: أولا العبادات، ثم المعاملات المالية، الأحوال الشخصية، أحكام الحدود، الجرائم والعقوبات، وأحكام المعاملات الدولية التي رسمها القرءان ما بين المسلمين وغيرهم.

في هذا العصر هناك من الناس من كتب في الإعجاز التشريعي في القرءان، فتنكبوا وذهبوا بعيدا عن حقيقة الإعجاز في التشريع، وأساءوا بهذا التنكب.مثلا قالوا :" أنظروا إلى الشريعة الإسلامية وكيف قسمت الكتلة المالية عندما يموت صاحبها بين الورثة تقسيم دقيق وعادل، بين الذكور والإناث والكبار والصغار، والحواشي والأصول والفروع " كل هذا صحيح، لكن هذا ليس إعجاز، وإنما هو يدل على تكامل أحكام الشريعة الإسلامية، وصلاحيتها، وعلى أنها باقية، وفيها من المرونة ما يتجاوب مع كل المجتمعات.وهذا كله ليس بالجانب الذي يسمى بالإعجاز التشريعي.إذن ما هو هذا الإعجاز ؟؟

مقدمة: مما اتفق عليه من طرف علماء الاجتماع والقانون والسياسة... كلهم اتفقوا على أن أي مجتمع من المجتمعات عندما ينهض من كبوة التخلف ويتجه إلى التقدم الحضاري ويسير فيه صعدا شيئا فشيئا، فإن قمة التقدم في ذلك المجتمع هي رسم قوانين تعبر عن العلاقات الاجتماعية القائمة في ذلك المجتمع .

لنتأمل ذلك في الجزيرة العربية في فجر البعثة، وكيف كانت لما بعث سيدنا رسول الله، وكلنا نعلم أنها كانت مضرب المثل في التخلف.أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون، العلاقة بينهم علاقة عشائرية بسيطة جدا جدًا، هذا غير الحروب التي إذا قامت لا تقعد بسبب أبسط الأمور التي تقع.في هذا الجو بعث سيدنا رسول الله ﷺ، ولما هاجر من مكة إلى المدينة بدأت تتنزل عليه آيات التشريع،

والتي تتميز بما فيها من تكامل تشريعي عجيب، فيها قانون ما يسمى اليوم بسد الذرائع، وفيها ما يسمى اليوم بالمسئولية التقصيرية، وفيها قانون توثيق العقود وهو ما يسمى اليوم الكاتب العدل، وفي القرءان ما يرسم علاقة الناس بعضهم مع بعض اقتصاديا واجتماعيا، ترسم علاقة المجتمع القبلي بالجزيرة مع المجتمعات الأخرى في حالة السلم وفي حالة الحرب وما إلى ذلك من أجل الصلح والهدنة.وتنظر إلى هذا كله فيخيل إليك أن المجتمع الذي يرسم هذا القانون مجتمع وصل إلى قمة الحضارة.باعتبار أن آخر شيء تصل إليه المجتمعات أثناء تطورها هو سن القوانين.والمجتمع بالجزيرة العربية قد نهض من سباته عند البعثة وهم غير شاعرين بحاجتهم إلى هذه القوانين ،. ولو قرأنا آية المداينة في أواخر سورة البقرة نجد أن كلمة الكتابة تكررت حوالي ثمان مرات، فيخيل إليك أنه مجتمع كلهم كتاب وعباقرة، في حين أنه العكس.وبتالي لا يعقل أبدا أنه كلام بشر، إنه كلام رب العزة سبحانه وتعالى.وإذا أردت اليوم أن تصوغ قانون في توثيق العقود لن تستطيع أن تسوغه بأدق من كلام الله تعالى.وهنا يكمن سر الإعجاز التشريعي الذي وجد في مجتمع لا يفكر فيه ولا يشعر بالحاجة إليه.

(الدرس 20)

نجد أن هذا التشريع القرءاني الذي أقر كل علماء القانون في المجتمعات الغربية وغيرها، بأنه قانون متكامل يتميز بصفات نادرة لا توجد في القوانين الوضعية، بل إن رجال القانون في كل المجتمعات بحاجة ماسة كل ما أرادوا وضع قانون معين إلى العودة إلى قانون الشريعة الإسلامية فيستفيدوا منها.حيث عقدت مؤتمرات بالمجتمعات الغربية في غضون القرن الماضي، وانتهى جميع المؤتمرين إلى الإعجاب بهذا التشريع القرءاني المتكامل، وأيقنوا وأقروا جميعا بأنه لا غنى لرجال القانون من التعرف على نظام الشريعة الإسلامية وأحكامها.وهذا التشريع الذي وجد في بيئة بسيطة أمية، العلاقات الاجتماعية بينهم بسيطة... هو المقصود بالإعجاز في التشريع.

دلائل وبراهن على الإعجاز التشريعي: كلنا يعلم أن محترفي الغزو الفكري، والحاقدين على الإسلام أي كانوا، عندما نتحدث لهم عن القرءان ينسبونه إلى المجتمع الجاهلي، قائلين أنه من وضع محمد.كونه بالعربية وهي مزية المجتمع العربي الجاهلي.لهذا لا يجدون حرجا في نسب القرءان إلى أهل الجاهلية في صدر الإسلام.لكن هل نسب أي منهم التشريع القرءاني إلى عرب الجزيرة العربية؟ أبدا ولا أحد لأن لا أحد يصدقهم على هذا.

1. كونهم أهل بادية لا علم لهم بشيء من هذا.وإذا سألناهم عن التشريع، يرون في هذا لغز بالنسبة لهم، ويحلونه بأن يقولوا هذا التشريع إنما اقتنصه وأخذه محمد ﷺ من التشريع الروماني من موسوعة جستنيان.ولما يقولون هذا الكلام يصطدمون بمشكلات لا ينجحون بسببها في هذه التهمة والتدجيل الذي يقولونه.

لأنه لا يوجد أحد يقول أن محمد ذهب إلى تلك المجتمعات وأخذ ميراث الحضارة الرومانية واستلبها.. لا أحد يقول هذا.العالم كله يعلم أن محمد ﷺ ابتعته الله أميا وأبقاه على أميته إلى أن رحل.

2. يعود هؤلاء المدجلين فيقولوا لا هو لم يقتنصها من الحضارة الرومانية ، لكنه استلبها من تشريعات الكتب المقدسة من الثورات.وهذه أيضا لا يستطيعوا تثبيتها كون النبي وقف يصد ويرد على أكاذيب أهل الكتاب لا سيما اليهود منهم، مثل أي شيء.ما هي المبادئ القانونية الدستورية التشريعية التي اقتنصها كتاب الله أو محمد من الثورات.ونعود فنقول أن الذي أنزل الثورات الحقيقية والإنجيل الحقيقي هو الله تعالى ومنزل القرءان هو الله.لهذا من المفروض أن تكون متناسقة متناغمة ينسجم بعضها مع بعض.ونجد هذا في قوله تعالى :" الم ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ" ولا غرابة إن وجدنا توافق بين هذه الكتب وقد علمنا أن منزلها واحد وهو الله سبحانه وتعالى.والبارئ سبحانه وتعالى أخبرنا بأن هنالك تشريعات خاطب بها بني إسرائيل، وخاطبنا بمثلها أيضا في قوله تعالى :" وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " البارئ يخبرنا أنه هكذا شرع لبني إسرائيل من قبل، وها نحن نأمر أمة محمد ﷺ بما قد شرعناه بالأمس.وهنا الحديث عن ما أنزل فعلا وليس عن ما دس وأخفي في الكتب السماوية.

هؤلاء الذين حاروا في تفسير الشريعة الإسلامية التي ظهرت بالجزيرة العربية حيث كان العرب آنذاك غير مؤهلين لوضع قانون.

3. عاد هؤلاء وقالوا هي شريعة سرقها من حمو رابي "كيف هذا وهو الذي جاء قبل بعثة رسول الله بردح من الزمن، حيث جاء بمبادئ أخلاقية سليمة، لكن لم يعثر التاريخ في حياة حمو رابي على

تشريع متكامل لا يشبه ولا قريب من التشريع الإسلامي.وحتى التشريعات الوضعية، لكن الرجل استطاع بمبادئه أن يجمع قومه على نهج سليم مستقيم.إذن القفزة الثالثة على هؤلاء الحاقدين على الشريعة الإسلامية أنها شريعة حمو رابي.نقول لهم أين هي تلك الشريعة لنقارنها مع شريعة الإسلام عندها نقول إما نعم أم لا.

هذا الموقف الذي أحدث بلبلة واضطراب اتجاه التشريع الإسلامي، هو الذي نعنيه بالإعجاز القرءاني من ناحية التشريع.ولو كنَّ مع هؤلاء لقلنا لهم قولوا أن هذا التشريع من تأليف العرب، كما قلتم في صياغة القرءان.ولماذا تبتعدون وتقفزون بين هذا وذاك؟ يقولون لا لأنه لا أحد يصدقنا، كون العرب هم أهل بادية وأميون ولا ثقافة لهم ، وهذا ما نعنيه من أن القرءان نازل من عند رب العالمين.

4 ـ وعملية التدجيل على القرءان لم تنتهي بعد، حيث جاء أناس في عصور متأخرة، من أمثال "شاخت" وهو القانوني الألماني، و "غولت سير " ذو أصل يهودي، جاءوا بحل أخر للمشكلة، حيث أن التشريع القرءاني شيء مذهل لهم يجعلهم يعيشون في دوامة لا مخلص لهم منها.شاخت حاول أن يتخلص منها، بتدجيل أصولي، حيث قال :" بعد وفاة محمد ﷺ بمائة سنة أو نحو ذلك وجدت في الجزيرة العربية بعد أن انتشرت الحضارة والمدنية، والثقافة أخذت دورها في هذه المجتمعات، انتشرت أدمغة قانونية مثل الشافعي مثل الإمام مالك وأبي حنيفة وأصحابهم، فوضعوا التشريعات من عندهم، ثم أرادوا أن يخلدوا هذه التشريعات، فاخترعوا لها غطاء من النصوص الدينية، من أجل أن يجعلوا هذا الغطاء أداة لتخليد هذه القوانين، فربطوا مخترعاتهم القانونية التشريعية بنصوص الحديث، الذي جاء بعدهم " هل بهذه القفزة الرابعة نجحوا، نقول أي حمار ممكن أن يصدق هذا التصور.هذا الدجل الرابع أوغل في السذاجة الفكرية والحماقة من التفسير الأول والثاني والثالث.والذي جعل شاخت يقول هذا رؤيته شريعة مذهلة متكاملة عجيبة، ولو قال أن هذا التشريع جاء به محمد ﷺ لكان بينه وبين دخوله الإسلام قفزة واحدة.ولم يأتي به محمد ﷺ كون الجزيرة لم تكن مهيأة أصلا لأن تطرح قانونا متكامل بمثابة دستور.

وأضعكم أمام براهين تزيدنا إيمانا بتشريع الله عز وجل، وكأننا نرى هذا التشريع ينزل من الله إلى هذه الأمة لكي تنقلها إلى رحاب السعادة.

الدكتور " آمين مصطفى " لكي ينال درجة الأستاذية بأوروبا اختار البحث التالي: أن يدرس شاخت ويكتشف علميا دجله و أكاذيبه.ووضع نصب عينيه هذا الأمر، وفعلا سجل هذا العنوان

في الجامعة التي درس بها وهي بريطانيا.ومشرفه ظن أنه سيثني على شاخت كما يفعل بعض السخفاء والسفهاء الذين يعيشون أتباع أدلاء وذيول حقيرة لأولئك الناس التافهين.ولما قدم هذا الدكتور النموذج الأول لعمله وإذا به يكشف دجل شاخت وأكاذيبه فيما يتعلق بالمراجع، عندئذ :

قال له المشرف: لماذا تكتب بهذه الطريقة ؟

قال له: أريد أن أكشف الحقيقة العلمية.

فقال له المشرف: إذا أردت أن تنال درجة الأستاذية بهذه الطريقة فاعلم أنك لن تستطيع أن تنالها.

فقال له: ولكني أتجه اتجاها علميا، وأنهج نهجا أنتم علمتمونا إياه وهو حرية الفكر، وأنا لست مدجلا عليه، ولست مفتأتا، وإن كنت كذلك فلا تقبلني، وأما إن كنت أقول كلاما علميا سليما، فاقبلني.

أخيرا قال المشرف: أقول لك ناصحا لن تنال هذه الدرجة بهذه الطريقة.ثم قال: مالك ولشاخت هو يدرس عندنا اذهب وادرس من عندكم.

عندئذ ازداد آمين المصري اهتماما بأن لا يستبدل بهذا الموضوع غيره، وأن لا يكتب إلا عن شاخت، فقيل له هنالك جامعة أخرى اذهب إليها وهنالك الجماعة متحررون يمكن يقبلوا موضوعك.

ذهب إلى هناك وسجل رسالته أيضا هناك، واختار لنفسه مشرفا بعد أن قيل له أنه إنسان منفتح يقبل الأفكار المختلفة.وبدأ يتابع عمله، وإذا بهذا المشرف الأخر يقول له: أنا أنصحك، أني ولو قبلت أفكارك هذه التي تكشف فيها عوار شاخت، فإن لجنة المناقشة لك لن تعطيك درجة الأستاذية.وعندئذ اضطر آمين المصري أن يغير اختصاصه واتجه لنيل درجة الدكتوراه في علم النفس التربوي.

هذا يزيدنا يقينا بأننا نحن المسلمين الذين نتمتع بحرية الفكر وحرية البحث بالانقياد للعلم وموازين العلم، أما أولئك فيضعون العلم وحرية الفكر مصفدا بالأغلال تحت أقدامهم في سبيل عصبياتهم ورعونتهم وأهوائهم، وحرية الفكر موجودة عندما لا تمس رغائبهم، ولكن إذا تعارضت مع رغائبهم وأهوائهم يصفدونها...

(الدرس 21)

الوجه الرابع: مظهر جلال الربوبية في كتاب الله تعالى:

وهذا الجانب من أكثر مظاهر الإعجاز التي تهيمن على كيان السامع أو القارئ، وهو جانب يتأثر به الكل وحتى الأعاجم.حيث كثير ما يسمع أحدهم آيات الله تتلى أو يقرأها فيقول: لا يمكن أن يكون هذا كلام بشر.تسأله لماذا؟ وقد لا يستطيع أن يعبر، لكنه يشعر أن هذا ليس من نوع كلام البشر.وهذا هو جانب من جوانب الإعجاز في كتاب الله عز وجل.ولكي ندرك هذا الجانب لابد أن نبين حقيقة معروفة وهي :

- من المعلوم لكل المثقفين والباحثين أن الكلام الذي ينطق به المتكلم عادة هو مرآة لنفسيته، وكلما امتد المتكلم في الحديث كلما ازدادت نفسيته الخفية جلاءً ووضوحا.وقالوا "أن الكلام صفة المتكلم".ونحن نعلم أن المحققين إذا أرادوا أن يستخرجوا من المتهم الحقائق الخفية، فإن أوضح وسيلة إلى ذلك هي استدراجه إلى الكلام.وبين الناس هنالك جامع مشترك من الطبيعة البشرية التي صاغنا الله عز وجل عليها، وإلى جانب ذلك نجد أن الله عز وجل ميز عباده بعضهم عن بعض بصفات ومزايا مختلفة من إنسان لأخر.

نتساءل هل بإمكان زيد من الناس أن يجلس ويكتب وهو مقلدا لنفسية زميل أو صاحب له؟ لا يستطيع ذلك.حيث كل واحد صفاته تتجلى في كلامه.والأسلوب يتجلى في الصياغة الكلامية وفي الوقت ذاته وعاء لنفسية، لهذا يستحيل تقليد أسلوب غيرك في الكلام رغم وجود جامع مشترك بيننا.

مثال على ذلك: " عباس محمود العقاد" رجل معروف في ثقافته واتساع معارفه وعلومه وله أسلوبه الخاص به عندما نقرأ له، حيث يمتاز بالعمق والجد، ويمتاز بالعبارة الدقيقة التي يغوص بها إلى المعاني العميقة، يعاصره أخر اسمه "إبراهيم عبد القادر المازني" هو الأخر له باع واسعا في العلوم والمعارف، لكن له طبيعة أخرى وهي المرح والنكتة.لنتساءل هل يمكن لهذا أن يقلد أسلوب " عباس محمود العقاد"؟ لا يمكن له ذلك أبدا.وكذلك العكس غير ممكن.

حاول بعض المعاصرين من الأدباء أن يقلدوا أسلوب الجاحظ وهو مطبوع بطابع عصر معين له أكثر من عشرة قرون، والذي أراد تقليده اليوم مطبوع بطابع هذا العصر، هذا إضافة إلى النفسية التي صاغه الله تعالى عليها أكيد تختلف عن نفسية الجاحظ .وبتالي لن يستطيع هذا تقليده أبدا.

نتهي من هذا إلى الحقيقة التالية: هل يستطيع الإنسان البشر أن يجلس ويخلع بشريته العامة أي إنسانيته ذاتيته تماما، ويجعل من نفسه إلها، ويغرس بين جوانحه صفات الألوهية بدل من صفات البشرية، ثم يجلس فيكتب كما لو كان إلها ؟؟ نقول إذا كان الإنسان لم يستطع أن يقلد أسلوب أخيه الإنسان، رغم الجامع المشترك الكبير بينهما؟ أيستطيع الإنسان أن يتخلى عن إنسانيته كما يتخلى أحدنا عن ردائه، ويجعل من نفسه إلها يتصف بكل صفات الربوبية،ويصوغ كلاما لا تجد فيه أي بصمة من بصمات البشرية ،إنما تجده يتألق بصفات الربوبية و الألوهية ؟؟

هذا كلام من الناحية العلمية نقوله.ونتساءل هنا لعل القرءان كلام بشر كما يقول المفتئتون ،ولعله كلام محمد ﷺ، أو كلام زيد من الناس أو فئة من الناس.ولقد قلنا أنه إذا كان كلام بشر ينبغي أن تتجلى فيه صفات البشرية، ونحن عندما نقرأ كتاب الله عز وجل ونستثني منه بعض ما يقوله الله عز وجل على لسان بعض الناس، مثل ما نقله على لسان سيدنا يعقوب مشاعره الإنسانية، وينقل على لسان سيدنا يوسف، وينقل عن فرعون، فلسنا نتكلم عن هذا.وإنما نتكلم عن الكلام الذي يخاطبنا الله عز وجل به عن ذاته معرفا لنا عنها.نتساءل ونحن نقرأ كلام الله هل نجد في آية منه رائحة لصفات البشرية ؟؟؟ لن تجد نهائيا ذلك.ومنه كيف يتأتى لك علميا أن هناك واحد من البشر عمل نفسه إلها وجرد نفسه عن الطبيعة البشرية فحكا لنا هذا الكلام ؟؟ لا أحد يمكنه أن يصدق هذا الكلام.

وهناك قانون نؤمن به، حيث لا يمكن لملحد أن يتحدى ويخالف هذا الشيء والواقع يدل على هذا.وكل القرءان مثال على هذا لنتأمل هذه المجموعة من الآيات الدالة على ذلك :

ـ قول البارئ عز وجل :" وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا " ليتصور كل واحد منكم أنه إنسان يقول هذا الكلام، في صفة من الصفات الإنسانية، هل يمكن لإنسان أن يقول عن نفسه هذا الكلام وهو مخلوق وليس خالق؟؟؟ لا وألف لا أي لسان لبشر لا يطاوعه أن يحكي مثل هذا الكلام.

ـ لما نقرأ قول الله عز وجل :" اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ " بالله كيف يمكن لعاقل أن يقول أن هذا من قول بشر.

ـ اسمعوا واقرؤوا هذه الآيات التي يخاطب بها الله رسوله محمد ﷺ، وافترضوا صدق من يقول أن القرءان كلام محمد ﷺ في قوله تعالى :" وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا " تأملوا في هذا الذي يُخَاطَبُ به رسول الله ﷺ.وضع عقلك فقط مصباحا منيرا أمامك، فإن عقلك لا يمكن أن يطاوعك على أن هذا كلام بشر.

ـ وتأمل قوله تعالى :" فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ" ألا ترون أن هذه الآيات تتنزل من علياء الربوبية، وحتى الأعجمي الذي له صلة بالله تعالى لمجرد سماعه هذا الكلام تأخذه رعدة منه، ولعله لا يدرك المعنى المفصل لأن بينه وبين اللغة العربية حاجزا من العجمة، وسبب تأثره هو مظهر الربوبية في كتاب الله عز وجل.

ـ لما نقرأ قوله تعالى :"نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ" هذا الكلام مغموس بجلال الربوبية، وإشعاع الألوهية.

ـ البارئ يقول :"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ " وقوله :" وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ " أهذا قول بشر وهو مُنَكَسْ وليس مُنَكِسًا.وقوله تعالى :" وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ

عَتِيدٌ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ " وقوله :" يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ " كيف يتأتى لي وعقلي معي وضوابط العلم تضبطني أن أقول أن هذا كلام بشر؟؟ أكيد لا أحد يصدقني.والقرءان كله بهذا الشكل.

ـ البارئ عز وجل يلفت نظرنا إلى هذا الذي نقول: حيث أن فرعون ادعى الربوبية، والبارئ عز وجل يبين لنا كيف أن كلامه يكذب دعواه.في قوله تعالى على لسان فرعون :" وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ " هل تجدون في هذا الكلام صفة من صفات الربوبية ؟؟ الكلام مغموس غمسا بصفات البشرية.يدعي أنه إلاه وهو لا يستطيع أن يرقى إلى السماء إلا بالطين وأسبابها،بشريته كذبته ،وكلمته لعلي والظن من مظاهر الطبيعة البشرية.

ـ ولنتأمل قوله تعالى :" قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" كونه كلام مليء بصفات وجلال الربوبية، وأنت عندما تستعمل هذه اللغة وعاء يفيض هذا الوعاء بصفاتك البشرية.

ـ لنتأمل قوله تعالى :" وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا " وقوله تعالى :" إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًاوَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا " البارئ عز وجل يتحدث عن صفاته وذاته وخلقه، ويتحدث عن الصفات التي لا يتأتى للبشر أن يدعوها، فضلا عن أن يتصفوا بها.

هذا هو مظهر جلال الربوبية في القرءان، وهو أهم بكثير مما يدعيه المتكسبين بالقرءان فيما يسمونه بالإعجاز العلمي في القرءان.وهذا المظهر يجعل كثير من الأعاجم لما يتلى القرءان أكثر خشوعا من بعض العرب.

(الدرس 22)

نسترسل في أمثلة أخرى من القرءان الكريم في مظهر الربوبية فيه، والقرءان كله مثال على ذلك ما عدى الآيات التي ينقل فيها البارئ كلام عبد من عباده.من الأمثلة أيضا ما يلي :

ـ البارئ عز وجل في صدر سورة ق يقول :" بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ " هذا كلام الكفار، لنرى بعدها كلام ربنا عن ذاته :" قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ " هل لِعَقْل أن يصدق أن هذا كلام بشر ؟؟؟ وسورة "ق" كلها مثالٌ لهذا الذي نقوله.

ـ لنصغي ونقرأ هذه الآيات من سورة الواقعة :" أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ " تلاحظ هوية الكلام تقدم ذاتيته إليك فيما تقرأ.

ـ قوله تعالى في سورة الحج، والبارئ يضعنا أمام برهان عن النشأة الثانية :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ"

ـ ربي سبحانه وتعالى لما يقول لنا :" أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا "

ـ وقوله تعالى :" وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا"وقوله تعالى :" وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا" إقرأ ما شئت من كتاب الله عز وجل تجده مطبوعا بجلال الربوبية ،هذا أبرز من الإعجاز البلاغي، وأوضح من الإعجاز العلمي والغيبي، لأنك لا تحتاج لإدراك هذا الجانب المهيمن إلى ثقافة واسعة، ولا إلى معرفة بدقائق اللغة العربية، ولا بدقائق وجوه اللغة العربية.

قد يقول قائل في بعض الأحيان نحن نقرأ في القرءان آيات يتحدث الله عز وجل عن الذات الإلهية بضمير الغائب، فكأنه غير الإله مثلا لما البارئ عز وجل يقول :" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" وقوله تعالى:" رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا"وقوله تعالى :" وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ " وهنا ربنا لا يقول عن ذاته.وقد قلنا أن في القرءان ما يسمى بالالتفات، يخاطبك الله عز وجل بضمير الذات أي المتكلم مدة من الزمن، ثم إنه جل جلاله وهو الحكيم الخبير يريد أن يرسخ في دهنك أن الذي يتكلم معك هو الله، فيلتفت ويأتي بعد ذلك في آية أو آيتين فيها التفات كما يقول علماء البلاغة، يتحدث فيها الله عز وجل عن ذاته بضمير الغائب، ليضعك أمام اسمه الله أو الحكيم أو على حسب الموقع، حتى تستيقظ من سباتك وتعلم أن الذي يخاطبك هو ربك.

ـ وقد يقول قائل أن سورة الفاتحة من القرءان، ولما نقرأها فإن الكلام فيها كلامنا، حيث تظهر فيها مظاهر العبودية .نقول أن آيات سورة الفاتحة تعليم لنا كيف نخاطبه، حيث أن البارئ أمرنا بالصلاة فكيف نقف أمامه وكيف نحاكيه ؟ فتفضلا منه وإحسانا علمنا ربنا كيف نناجيه، وهذا

بوصفي عبده ومخلوقه وبوصفي أستنزل رضاه ورحمته، لذلك لا صلاة إلا بفاتحة القرءان.وفي الفاتحة ثناء فبيعة مع الله فدعاء.

أجل وجوه الإعجاز هو هذا.وأحذركم من أمرين اثنين وهما :

أولا: التسلي بما يسمى الإعجاز العددي في كتاب الله عز وجل، إياكم هذه مكيدة، وهو عبارة عن مصيدة نصبت في طريق الذين يدرسون في كتاب الله عز وجل بحسن نية، فينشغلوا عن مضمون القرءان خطاب الله لنا أوامره ونواهيه، ننشغل ونحجب عن ذلك بتعداد الحروف وتعداد الكلمات، وتعداد الآيات، ونمضي دهرا طويلا في هذا، وهذا الذي شغل الناس بهذا هو " رشاد خليفة" وهو بهائي ليس بمسلم، فأراد أن يخدع المسلمين ويشغلهم عن كتاب الله عز وجل، بالانشغال بحروف القرءان كلمات القرءان والعدد وما إلى ذلك، ثم جاء من بعده من سار على منواله ربما بحسن نية.فنقول لك إن أردت أن تنظر إلى إعجاز القرءان فانظر إلى الإعجاز الذي ينبثق من مضمونه.ولكي تزدادوا معرفة وثقة بما أقول: أقول لكم أنني رأيت هذا الشخص " رشاد خليفة" في مؤتمر من المؤتمرات دعي إليه في الجزائر فقام وتكلم وألقى مداخلته ، وكان فيما قال أن المعجزة العددية في كتاب الله عز وجل كشفت له عن تاريخ يوم القيامة، وقال بقي لقيام الساعة ثلاث مائة أو لا أدري وبضع من السنوات.وقام من ناقشه في هذا قائلا له: البارئ عز وجل يقول :" وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ " فكيف أنت عرفت؟ فكان جوابه إنما قوله :" إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ " أي الكفار لا يعرفون، إنما المؤمنون يطلعهم الله على ذلك.من حسن الحظ وجود كفار أي غير المسلمين بالمؤتمر.فقام وقال له، هؤلاء فلان وفلان غير مسلمين ، الآن قد عرفوا متى يوم القيامة لما قلته لهم.فكشف أمره، ففي اليوم التالي حمل نفسه وفر في فجره دون أن يشعر به أحد.عليك أن تعلم أن كثيرين هم الذين يتقنعون بقناع الإسلام وهو ليس منه في شيء، فكونوا على حذر من هذا.

ثانيا: الإعجاز العلمي نعم هو موجود في القرءان، لكن عندما نريد أن نقف أمام مظاهر الإعجاز العلمي في القرءان ينبغي أن يسترعي انتباهنا الشرط التالي:

ـ أن تكون الآية صريحة في التعبير عن هذا القانون العلمي، فلا يجوز أن تتكلف في جر الآية إلى معنى ليس لها، فهذا إساءة للقرءان، ولست بهذا تخدم كتاب الله سبحانه وتعالى.

ـ كل يوم تظهر نظريات علمية وهي ليست قوانين علمية ثابتة، يمكن أن تكون صحيحة ويمكن لا، لا يجوز أبدا أن أربط بينها وبين آيات في القرءان.وكم من نظريات ألصقت بالقرءان ثم تبين أنها غير صحيحة.فأصبح التوسع في هذا وسيلة تكسب عن طريق القرءان، ووصول إلى شهرة .نعم هناك إعجاز علمي في القرءان، لكن متى تقف وتقول أن هذه الآية تبين قانون علمي ثابت؟ عندما يكون هذا النص القرءاني دالا على هذا القانون العلمي دلالة لغوية واضحة جلية لا لبس فيها.مثلا عند وصف الشمس بأنها مضيئة، وأن القمر منير.فهذا نص واضح، ووصف الشمس بالإضاءة لانبثاق الضوء من داخلها، ولا تقول عن الشيء منيرا إلا إذا كان الضوء ينعكس عليه من جرم أخر.هذا إعجاز علمي لم تكن العرب تعرفه.

ـ وفي قوله تعالى :" أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا " لنرجع إلى اللغة العربية نجد أن كلمة الكفت بمعنى الجدب فهذا إعجاز علمي، أما أن تحمل القرءان ما لا يحمل فهذا غير جائز.

العلماء الذين كتبوا في إعجاز القرءان:

ـ من أبرز من كتب في إعجاز القرءان "الجاحظ" له كتاب اسمه "نظم القرءان" حيث تكلم عن الإعجاز من الناحية اللغوية، وله كلام رائع في الإعجاز البلاغي في القرءان.

ـ كذلك الإمام الواسطي اسمه " أبو عبد الله محمد ابن يزيد الواسطي" كتب كتاب سماه "إعجاز القرءان"

ـ"عبد القادر الجرجاني"كتب في إعجاز القرءان وسمى كتابه "دلائل الإعجاز" وهو كتاب يخدم أمرين اثنين، فهو أول كتاب في تقعيد قواعد البلاغة العربية، والشيء الثاني أنه أبرز الجانب البلاغي في إعجاز كتاب الله تعالى.

ـ "أبو بكر البقلاني" كتب في إعجاز القرءان من الناحية البلاغية، ومن نواحي أخرى أيضا.

ـ أفضل من كتب في إعجاز القرءان في هذا العصر فهو "مصطفى صادق الرافعي" له كتاب اسمه "تاريخ آداب العرب " من ثلاثة مجلدات، ومجلد أفرده للحديث عن إعجاز القرءان، واسمه كذلك.وهذا العالم جعل الأدب خادما للقيم والمبادئ الإسلامية، ولذلك في عصره لم يلتمع نجمه كما إلتمع نجم "طه حسين" و"عباس محمود العقاد" وغيرهم.

(الدرس23)

موضوعات القرءان

ما هي الموضوعات الرئيسية التي يتعرض لها القرءان ؟

الجواب أن في القرءان موضوعات كثيرة ومتنوعة كلها تطوف على موضوع محوري واحد، هو دعوة الناس جميعا إلى أن يكونوا عبادا لله عز وجل بالممارسة والسلوك الاختياري كما قد فطروا لذلك بالواقع الاضطراري. كل الموضوعات التي سنتحدث عنها منبثقة من موضوع أن يكون الناس عبادا لله تعالى بسلوكهم الاختياري كما أنك عبدا مملوكا لله في واقعك الاضطراري.

تفرعت عن هذا الموضوع المحوري موضوعات كثيرة، ولكي أستجيب لنداء الله هذا فأمارس عبوديتي لله بسلوكي الاختياري كما أنني عبد له بواقعي الاضطراري، إذن أن أعلم كيف أمارس عبوديتي له، وينبغي أن أعلم مزيدا من التفاصيل عن هذا الإله، وعن صفاته، ومنه انبثق:

- موضوع في بحوث العقيدة: من دلائل وحدانية الله، ودلائل كماله عز وجل، ودلائل تنزيهه عن كل ما لا يليق، دلائل أن الإنسان بعد الموت سيرجع مرة أخرى إلى الحياة، وأنه سيقف بين يدي الله للحساب، وأن مآل الإنسان بعد النشأة الثانية وبعد الحساب إما نعيم دائم في الجنة والفوز برضا الله، وإما العذاب والوقوع في سخط الله عز وجل.هذه بحوث العقيدة.ونلاحظ أن البارئ عز وجل وهو يحدثنا عن موضوع العقيدة، يحدثنا كثيرا عن وحدانية الله، ولا تكاد تجد آية تتحدث عن وجود الله، لماذا؟ الجواب أن تاريخ البشرية منذ فجرها إلى تقريبا عصرنا هذا لم يعلم جيلا من العقلاء البشر جاء وأنكر وجود خالق للكون، لكنهم كانوا يقعون في الخلط والمتاهة لما كانوا يبحثون ليعرفوا من هو هذا الخالق.والرسل والأنبياء مهمتهم تعريف الناس بالإله الواحد الذي ينبغي أن يدين له الإنسان بالعبودية.في هذا العصر وجد الإلحاد وهناك من المفكرين الأوربيين من أرخ لعمر الإلحاد بمائتي سنة تقريبا منهم " جامبول سارتر"صاحب المذهب الوجودي الفرنسي، وهو ملحد.

نجد أن البيان الإلهي دائما يركز على وحدانية الله، أما وجود الله فهو شيء مفروغ منه، وكل الرسل والأنبياء الذين خل لهم الدهر جاءوا بعقيدة واحدة وهي الإيمان بالله الواحد وأن لا يشركوا به أحد، ومن تما فإن الدين الذي بعث به الأنبياء والرسل هو دين واحد، والذي اختلف بين عصر وأخر هو التشريع، أي أحكام الحلال والحرام.مثلا قول سيدنا عيسى لقومه مما جاء في القرءان :" وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ " العقيدة واحدة بينه وبين ما جاء به سيدنا موسى في التوراة، ولأحل لكم بعض ما حرم عليكم هذا في التشريع.

موضوع القصة في القرءان: ما علاقتها بالموضوع المحوري وهو العقيدة؟ البارئ عز وجل لما يحدثنا عن أمور العقيدة من صفات الله ووحدانيته، ومسؤولية الإنسان اتجاه هذا الخالق، فإنه يريد أن يبين لنا أنه نفس المعتقد بين جميع الأنبياء، ولكي تتبين لنا وحدة العقيدة فإنه يقص علينا من أخبار هؤلاء الرسل، وكيف أنهم جميعا بعثوا إلى أقوامهم بعقيدة واحدة.وهذه من أسباب وجود موضوع القصة.

ـ حكمة ثانية من وجود هذا الموضوع، وهي أن المصطفى ﷺ كان لابد أن يواجه الصعوبات في دعوته، وهي سنة الله عز وجل في الأنبياء والرسل السابقين.وشاء البارئ عز وجل أن يثبت المصطفى ﷺ على النهج الذي كلفه به، وأن يثبته في أداء الرسالة التي حُمِلها، فكان من وسائل التثبيت أن يقص عليه قصص الأنبياء السابقين ليوضح له أن هذا الذي يراه من الأذى من المشركين ليس أمرا خاصا به، وإنما تلك هي سيرة الرسل والأنبياء من قبل.نجد هذا في قوله تعالى :" وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ "

ـ موضوع التشريع في القرءان الكريم :فالقرءان ينقلنا بعد أن يعرفنا بأنفسنا عبيدا مملوكين لله، وبعد أن يعرفنا على ذات الله أنه إلها واحدا لا شريك له، ومتصفا بكل صفات الكمال ومنزها عن كل صفات النقصان... يجيبنا بعد ذلك عن سؤالنا ماذا نصنع وكيف تكون علاقتنا بعضنا مع بعض وبطريقة التي ترضي الله.وجوابه كان من خلال الأحكام الشرعية التي يخاطبنا بها بيان الله عز وجل، وهي أنواع :

أولها: العبادات ومقدماتها، وهي كل ما يفعله الإنسان استجابة لأمر الله عز وجل إلها له بوصف كونه عبدا له، بدون أي تساؤل عن سبب، وعن موجب، وعن فائدة، عن حكمة.. نهائيا، وسميت عبادات لأنها تلبية لنداء الله تعالى فيما طلبه من عبده.

ثانيا: هي مجموعة أحكام تنسق العلاقة الإجتماعية والاقتصادية والسياسية بين الناس بعضهم مع بعض، وتسمى هذه بالمعاملات.

ثالثا: أحكام بينها لنا كتاب الله عز وجل تعالج قواعد الأسرة، تنظيم العلاقات بين الزوجين والآباء والأبناء، وما بين الأرحام، ما يتعلق بالميراث والحضانة والرضاعة والنسب وغيرها.

رابعا: أحكام تتعلق بالجرائم والعقوبات، والإنسان معرض لارتكاب الجرائم، أو أن ترتكب ضده، وبينت تلك الأحكام الوسائل اللازمة لدرأ الجنايات قبل وقوعها، وأحكام لعلاج تلك الجرائم بعد وقوعها، من أحكام القصاص، والديات والحدود.

خامسا: تنظيم العلاقة التي تسري بين المجتمع الإسلامي والمجتمع المجاور غير إسلامي، مثلا متى ينبغي أن يشيع السلم، ومتى ينطوي ويستعلن الحرب، ومتى يجوز إعلان الهدنة، وإعلان الصلح.

كيف يعالج القرءان أحكام التشريع؟ من هذه التشريعات ما يفصل القول فيها تفصيلا تاما، مثل الميراث، والحدود، لا يدع مجالا للاجتهاد فيها، لخطورتها.

ما يتعلق بالعبادات وضع الخطوط العريضة وأحال التفاصيل إلى سيدنا رسول الله ﷺ، وكذلك المعاملات حيث وضعنا أمام قواعد كلية وأحال التفاصيل إلى سيدنا رسول الله ﷺ، مثل الربا.

ـ موضوع الأخلاق: ما الحاجة إلى الأخلاق ؟بعد أن عرفت أنه يجب علي أن أكون في والإنفاق في وضع متوسط لا إسراف ولا تقتير، لكن النفس أمارة بسوء، وكثير ما تتحكم فيَّ الأهواء، خاصة إن كثرت الأموال من حولي عندها قد أخالف بيان الله عز وجل في قوله :" وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا " ومخالفتي هذه تتنافى مع الأخلاق، إذن أنا بحاجة هنا إلى صمام أمان يجعلني أنفذ هذه الأحكام التي يخاطبني الله عز وجل بها، وصمام الأمان هو الأخلاق، غير التشريع.

مثلا: ربنا لما يقول :" وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ "

والبارئ عز وجل وضع قانون العدالة في قوله :" فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ " إلى جانب هذا القانون سمى البارئ بنا إلى مستوى الأخلاق والصفح.التعامل بالقوانين وحدها لا يكفي بل لابد من لحمة داخل تلك القوانين وهي لحمة الأخلاق والتي هي روح له.نجد أن ثلث آيات القرءان تتضمن الأخلاق، مثلا في قوله تعالى :" وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ "وفي قوله تعالى :" وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا" كلها مبادئ أخلاقية، حيث في القرءان دعوة لتخلق بالأخلاق الفاضلة.

كيف تزرع الأخلاق؟ البارئ عز وجل في القرءان يضعنا أمام بوابة الدخول إلى الأخلاق، وترتكز على القلب، حيث لابد من تنظيف القلب من الشوائب، وملئه بمحبة الله وتعظيم حرمات الله سبحانه وتعالى.ولكي أنهض بهذا الذي يخاطبني به الله تعالى نهوضا سليما متوجا بتاج الأخلاق، أن يكون قلبي مليئًا من مشاعر الحب لله والتعظيم لله والمهابة لله عز وجل، وإذا فاض القلب بهذا طرد مشاعر الكبر الحقد، الضغائن الشح البخل.وسبيل ذلك كله الإكثار من ذكر الله عز وجل، وهكذا تنشأ الأخلاق الفاضلة.

(الدرس24)

التصوير في كتاب الله عز وجل

والقرءان وهو يخاطبك ينقل إليك حقيقتين، صورة يضعها في مخيلتك.، ومعنى يبثه في عقلك، وهذا خاص بكتاب الله عز وجل.والجامع المشترك بين القرءان وسائر الكلام الذي نقرأه هو المعنى الذي يدركه العقل.والقرءان يمتاز على سائر ما كتب، أنك عندما تقرأه تجد أن خيالك يمشي مع المعاني.

والطريقة التي يسلكها القرءان إلى ذلك هي فريدة من نوعها، لم يعرفها من قبل البلغاء العرب، ولا من بعد استطاع أحد أن يقلد القرءان فيها.ونحن إذا أردنا تعميق معنى نستعين بتشبيه، وأحيانا بتمثيل ،ونستعين بالاستعارة.. حتى نجسد المعنى ونجعل له صورة في الخيال فيتأثر السامع أكثر.ونجد هذا في الشعر العربي والنثر.والقرءان إلى جانب ما فيه من تمثيل واستعارات يجعل من الكلمة التي ينتقيها وسيلة لتصوير المعنى.ومن خلال هذه الطائفة من الأمثلة نجد مصداق هذا الذي نقوله.

ملاحظة: الطفل الذي حظي بحفظ القرءان ما بين السابعة إلى العاشرة، فهو لا يستطيع استيعاب المعاني لعمقها، وإذا كانت له معرفة بسيطة بلغة العربية وهو يقرأ خياله يتصور والتي تنبعث في دهنه من طريقة صياغة الجمل وانتقاء الكلمات ،القرءان كله أمثلة على ذلك وننتقي منها ما يلي :

- قوله تعالى :" وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ "

- في قصة رجل من بني إسرائيل، كان قد أوتي علما غزيرا في الدين، وأوتي آيات باهرة في الدلائل على وجود الله سبحانه وتعالى، لكنه افتتن بالدنيا، ومال قلبه إلى زخارفها وشهواتها،

فاحجب عن هذه العلوم التي من المفروض أن تقربه إلى الله سبحانه وتعالى، وباء بالخسران.فصور الله تعالى لنا هذا بالمعنى والخيال أيضا، في قوله تعالى :" وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " حيث تجد أن كلمة فانسلخ منها صورة، وكان من الممكن الآيات ترفع من شأنه، لكنه أخلد إلى الأرض، وهذه صورة أخرى، حيث كانت الآيات تشده إلى العلو، لكن بإتباعه لهواه أخلد إلى الأرض.ثم صور لنا هذا بصورة الكلب الذي يلهث بلسانه في كل الحالات.

ـ يصف البارئ حال المؤمنين الصالحين يوم القيامة في قوله تعالى :" وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ " ثم يصف الفريق الأخر :" وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ " التراقي أي الموت، وعندها تكون الآلام من الأقارب حيث يقولون من راق، أي هل من طبيب.ثم يقول البارئ :" وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ " وهذه صورة سكرات الموت وآلامها.ثم يقول :" فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ " صورة للكبرياء، وهكذا السورة إلى أخرها معنى وتصوير.

ـ يقول البارئ لرسوله ﷺ، وقد أحزنه وضع المشركين الذين طال حديثه معهم ومناقشته، وبيان الأدلة تلو الأدلة وعرض دلائل صدقه فيما جاءهم به من عند الله عز وجل، ومع ذلك لم يلتفتوا إلى هذا كله بأي اعتراف أو يقين أو تصديق، والبارئ يقول له لا تبالي بهذا، فالأمر ليس بيدك وإنما بيد الله، قائلا له :" وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ " كبر عليك صورة أن إعراضهم صار حمل ثقيل عليك، هيا افعل شيء هنا وهناك من غوص في أعماق الأرض أو طلوعا إلى الفضاء هل تستطيع أن تفعل شيئا إذا كان الله لا يريد هدايتهم؟

ـ البارئ عز وجل يقول وهو يتحدث عن نظام الكون وهو يقسم الزمن إلى سنوات، وأشهر وأيام وليال، لمعرفة الحساب، ويقول تعالى :" وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ

تَفْصِيلًا"وكأن النهار شيء دو عينين يبصر ما حوله، وكأن الظلام ممحو فهو لا شيء لا ترى فيه لا أضواء ولا لون ولا شيء نهائيا.ثم يقول البارئ :" وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا" والطائر في العنق بمعنى هو الذي يتحمل مسؤولية نفسه، هنا نجد معنى وصورة.

- ويقول البارئ عز وجل:" وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ" شخص بصره بمعنى حدقت حدقته فلم تتحرك يمينا ولا شمالا، ثم يقول :" مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ " صورة فعلا لحالة الظالمين يوم القيامة، وكأنها ريشة ترسم لنا هذه المعاني.ويكونون مسرعين ورافعين رؤوسهم متجهين إلى اتجاه واحد، ومن كثرة الحيرة والرعب لا يعودون بالنظر إلى أحوالهم وشؤونهم ، تصوير لرعب الذي يأخذ بمجامع قلوبهم.

- لنتأمل قوله تعالى :" وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ" الخطاب لحبيبنا محمد ﷺ، الآزفة بمعنى قرب يوم القيامة، ويصور لنا شدة الخوف والرعب معبرا عنه بارتفاع القلوب إلى الحناجر، وهم كاظمين أي لا يستطيعون التعبير عن طوايا أنفسهم، والرعب الذي ينتابه.وكلمة خائنة الأعين لم تستعمل أبدا من قبل، حيث أن الإنسان في دار الدنيا يظهر شيئا ويبطن شيئا أخر، كذاك الذي يظهر الإيمان ويبطن الران والأهواء وما إلى ذلك، لكن هذا الذي يستكتمه هؤلاء الناس يظهر في أعينهم، ويُقال العين فضاحة، وهي فعلا كذلك.

- ربي سبحانه وتعالى يقول عن المجرمين، وكيف أن الذل يركبهم بعدما كانوا طغاة وبغاة، يقول عنهم سبحانه وتعالى:"وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ " صورة لذل.

- ربنا سبحانه وتعالى في كثير من آي الكتاب يوضح لنا أنه خلق الإنسان ووضع بين يديه أمانة هذا التشريع، لينفذه وهو ضمانة سعادته وخيره في الدارين الدنيا و الآخرة.ونجد هذا في قوله تعالى :" والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان والأرض وضعها للأنام" هذه صورة، حيث أنه تعالى وضع لنا الميزان وحذرنا أن لا

تطغوا فيه أي لا تحتكموا إليه، في بيان الله عز وجل الكلمات نفسها يجعل منها شيئا يبث صورة إلى الدهن.

ـ البارئ عز وجل يصور العقاب الذي أنزله بالمارقين من عباده في كثير من السور كلها مغموسة بالصور العجيبة، مثلا في قوله تعالى :" كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر " البارئ صور لنا الريح التي أهلكتهم وكيف أنها كانت تصرُّ في الأذان صريرا مرعبا، وكلمة تنزع فيها معنى الشد والإجداب، وكلمة منقعر متصيدة من كلمتين جاء بها البيان الإلهي ليغني اللغة العربية، ومعناها منقلع من قعره.وكل سورة القمر بهذا الشكل.

ـ ولما يقول البارئ عن سيدنا نوح :"فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ " المعنى والصورة تسيران معا.نجد تصوير للماء كيف نزل من السماء، تصوير لمهانة السفينة أمام هذا الطوفان.

ـ ربنا سبحانه يصف " الوليد ابن المغيرة" في استكباره وعتوه، يقول :" إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر " صورة لاستكبار هذا الكافر فيها تهمك له، وأن مصيره سقر.

(الدرس 25)

الأمثال في كتاب الله عز وجل

ندرسها دراسة علمية أدبية، وهو موضوع حَفِلَ به علماء القرءان واهتموا به، وربما وجدت مؤلفات خاصة عن الأمثال في كتاب الله سبحانه وتعالى.ونحن نريد من خلال هذا الدرس أن نتبين معنى الأمثال في القرءان، والحكمة من وجودها، وما يتعلق بذلك، ونستعرض طائفة من الأمثلة على ذلك.

الواقع أن ضرب الأمثال في آداب اللغة العربية يعتبر لونا متميزا من ألوان التشبيه أو الاستعارة، والذي يحوج الإنسان العربي إلى ضرب الأمثال، عندما يريد أن يعبر عن معنى دقيق قلما يتبينه

الإنسان، ولأجل تبسيط المعنى يسوق مثالا.والقرءان صيغ باللغة العربية لهذا احتوى بجميع فنون اللغة العربية وبلاغتها ونحو ذلك.

لنقارن بين المثل في القرءان وبين القصة: القصة التي يسوقها بيان الله عز وجل عبارة عن حقيقة تاريخية واقعة لا شك فيها ولا ريب، أما المثل الذي يسوقه بيان الله عز وجل فربما كان هذا المثل منتزعا من حقيقة واقعة ،وربما لا يكون منتزعا من حقيقة واقعة، وإنما هو عبارة عن افتراض.إذن الأمثال لا يشترط صحتها أو عدمه.

خصائص الأمثال في كتاب الله عز وجل: هذه الأمثال لها ثلاثة خصائص وهي :

أولا :الأمثلة التي نقرؤها في كتاب الله على اختلافها تكاد تكون لوحات فنية رائعة تصور لنا مشاهد المكونات التي من حولنا، هنا نتساءل ما علاقة المكونات بالمثل الذي يضربه لنا؟ حيث أنه يتحدث عن مبدأ من المبادئ أو حكم من الأحكام، أو مصير يقع فيه الجاحدون اليوم.هنا يكمن السر العجيب الذي اختص به القرءان، حيث أن البارئ عز وجل يقرب لنا المعاني المجردة عن طريق رسم صورة مما تراه أعيننا في المجالات الكونية.

- مثلا: ربنا عز وجل يخبرنا أن ما يقوم به الجاحدون في دار الدنيا من أعمال إنسانية كلها باطلة، لا يقيم الله تعالى لها وزنا يوم القيامة، ولا يثابون عليها، وهذا المعنى يجسده الله لنا بمثال في قوله تعالى :" وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ " انتزع الله تعالى لنا المعنى مما تراه أعيننا في الطبيعة، برجل اشتد به الظمأ في بيداء وأخذ يبحث عن شيء من الماء يشربه فوجد على البعد شيئا يلتمع فشد نفسه إلى ذك المكان، وهو يعتقد أنه يتجه إلى الماء، فسار حتى وصل إلى ذلك المكان، فنظر فلم يجد شيئا، وفي الواقع رأى السراب.وهذا مثال لبطلان أعمال الجاحدين والكفار. حيث يجدون الله تعالى أمامهم ليحاسبهم على أعمالهم.

ثانيا: الخاصة الثانية أن البيان الإلهي يسوق المثل بأسلوب قصة، حيث يكون مجزأ، والآية السابقة تبين ذلك، حيث لم يكتفي البيان الإلهي بقوله أن أعمالهم كأنها سراب، وإنما فصل وجعل المثل يشبه قصة.

ثالثا: الأمثلة التي يذكرها لنا بيان الله عز وجل كثيرا ما تأتي منفصلة عن ذكر الممثل له، والأصل أو المألوف أن أذكر معنا من المعاني أقول سأضرب لكم مثلا لهذا المعنى.والقرءان في كثير من

الأحيان يضعك أمام مثال فقط، والممثل له مطوي داخل المثال، وتدرك ذلك بقراءتك للآيات السابقة واللاحقة للمثال.

ـ مثلا: البارئ عز وجل يقول :" وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " لما تقرأ الآيات التي قبل هذه تدرك أن البيان الإلهي ساق هذا المثال ليبين لك الفرق بين المؤمن والجاحد، حيث شبه المؤمن بالماء العذب، والكافر المستكبر بالماء المالح الأجاج .

ـ لنتأمل قوله تعالى :" ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"هذا مثال لرجل أجير عند شركاء كل واحد منهم يرى نفسه مدير الشركة وهم متخاصمين بينهم، وهذا الرجل حائر لمن يعطي ولاءه، ورجل أخر يعمل عند شخص واحد يعطيه ولاءه ويعرف كيف يتعامل معه.والمراد بالمثال عن رجل يؤمن أن في الكون ثلاثة أو أربع آلهة ويريد أن يعبد فأي منهم يعبده؟ والآلهة متسابقين على مزايا الألوهية وهم متشاكسين.فالمنطق لا يقبل هذا أبدا.ولكن عندما يؤمن الإنسان بأن لهذا الكون إلها واحدا، هو المتصرف فيه، وهو الذي يقوده، وتلقائيا أنت سيكون ولاءك لهذا الإله.وسياق الآية وسباقها ينبئانك عن المعنى الذي ضرب لأجله البارئ المثل، رغم عدم ذكره للممثل به.

ـ مثلا في آية أخرى يقول البارئ عز وجل :" وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ " بقراءتك للآيات التي قبل هذا المثال والتي بعده تعلم المعنى، حيث أن ربي عز وجل يذكر هذا المثال للقلب السليم ، والقلب المفعم بالأحقاد والأدران وما إلى ذلك، قلب الإنسان هكذا فالطيب مثل الأرض الخصبة، والخبيث مثل الذي خبث أي تربة غير صالحة.

طائفة من أمثلة أخرى من بيان الله عز وجل :

1 ـ ربنا عز وجل يذكر المنافقين في أوائل سورة البقرة، ويضرب عنهم مثلا، ولنتأمل أن ثلاث خصائص تتجسد هنا، لكن هنا البارئ ذكر الممثل له، يقول البارئ :" مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً " المنافق متى رأى مغانم ينالها المسلمين، يتقنع بقناع الإسلام، حتى يكون له نصيب من هذه المغانم، ولما يأتي دور المغارم يهرب ويختبئ، فالبارئ يبرز هذه الصفة للمنافقين في مثلين بقوله تعالى

:" مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " المثل مأخوذ من صور الطبيعة ليصور لنا حال المنافق، مثال للذي استوقد نارا في ليلة ظلماء ليهتدي بها الطريق، ولما أشعلها أتت ريح عاصف فأطفأتها، أي أن المنافق يستفيد من نفاقه إلى أجل بسيط.والمثال الثاني كمطر ينزل بشدة في هذا الجو ظلمات ورعد وبرق، عندها يجعلون أصابعهم في آذانهم لشدة الخوف، أي أن المنافق يهرب من الأخطار التي تحدق أمامه.ولما يكون في هذا الجو ما يفيدهم يمشون فيه، وإذا أظلم عليهم وقفوا وخافوا.من خلال هذان المثالان فإن المولى يبرز طبيعة المنافق وكيف يتعامل مع الإسلام والمسلمين.والمثل هنا مثل قصة.

2 . أحيانا المثل في القرءان هي وقائع موجودة تاريخية، في قوله تعالى :" وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " هذا الكلام عبارة عن قصة واقعة في عهد بني إسرائيل، وبطل القصة "بلعام ابن بعوراء" وساقنا الله هذه القصة مساق المثل، وهذا عندما هيمنت محبة الدنيا أناسا، فحجبت هذه المحبة عن رؤية الحقائق، ومن تما مهما ذكروا وحدثوا، ومهما نبهوا، لا يرعون ولا يعون، فالعقل موجود لكن النفس ارتبطت بالملهيات والشهوات والأهواء، وكان هذا حجابا بينه وبين عقله، وسبب الظلال دائما هو هذا.وضرب الله لنا مثلا بهذا الرجل الذي أتاه الله حقائق الكون ودلائل وجود الله.. من الناحية العقلية، لكنه انسلخ منها فقفز الشيطان عليه فكان من الغاوين، فاستسلم لنفسه الأمارة فقادته الأهواء والشهوات... فأسكره ذلك، وبتالي نسي الحقائق التي كان يتعامل معها.وداخل هذا المثل ذكر مثلا أخر مشبها هذا الإنسان بالكلب الذي يلهث في كل أحواله.

(الدرس 26)

3 ـ مثالان ذكرهما الله تعالى في كتابه جعلهما الله مثالا للكافر الجاحد الذي يرحل من هذه الدنيا مستكبرا على الله عز وجل وقد فعل الكثير من الأعمال المبرورة، وهي أعمال لا يقيم الله

تعالى لها وزنا، ويقول الله تعالى على أمثاله :" وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا " والمثال الثاني قد شرحناه وهو في قوله تعالى :

" وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ " وقال عنهم :" أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ "هذه كلها أمثلة لمن رحل عن هذه الدنيا جاحدا مستكبرا على الله عز وجل وعلى الحق.والبحر اللجي يقصد به محيط من المحيطات لعمقها، وهذه الظلمات تكاتفت بسبب الأمواج المتلاطمة العالية الكثيفة، مع سحب متراكمة فوق هذه الأمواج، والوقت نهارا ليس ليلا.لكن هذه الظلمات الكثيفة حولت بياض اليوم الناصع إلى ظلام دامس، لدرجة إذا أخرج الإنسان يده يلوح بها لا يكاد يراها، ومحل الشاهد ظلمات الكافر وجحوده وظلمات استكباره وعتوه كلها تغلبت على أعماله المجيدة، ولم تفده شيئا.

ملاحظة: من العدالة الإلهية أن يعطى هذا المخترع أجره كاملا في دار الدنيا كما طلبه، وهو لا ينتظر أجرا في الآخرة لأنه غير مؤمن بها.والله تعالى يقول عن هؤلاء: "مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" وبالمقابل المسلم الذي يظلم فإن الله يعذبه أو يعاقبه في دار الدنيا.

4 . قال تعالى في قصة واقعية أخرى :" وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا" سيقت هذه القصة هنا مساق المثل، وعرفنا ذلك من قوله وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا، وهنا ينبهنا إلى من يجعل من النعم التي أنعمها الخالق له حجابا لعبوديته له، ولم يجعلها سببا لحبه وقربه من خالقه.ومثال الرجل في القصة خير دليل على ذلك.أعقب الله تعالى هذه بمثال أخر في قوله تعالى :" وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا " وهذا مثال افتراضي منتزع من الطبيعة.البارئ عز وجل من خلال هذه

الأمثلة يريد أقناعنا بانتزاع من أدهاننا تصور بقاء هذه الحياة الدنيا ،ويريد منا أن نتصور تفاهتها وأنها راحلة.

فربط المثال بالممثل به بقوله تعالى :" الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا "

5 ـ قوله تعالى :" إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " هذا مثل لقصة وقعت، يبين لنا البارئ من خلالها الإنسان الذي أكرمه الله تعالى فقابل ذلك بالبخل والشح.وهكذا كان مجموعة إخوة أكرمهم الله تعالى ببساتين بها ثمار كثير ،وفي وقت جنيها يلحقهم الفقراء ليعطوهم شيئا منها، فانزعج الإخوة منهم، فاتفقوا في مساء يوم على الذهاب إلى البستان في وقت لا يمكن للفقراء إتباعهم.والبارئ مطلع على نياتهم هذه ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم، أي كلها محروقة لا شيء فيها، ولما ذهبوا تفاجئوا وندموا..

من خلال أوامر الله تعالى ونواهيه وأمثلته كلها تدور على محور الإنسانية، علينا أن نكون خدام لإخواننا وسبب سعادة بعضنا بعضا.والراحمون يرحمهم الله، ومن لا يرحم لا يُرحم.

القصة في كتاب الله عز وجل وسبب وجودها وأسلوب القرءان في القصة

هناك من يمزج بين القصة والأمثال، وقد قلنا عن الأمثال أنه لا يشترط أن تكون صحيحة، وقد يفترضها البارئ افتراضا، وهناك منها قصص واقعية يجعل البارئ منها أمثلة.وهناك من يأتي ويقول أن القصص كلها أمثال، أي عندما يذكر لنا قصة يوسف وقصة نوح وهود... كل ذلك عبارة عن أمثلة لا يشترط صحتها، وإنما هي أمثال يفترضها البارئ لنتأثر بها ونتبعها.قرأنا كلام من هذا النوع، وأناس ألفوا رسائل دكتوراه ونالوها مع جوائز ؟؟؟ ياللعجب لأنهم أرضوا بذلك أسيادهم من المبشرين

الذين يسعون سعيهم لوضع الحجب الكثيفة بين عقول المسلمين وكتاب ربنا عز وجل.ونقول أن الفرق بين القصة في القرءان وبين الأمثلة التي ذكرت مثل الفرق بين السماء والأرض.ونجد ما من قصة إلا وينبهنا البارئ باستعلانه أن هذه أنباء واقعة وحقيقة، وليست أخيلة تساق من أجل منهج تربوي أو نحو ذلك.

لماذا تساق القصة في القرءان؟ هنالك ثلاثة أسباب لوجود موضوع القصة في القرءان الكريم وهي :

1 ـ ترسيخ العقيدة الإيمانية بالله عز وجل.

2ـ تثبيت فؤاد النبي عليه الصلاة والسلام.

3 ـ بيان وحدة الدين.

(الدرس 27)

هنالك حكم كثيرة في وجود القصة في القرءان الكريم نلخصها فيما يلي :

1ـ إثبات بيان الله عز وجل عن طريق القصص، أن هذا الذي ينبئ به رسول الله أصحابه والناس إنما هو وحي تنزل عليه من عند الله، إذن القصة لها دور كبير في ثبات هوية رسول الله أنه نبيا يوحى إليه من عند الله تعالى.والبارئ عز وجل يلفت نظرنا إلى هذه الحكمة في نهاية القصة، مثلا في سورة آل عمران لما حدثنا عن سيدنا زكريا وعن السيدة مريم وسيدنا عيسى يقول :" ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ " وقوله تعالى أيضا :" كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا " ويقول في سورة القصص :"وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ " هنا بعد أن قص على سيدنا رسول الله ، وهو تحد من الله عز وجل لمن يقول أن محمد ﷺ ليس نبيا، وإنما كان يجمع معلوماته من هنا وهناك.

2 ـ الموعظة التي تتخلل القصة دائما أي كانت القصة وأي كان نوعها، وتأتي في أحد مظهرين :

أولا: تأكيد سطوة رب العالمين وسلطانه، وأن الأمر كله بيده، وأنه هو الذي يدير مملكة هذا الكون كما يشاء.نلاحظ مثلا في سورة القمر البارئ عز وجل يسرد لنا بسرعة وباختصار أخبار كثير من الأمم السابقة، وما تما بينها وبين رسلها وأنبيائها، حتى إذا استعرض أخبار هذه الأمم باختصار وبشدة، بعدها يخاطبنا بقوله تعالى :" أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ " أيضا في سورة هود قوله تعالى :"ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ "

ثانيا: تأكيد وحدة الدين الذي ابتعث به الرسل والأنبياء، وهذا هو المنطق، إضافة إلى تأكيد ذلك في البيان الإلهي، حيث يؤكد عند كل قصة أنه ابتعث هذا النبي لنشر عقيدة التوحيد.ونجد هذا في قوله تعالى:" شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ "

3 ـ تثبيت فؤاد سيدنا رسول الله ﷺ، علم البارئ أن سيدنا رسول الله سيناله الأذى، نعم هو من ألوا العزم لكنه بشر، ويصدق عليه كل ما يصدق على النفس الإنسانية، لهذا اقتضت رحمة الله تعالى برسوله ﷺ أن يجعل من قصص الرسل والأنبياء ما يثبت قلبه منها قول البارئ :" فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ " أي لك أسوة بالرسل الذين كانوا من قبلك،ويقول له أيضا:" اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ"

ملاحظة: البارئ عز وجل خير رسول الله أن يعيش حياة تشبه حياة سيدنا سليمان، بأن يكرمه بالغنى الواسع، وأن يخضع له كل مخلوقاته، وكل مكوناته وأن يبعد عنه الأذى، ويكرمه بحياة ملؤها النعيم، ولكنه صلى الله عليه وسلم أبى ذلك، وأثر أن يحي تلك الحياة التي عرفناها من خلال سيرته ﷺ والسبب أن النبي إن اختار لنفسه حياة النعيم فإن هذا لن يناله المسلمين من بعده، لا سيما الدعاة منهم.لهذا لم يقبل هذا التميز عن إخوانه، لهذا اختار أن أي كأس من كؤوس الأذى يتجرعه أحدا من بعده إلا ويكون هو الأسبق في تجرع هذا الكأس.

منهج القصة في القرءان : هذا المنهج يطل بنا على المبادئ التربوية في القرءان الكريم، ويطل بنا على فن عجيب في القصة ليس بإمكان أحد أن يأتي بمثله.

منهج القصة في القرءان لابد أن ينسجم انسجاما تاما مع أغراضه أي مع الحكم التي ذكرناها، لكن في نفس الوقت الجمال الفني في القصة أمر لابد منه على أن يكون سبيلا لا غاية أو وسيلة لا هدفا، بل هو عبارة عن خادم للحكم الثلاثة التي ذكرت :

أولا: ما نلاحظه من التكرار في القصة وهذا منهج، حيث مثلا نجد قصة سيدنا نوح في سورة واثنين وثلاثة وربما أربعة، وكذلك قصة سيدنا موسى مع فرعون وسيدنا لوط وغيرهم، ونجد أن عنوان القصة هو الذي يتكرر وإنما البيان الإلهي في كل مرة يلقي الضوء على زاوية من زوايا هذه القصة، حسب المناسبة.مثلا المناسبة اقتضت أن يحدثنا المولى سبحانه وتعالى عن الأذى الذي لقيه سيدنا نوح من قومه، يركز على هذا الأمر، اقتضت المناسبة أن يحدثنا عن سطوته وسلطانه وأن الكون كله في قبضته، يركز المولى عز وجل على هذا الجانب ويحدثنا عن تلك السفينة في وسط طوفان أنها ذات ألواح ودسر.

ثانيا: القصة القرءانية يتناول البيان الإلهي من حوادثها ما يتحقق به الغرض، أما ما زاد على ذلك فيطويه البيان الإلهي.مثلا البارئ عز وجل في سورة الكهف قص علينا قصة أصحاب الكهف، فإن الإنسان الذي يبتغي المتعة والتسلية يشرئب خياله إلى أن يعلم هؤلاء الناس في أي قرن كانوا؟ وفي أي بلد؟ ما اسم رئيسهم هذا الطاغية الذي فر منه هؤلاء المؤمنين من سطوته؟ لكن الغرض لا يتعلق بهذا، وإنما يتعلق بالحكمة التي ذكرناها، لذلك البيان الإلهي طوى ذلك كله.فركز البيان الإلهي على النقاط التالية :" نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا" ركز البيان الإلهي على ما يزيدنا إيمانا بالله، وعلى ما يجعلنا نفتدي بهؤلاء الفتية، ووضعنا أمام ما يقوي عقيدتنا.البارئ عز وجل وصف لنا الكهف الذي كانوا فيه، ووصف رقادهم ليبين سطوة الله عز وجل ، وأنه إذا ضرب على أبصارهم بالرقاد يستطيع أن يبقيهم كالموتى من سنة فالسنتين وعشرة فأكثر.

مثال 2: البيان الإلهي قص علينا خبر سيدنا آدم كيف خلقه الله عز وجل من تراب، وكيف أسكنه جنته إلى مرحلة، وكيف أهبطه إلى الأرض.البارئ عز وجل قال :" قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " الكثير يتساءل أين نزلوا وكيف عاشوا؟وغيرها من الأسئلة حيث الرغبة الإنسانية تطمح إلى معرفة هذه الجوانب،لكن للقصة منهج تربوي لا مصلحة لنا لمعرفة ما لا يحقق الغرض.

لكن أحيانا يقتضي المقصد أن تسرد القصة من أولها إلى أخرها، حيث كان اليهود يتحدون الرسول محمد ﷺ أن يعلم عن نبي كيف عاش وكيف توفي، هنا الإعجاز البياني في القصة يقتضي أن يسرد البيان الإلهي جوابا عن تحدي هؤلاء، القصة من أولها إلى أخرها مثل قصة سيدا يوسف، رويت لنا القصة بمراحلها وبعقدتها الفنية بكل معنى الكلمة إلى النهاية.

ثالثا: أيضا من مظاهر منهج القصة في القرءان، إقحام النصائح في القصة، وهذا جزء من المنهج التربوي الذي ينبغي أن نستفيد منه في كتاب الله سبحانه وتعالى.وهذا مليء في كتاب الله عز وجل.

مثلا: لنلاحظ هذه الآيات ونتأملها :" قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ " بعد حوار جرى بين سيدنا موسى وفرعون طوى البيان الإلهي بقية القصة ووضعنا أمام خطاب يوجهه الله عز وجل إلى البشرية جمعاء، بعد تهيئ مشاعر من يتابع القصة لتلقي هذه النصيحة، ثم يعود البيان الإلهي للقصة بعد ذلك.

(الدرس 28)

كان حديثه في هذا الدرس عن مصيبة حلت بالمسلمين وهي ما يفعله اليهود في غزة ، وسماعه عن اتحاد العلماء المسلمين مبينا الدور الذي يجب عليهم فعله إزاء هذه المصيبة، وهي إصدار فتوى في ضرورة قطع العلاقة مع إسرائيل مهما كان نوعها.ووضح العلاقة التي يجب أن تكون بين المسلمين

بعضهم بعضا، وخاصة اتجاه إخواننا بغزة وضرورة الانتصار لهم بكل ما أتينا من قوة.ونصح في الأخير على ضرورة كثرة الالتجاء إلى الله.

مضمون الفتوى التي أعادها في درس 31 هو كالتالي :

بسم الله الرحمان الرحيم

هذا هو حكم الشريعة الإسلامية فيما ينبغي أن تكون عليه علاقة المسلمين مع إسرائيل، وفي الموقف الذي يجب عليهم أن يتخذوه من إخوانهم المحاصرين والمقاتلين بيد العدو الإسرائيلي في غزة :

يقول الله تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ..." ويقول تعالى :" لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.." ويقول :" إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" وعليه فقد تما إجماع المسلمين على أنه تحرم على المسلمين موالاة العدو الإسرائيلي ومد يد أي نوع من التعاون معه، بما في ذلك إقامة العلاقات الدبلوماسية، ولم نجد فيما قرره علماء المسلمين مند صدر الإسلام في باب الجهاد أي خرق لهذا الإجماع، وكيف يجرؤ عالم مسلم بكتاب الله عز وجل بخرق بيان للمحكم القاطع.

يقول الله تعالى :" وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ " ويقول :" إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون " قال المفسرون يراد بالإصلاح رد غائلة البغي عنهم.ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه وغيره :"المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه ولا يخذله " وعليه فقد تما إجماع المسلمين على أنه يجب على كل مسلم تقديم العون الممكن، لإخوانهم الذين يقعون في أي نوع من أنواع الضيم لا سيما ذاك الذي يتمثل في اعتداء على حياتهم وأوطانهم وسائر حقوقهم، وهذا يعني أنه يجب على المسلمين جميعا اليوم العمل بكل السبل الممكنة على رد غائلة العدوان الهمجي الضاري الذي يمارسه الطغيان الإسرائيلي دون توقف على إخواننا في غزة، كما يجب عليهم العمل على رفع الحصار المضروب عليهم وفتح سائر المعابر المغلقة في وجوههم لا سيما معبر رفح، الذي هو السبيل الطبيعي المفتوح بينهم وبين إخوانهم في مصر.

إن تجاهل المسلمين لهذا الواجب الإلهي الذي يصرح به الله عز وجل وإصرار أولئك الذين يتحدونه، ويقررون المضي في مخالفته تقربا من الطغاة الذين أعلنوا الحرب على الله، وعلى عباده

المؤمنين يندر بغضب رباني وشيك.وصدق الله القائل :" فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم "

ويقول فضيلة الدكتور: أنا أقسم بالله أن هذا الكلام ليس افتئات من عندي أو فتوى اخترعتها من علمي واجتهاداتي، وإنما أنا ناقل لها من بطون كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ومن تما مما أجمع عليه أئمة المسلمين.

(الدرس 29)

تحدثنا عن إقحام نصائح في القصة القرءانية، وهذا منهج تربوي علينا إتباعه حيث عندما نقص قصة لتلامذتنا أو إخواننا من أجل استلهام الحكمة منها، فإن الطريقة التربوية تقتضي أن نتوقف عند كل مشهد في القصة لتوظيفه في عمل تربوي أو في تنبيه إلى واجب، وفي التحذير من أمر ما .

مثال 2: في سورة الكهف تبدأ بسرد قصة أهل الكهف في قوله تعالى :" سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا " هنا غابت القصة، فجاء خطاب موجه إلى رسول الله ﷺ وهو موجه إلى أمته.

مثال 3: في سورة الأعراف يحدثنا البيان الإلهي أيضا عن قصة موسى مع فرعون، لكن بأسلوب أخر في قوله تعالى :" وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ

يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " نلاحظ غياب القصة ابتداء من قوله :" سأصرف عن آياتي..." وكان خطاب موجه لناس جميعا، ثم يعود البيان الإلهي للقصة في قوله :" وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ "

مثال 4: في سورة سيدنا يوسف أمثلة كثيرة عن هذا بوسعكم الرجوع إليها.

رابعا: العرض التمثيلي أو التصويري في القصة القرءانية، حيث نجد أن البارئ عز وجل يضعك أمام المشهد الأول لهذه القصة أي خلاصة الأحداث، ثم ينقلك مباشرة إلى المشهد الثاني، وبين المشهدين وقائع يطويها البيان الإلهي اعتمادا على تصورك ومعرفتك، وهذا هو الغالب في القصة القرءانية.

مثلا: نحن نقرأ قصة سيدنا نوح في سورة هود :" وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ " ورأسا ينقلك إلى مشهد نوح وهو مستغرق في صنع الفلك في قوله :" وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ " بين المشهد الأول والثاني هنالك أحداث، حيث أن نوح دهب من هنا وهناك لإحضار الخشب إلخ وهذا كله يطوى، فيضعك البارئ أمام مشهد سيدنا نوح وهو يستجيب لأمر الله سبحانه وتعالى.

مثال2: لنعد إلى سورة طه عندما يقص لنا المولى قصة سيدنا موسى مع فرعون في قوله تعالى :" اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ " هذا مشهد يضعه البارئ أمامنا، ثم يقول :" قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ " انتهى المشهد وأسدل الستار، ثم يقول:" قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى " هنا صورة سيدنا موسى مع فرعون.إنه أسلوب تمثيلي تماما.حيث غاب مشهد الذهاب وكيفية الوصول إلى

فرعون وغيره، رأسا نجد أنفسنا أمام صورة حوار بين سيدنا موسى وفرعون.وهكذا في جميع قصص القرءان.

خامسا: من خصائص القصة القرءانية التفنن في مطلع القصة، ومن أهم شروط نجاح كتابة القصة هو النجاح في المدخل.

1 ـ فالبيان الإلهي آنًا يأخذ أغرب مشهد في داخل القصة فيجعل منه فاتحة القصة، رغم أنه مشهد متأخر بالنسبة لتسلسل الزمني.قد يأتي من ينتقد ويقول إذن القصة القرءانية تبدأ من نصفها ويكون هذا سببا في طي ما قبل هذا المشهد من أحداث القصة.نقول لهذا لا، فالقصة القرءانية تعلم كيف تتدارك هذا الذي فات.نعم القصة تفتح من هذا المشهد الغريب الجذاب الذي يكون في منتصف أحداثها، فأثناء ذكر البيان الإلهي للقصة وبطريقة فنية عجيبة يعود إلى ما سبق هذا الذي بدأ به.

مثال : قصة سيدنا موسى أيضا مع فرعون في سورة طه تبدأ بقوله تعالى :" وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى" هذا مشهد يصور لنا فيه البيان الإلهي سيدنا موسى وهو مع أهله في ليلة ظلماء وقد ظل الطريق، يلتفت يمينا وشمالا، عسى أن يهتدي إلى متن الطريق الذي يريد أن يأخذه ليصل إلى غايته، وفجأة يجد نارا تلتمع، فيستأنس لهذه النار، ويقول لأهله أمكثوا إني أنست نارا... مشهد غريب، أين هو هذا المكان وما الذي جعل سيدنا موسى يتيه في جنح الليل المظلم وفي هذا المكان؟ هذا مشهد جذاب جعله البيان الإلهي مدخل القصة.ثم يستمر البيان الإلهي في قوله :" فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى " وهنا الجواب لنقد الناقد، عن الأحداث التي كانت لسيدنا موسى قبل وصوله إلى هذا المكان ما الذي حدث له.. ؟؟ البيان الإلهي لم يتركنا نتساءل دون إجابة.ويستمر الحوار بين الله تعالى وسيدنا موسى :" وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

إِنَّهُ طَغَىٰ " وكلنا ما زال يتساءل ما قصة سيدنا موسى ما الذي أوصله إلى هذا المكان ؟؟ يستمر الحوار في قوله تعالى :" قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ " الآن فتحت نافذة ليرينا البيان الإلهي الأحداث السابقة على هذا المشهد، والجواب عن سؤالنا ما الذي جاء بسيدنا موسى إلى هذا المكان في هذه الليلة الظلماء؟ في قووله تعالى :" إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ " الآن تكاملت القصة، فا لأحداث التي كانت قبل وجوده في ظلمات هذه الليلة في هذا المكان عرفناها.هذا أسلوب عجيب أدبي وفني في كتاب الله عز وجل.

2 ـ قد تفتح القصة بملخص عنها، لتفسير ما هو غريب فيها، ثم إن البيان الإلهي يفيض فيها مفصلا، ومثال ذلك في سورة الكهف، حيث سئل النبي ﷺ عن فتية خرجوا من أوطانهم مع الزمن ثم لم يعودوا، ماذا كان من أخبارهم؟ هؤلاء اليهود سألوا النبي ﷺ هذا السؤال.فالبارئ عز وجل قص على حبيبنا محمد ﷺ قصة هؤلاء الفتية، ولكونها قصة غريبة فالبارئ على وجه السرعة أجاب الناس المستعجلين ببيانها، ثم إنه رجع فأفاض فيها.حيث قال أولا :" أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا" هذه خلاصة القصة، ثم يقول :" نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى..." هنا نلاحظ أن القصة افتتحت بملخص لها.والحكمة أن يأخذ اليهود جواب سؤالهم بملخص.

3 ـ أحيانا تقتضي الحكمة أن يفتتح البارئ القصة ببيان سبب ما حدث وعلة ما جرى مما سيذكره الله سبحانه وتعالى، وبعدها يقص لنا القصة مثل قوله تعالى :" إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ

الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ " ثم بدأ البارئ يقص علينا قصة سيدنا موسى مع فرعون، حيث بين لنا البارئ السبب الذي جعل البارئ يلقي فرعون ما لقيه من بعد أن بعث له سيدنا موسى، فأغرقه في البحر...

إذن ما من قصة في القرءان إلا وتجدها افتتحت إما بأغرب مشهد فيها، أو تفتتح بتلخيص سريع لها، وقد تفتتح ببيان حيثيات هذا الأمر.

القيمة التاريخية للقصة القرءانية :في الحقيقة هذا لا داعي له لأن أي قصة في القرءان لا تحتاج إلى الحديث عن قيمتها التاريخية، لأنه ما من قصة يرويها لنا البيان الإلهي إلا وهي واقعة من ألفها إلى يائها.إذن لماذا ختمنا الحديث عن القصة القرءانية بهذا العنوان؟ لأننا قرأنا في هذا العصر كلاما لأناس هم في الظاهر من أبناء جلدتنا وفي الظاهر مسلمون، ولكنهم في الباطن زنادقة كفرة.حيث أن بعض هؤلاء كتبوا يقولون إن في القرءان كثير من الأساطير صاغها القرءان بأسلوب فني رائع، فالأسطورة في القرءان معروفة، ويعد القصص القرءاني التي نقرأها كلها من الأساطير، ويصوغون هذا في كتابتهم بأسلوب يثني على القرءان حتى يخدع القارئ.وجود أمثال هؤلاء يجعلنا نضع من البديهيات مسألة تحتاج إلى بحث وعرض وذكر للأدلة والبراهين.وهناك من صاغ هذا الكلام ودسها في الكتب المدرسية التي كانت في عهد ما.ولله الحمد قد نقيت الآن من هذه السموم.

(الدرس 30)

هذا العنوان سمح يوحي إلى أننا مرتبين ومحتاجين إلى دليل وبرهان يؤيد القيمة التاريخية للقصة في القرءان، لكن مع الأسف غابت موازين المنطق في عصرنا أثناء الجدال والنقاش في كثير من المسائل العلمية المختلفة، غابت الموازين العقلية التي ينبغي التحاكم إليها بالنسبة لكثير من المسائل، وحل محلها الخلفيات والمصالح المذهبية المختلفة.لهذا أصبح البحث في البديهيات أمرا مهما.

من أسباب هذا البحث في واقع يتمثل فيما يلي :

ـ كتاب اسمه " الأدب العربي الحديث" كان إلى ما قبل سنوات مقرر من مقررات طلاب البكالوريا في الأدب، جاء في هذا الكتاب الكلام التالي :" إن مكتبتنا العربية تتدفق بعباب زاخر من قصص وأحاديث ومحاورات وأسمار وخرافات، يتجلى بها وجه المجتمع العربي وتتوضح فيها سماته وتختلج روحه وحيويته، فالقرءان الكريم أشار إلى كثير من القصص إشارات خاطفة ليبين مواضع العبرة منها، ولا شك أن إشارات القرءان الكريم إلى هذه القصص دليل على أنها كانت من

القصص الشعبي السائر، والذي يتدوله الناس في جزيرة العرب " هذا الكلام بقي لسنوات طويلة يدرس ويتلقاه طلابنا، ثم إن الله تعالى تدارك هذه البلدة فألغي هذا الكتاب مع كتب أخرى ولله الحمد.لكن هذه الفكرة موجودة متغلغلة في كثير من كتب ومقالات تنشر بين الحين والأخر والفكرة هي: أن الجزيرة العربية كانت تتمتع بوجه حضاري ويتمثل في أحاديث وحوارات وأسمار وخرافات تتجلى من خلالها حضارة المجتمع العربي، وصاحب هذا الكلام يجعل القصص القرءاني من هذه المجموعة من الأسمار والخرافات التي كانت في أندية العرب لتتمتع بها في سهراتهم وأسمارهم.ووصف القصص القرءاني على أنه من القصص الشعبي.نقول لهذا القائل لهذا الكلام: إما أنه هو الصادق في هذا الذي يزعمه عندئذ يكون القرءان كاذبا والعياذ بالله، وإما أن يكون القرءان هو الصادق ومنه هذا الكلام كذب وافتراء.

ونحن ننطلق من قرار انتهينا منه وهو أن القرءان كلام البارئ عز وجل، وذكرنا الأدلة البديهية من أنه يستحيل أن يكون القرءان كلام مخلوق.ويقول البارئ عن تلك القصص نقيض ما قاله هؤلاء :" تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ " والشيء المذهل أن المشركين الذين كانوا حول رسول الله ﷺ أيام وجوده، ما قال واحد منهم في يوم من الأيام أن هذه الأخبار وهذه القصص التي تذكرها لنا في قرءانك نحن نعرفها.وكلام الله تعالى ليسكت به أفواه هؤلاء المتخرصين اليوم.

ونعود فنقول أنه بقطع النظر عن كلام القرءان، وهذه الآية وأمثالها في كتاب الله عز وجل.ما هي الوثائق التاريخية التي ننسج بواسطتها حادثة من الحوادث التي وقعت في الجزيرة العربية أيام الجاهلية أو عند بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ الوثائق المعتمدة عند المؤرخين عند العرب وغيرهم، هي الكتب المقدسة، وفي مقدمتها القرءان، لأنه لم تكن الأخبار التاريخية دونت بعد، وابحث عن أي مدونة تاريخية لن تجد.

نقول للذين كتبوا هذا الكلام ،على ماذا اعتمدتم في توثيق هذا الشيء؟إذا كانت مراجع تاريخية، نقول لكم ما هي؟ هل كانت هناك مراجع تاريخية عند بعثة المصطفى فوصلت إلى أيديكم اليوم؟ ما هي؟ واعتمادا على ذلك فإن الكتب المعتمدة آنذاك هي الكتب السماوية فقط، وأصدقها بدون خلاف هو القرءان الكريم.

ـ لنضع أمامنا وثيقة أخرى تدل عليه، عندما بعث المصطفى ﷺ وأعلن عن هويته رسولا إلى العالم كافة، وبدأ يتلو عليهم ما يتنزل عليه من بيان الله عز وجل، أرسلت قريش اثنين من المشركين إلى المدينة المنورة حيث يوجد اليهود، لعلم قريش أن أحبار اليهود عندهم من المعلومات ما يكشف عن هوية هذا الرجل،أهو صادق أم لا؟

وأحبار اليهود إلى اليوم ضامنين للمعلومات التي لديهم لا يبوحون بها، على خلاف أهل الكتاب الآخرين، والاثنين هما " النظر ابن الحارث" و "وعقبة ابن أبي معيط" لقي الأحبار بالمدينة وسألوهم عن هذا الرجل الذي يقول أنه نبي مرسل ومن صفاته كذا وكذا.فقالوا لهما :" اسألاه عن ما يلي: عن فتية ذهبوا في الدهر القديم ولم يعودوا، وكان لهم خبر عجيب، من هم؟ واسألاه عن رجل جاب الأفاق كلها من الغرب إلى الشرق من هو؟ واسألاه عن الروح.فإن أجاب الجواب الذي نعلم، فهو نبي" فعادا إلى مكة وذكرا هذا الكلام الذي جاءا به لقريش.أقبل رجال من قريش إلى رسول الله ﷺ يطرحون عليه هذه الأسئلة الثلاثة.فقال لهم المصطفى ﷺ غدا سأجيبكم، ولعله نسي أن يقول إن شاء الله.معتمدا على الوحي وواثقا أن الله عز وجل لن يدعه.لكن تلبث الوحي، ولم يأتيه في اليوم التالي والثاني.إلى اليوم الخامس عشر ، ثم إن الله عز وجل أوحى إلى رسوله الإجابة على هذه الأسئلة.والجواب على السؤال الأول كان من خلال قصة أصحاب الكهف، وأوحى البارئ له أيضا الجواب عن السؤال الثاني، في قصة ذي القرنين وكلها في سورة الكهف.وقال عز وجل :" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا " وهذا مما اختص به الله تعالى بعلمه ولا جواب لهم به.ومحل الشاهد هنا، أن هذا الذي حكي لنا يؤكد من أول الخبر إلى أخره أن هذا القصص لم يكن مما يعرفه العرب نهائيا، وإنما هي أخبار قطعية ثابتة في كتاب الله عز وجل كما قال الله عز وجل :" لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " وغالبا ما نجد في نهاية القصة ما يختم البيان الإلهي القصة ويبين: أن هذه الأحاديث لا يمكن أن يأتيها الباطل، ويؤكد أن هذه الأخبار وأن هذه القصص ليست مما يعرفه العرب نهائيا.

هؤلاء الذين كتبوا هذا في كتب مدرسية هم يعلمون تحديات القرءان، وأن هذا القصص القرءاني ليست مما كان بتداوله العرب فيما بينهم في أسمارهم، ومع ذلك يكتبون هذا الكلام، وكأن المنطق

في حياتهم غائب، ومقاييس العقل المنطقية في أفكارهم مطوية، وإنما يعتمدون فيما يقررون وفيما يناقشون به على العصبية المذهبية وعلى الفئوية، وهذه مصيبة الأمة الإسلامية في هذا العصر.

إذا الحل هو العودة إلى العقل وتحرر من العصبيات، والرجوع إلى الإسلام بدافع من القناعة العقلية وما يدعو إليه المنطق، وهذا هو معنى قوله تعالى:" ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا "لا تقفوا أي لا تتبع كل ما ليس لك عنه دليل من العقل والعلم على صدقه، حتى ولو كان الإسلام، ولما تنقاد إليه بعقلك تتمسك به تمسكا حقيقيا يرضاه الله عز وجل.

- ومن هؤلاء من يقول، المسألة ليست كذلك، وإنما هي الأقاصيص التي يرويها القرءان هي عبارة عن أمثال يضربها، وهي لا يشترط صحتها، فالبارئ لما يحدثنا عن نوح وقومه هو مثل يفترضه، وعن لوط وغيرهم.

نقول في الجواب: كل عاقل شم ثقافة اللغة العربية، يدرك الفرق بين أمثال تضرب وبين قصص تروى، مثلا لما البارئ يقول :" وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا " هل يوجد من يقول أن هذه قصة يرويها البيان الإلهي؟ وإنما هذا مثل يضربه لنا الله عز وجل.لكن لما يقول :" وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ "هل يوجد من يقول أن هذا مثل؟ ولما يقول البارئ :" إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين " هل يوجد من يقول أن هذا مثل يفترضه بيان الله عز وجل؟ لا، نقول أنتم تكابرون وتحاولون أن تدجلوا على عقول الناس، وهذا لا يتأتى لكم أبدا.

(الدرس36)

المنهج التربوي في كتاب الله عز وجل

المحور الذي تدور عليه موضوعات كتاب الله عز وجل هو: دعوة الناس إلى أن يكونوا عبادا لله عز وجل بسلوكهم الاختياري، كما قد فطروا عبادا له عز وجل بواقعهم الاضطراري، وهذا يقتضي

أن يكون كتاب الله عز وجل كتاب تربية إلى جانب كونه كتابا يحفز على المعرفة ويدعو إلى العلم، ويصر على أن يجعل الإنسان مصباح علم في طريق الحياة وفجاجها.

معنى التربية: هي الوسائل التي تجعل العاطفة الإنسانية خاضعة لقرار العقل، وهذه الوسائل التي تحقق هذه الغاية تسمى وسائل تربوية.ونعلم أن العقل السليم دائما يبصر إلى الخير، لكن الإنسان في كثير من الأحيان ينقاد لشهواته ولعواطفه ووجدناته النفسية، من هنا احتاج الإنسان إلى وسيلة تخضع عواطفه إلى قرارات عقله.وهذه الوسائل التي يكتشفها المربون ويجنحون إليها .فكتاب الله عز وجل فيه هذه الوسيلة.ونحاول نحن أن نكتشف بعض السبل التي يسلكها كتاب الله عز وجل لتحقيق هذا الهدف.

والسؤال المطروح هو: ماهي السبل التي يسلكها كتاب الله من الإصلاح بين عواطفنا وبين عقولنا، حتى تصبح خاضعة لحكم العقل؟

السبيل الأول: الذي يسلكه كتاب الله عز وجل من أجل تحقيق هذه التربية، هو صبغ القرءان في كل الموضوعات التي يحفل بها بصبغة الموعظة والإرشاد والتوجيه بمخاطبة الوجدان والعاطفة، مثلا عندما نقرأ الآيات التي تعالج موضوع العقيدة نجدها جميعا مصبوغة بصبغة الموعظة والإرشاد، ونجد ذلك في موضوع الفقه أيضا، وفي القصة، وموضوع الغيبيات.

السبيل الثاني: التدرج في الأحكام التي يأخذنا بها كتاب الله سبحانه وتعالى.كان ممكن أن ينزل القرءان كله دفعة واحدة، وتنظر إلى العرب الذين كانوا إذ بان بعثة المصطفى ﷺ مثال التحرر من كل قيد، والتفلت من كل ضابط من الضوابط، فتصور لأمثال هؤلاء لو نزل القرءان لهم دفعة واحدة، لكانوا ملزمون من الانتقال مرة واحدة من أقصى درجات التفلت إلى أقصى درجات الانضباط، تربويا هذا أمر عسير، والله عز وجل لا يلزم عباده إلا بما يطيقون، لهذا من الحكمة التربوية أن ينزل القرءان منجما، فاقتضى ذلك أن يأخذ الله عباده إلى ساحة الالتزام، ويبعدهم عن أودية التفلث شيئا فشيئا، بحيث لا يشعرون بحرج وضائقة، وهذه الطريقة هي التي جعلت أولئك الناس بعد سنوات مضرب المثل في الالتزام.

السبيل الثالث: الشريعة الإسلامية كلها أي أحكام الحلال والحرام ليس فيها ما يرهق أبدا أو ما يحرج، ويدل هذا على المنهج التربوي الذي يسلكه بيان الله عز وجل مع عباده، ويؤكد البارئ هذه الظاهرة مثلا في قوله تعالى :" ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته

عليكم لعلكم تشكرون "والحرج يقصد به في الالتزام بالأحكام، وعندما يصل الإنسان إلى الحرج يغيب حكم ويظهر حكم آخر هو الترخيص.ونجد أيضا قوله تعالى :" يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " وكلما أمرنا الله تعالى بأمر إلا وبين أنه من أجل سعادتنا وراحتنا، وليس من أجل أن يحملنا الله عز وجل عنتا.مثلا في قوله تعالى :" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ " أي إذا دعاكم لأمر ما، فإنما يدعوكم إلى ما يحقق لكم الحياة السعيدة.ولنلاحظ قول البارئ عز وجل :" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" والنعمة المقصودة هي نعمة الدين، ورضيت لكم بمعنى أكرمتكم لهذا وضعت لكم هذا المنهاج وهو ضمانة رغد عيشكم إن أنتم التزمتم به حق الالتزام.

السبيل الرابع: إن البيان الإلهي في كثير من آي كتابه المبين يتحبب البارئ فيها إلى عباده، أي يستثير في نفوسهم عوامل محبة العبد لله عز وجل، كأن يذكرهم بنعمه، ويذكرهم بإكرامه لهم، ويلفت أنظارهم أن البارئ لا يمكن أن يصل إليهم إلا بما فيه ضمانة سعادة الإنسان.مثلا قوله تعالى :" وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة " أي ما قد تراه سوء ومصيبة فإنه في الحقيقة نعمة، ومنه ندرك أن الإنسان محفوف بألطاف الله دائما ، منه مثلا أن الله يعطيك من ماله، ثم يطلب منك أن تقرضه شيئا منها ويعدك أن يعيدها لك أضعافا مضاعفة.مثلا تأمل قوله تعالى :" هل جزاء الإحسان إلا الإحسان فبأي آلاء ربكما تكذبان " تجد نفسك غارقا في تحنان البارئ عز وجل لك، ومنه تجد نفسك منجذبا شئت أم أبيت إلى حب هذا الإله الذي يخاطبك بهذا الكلام.

السبيل الخامس: أن الله سبحانه وتعالى عندما يخاطبنا يضع المتأمل في كلام الله عز وجل في حالة وسطى، بين الأمل برحمته وبين الخوف من بطشه وعذابه، حيث لا يجعلك تتأمل في رحمته تأملا تتدلل فيها على الله، وتفعل ما تشاء وتقول إن الله سيغفر لي، وأيضا يخاطبك بطريقة لا يفيض قلبك خوفا من عذاب الله عز وجل وبطشه، بحيث تقول والله أنا مجرم وأنا مرتكب كثير من الآثام، أكيد أن الله لن يثوب علي، وتقع في اليأس.وهنالك طريقتين لأخذنا إلى هذه الوسطية :

الطريق الأول :أن الله سبحانه وتعالى عندما يصف الكافرين، يصفهم بأسوأ أعمالهم مثلا يقول تعالى :" في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة

الشافعين فما لهم عن التذكرة معرضين " تقرأ هذا الكلام وترجع إلى نفسك وتقول لا أنا لست مثل هؤلاء.ثم تقرأ ما وصف به عباده الملتزمين تجده يقول :" وعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا "ولما تقرأ هذه تقول لا أنا لست مثلهم.ويقول البارئ عز وجل:"إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون"أو في قوله تعالى

:" قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " تتأمل وتقيس نفسك وتقول أنا لست أقوم الليل ولا أستغفر بالأسحار...أي أقارن نفسي وهذه الصفات أشعر بالتقصير، وأقول إذن أين أنا من هؤلاء جميعا ؟؟؟ أجد نفسي معلق بين الخوف من عذاب الله وبين الأمل برحمة الله عز وجل، وهذا منهج تربوي.حيث لو اشتد البارئ في وصف نقمته لأسلمك إلى اليأس، ولو أن البارئ كشف لك عن المزيد والمزيد من رحمته لزجك هذا في الدلال على الله عز وجل.

(الدرس 32)

الطريقة الثانية: أننا نتأمل في بيان الله تعالى من ألفه إلى يائه، تجد أن الآيات التي يصف فيها البيان الإلهي رحمته وفضله وإحسانه، آتية مع الآيات التي يصف البارئ عز وجل فيها سطوته وعقابه وعذابه، مثل قول البارئ :" يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ " وقوله تعالى :"إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولا من رب رحيم وامتازوا اليوم أيها المجرمون أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ

لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ"وهذا قانون في كتاب الله عز وجل لا يتخلف.وفي قوله تعالى :" نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم " ويقول تعالى :" قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ".

والمحجوب عن قراءة كتاب الله عز وجل تجده في إحدى حالتين إما يأس أو تدلل زائد مع الله تعالى.ولو عاد هذا إلى تأمل كتاب الله وقراءته يوميا تجده متجها اتجاها وسطيا.

سيدنا أبا بكر لما امتد على فراش المرض بل الموت أوصى سيدنا عمر بوصية ذهبية رائعة جدا جدًا، وأكثرها يدور على هذا المعنى التربوي الذي ذكرناه، يقول فيها :

:" ألم ترى يا عمر أن ما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الحق وثقله عليهم، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه غدا إلا حق، أن يكون ثقيلا.

ألم ترى يا عمر أن ما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة، بإتباعهم الباطل، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه غدا إلا باطلٌ أن يكون خفيفا.

ألم ترى يا عمر أن ما نزلت آية الرخاء إلا بجانب آية الشدة، وأنَّ ما نزلت آية الشدة إلا بجانب آية الرخاء، لكي لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولكي لا يرهب رهبة يبقي فيها بيديه أي ييأس.

ألم ترى يا عمر أنما ذكر الله أهل الجنة بأفضل أعمالهم، فإذا ذكرتهم قلت أين عملي من عملهم، وأن ما ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم، فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجوا أن لا أكون منهم.

فإن حفظت وصيتي فلن يكون غائبٌ أحبَّ إليك من حاضر من الموت، وهو آتٍ، وإن نسيت وصيتي فلن يكون غائبٌ أبغض إليك من حاضر من الموت، ولست بمعجزٍ."

ومعنى ما قاله في الأخير أنك إذا التزمت الحق وجعلت منه سببا لثقل ميزانك غدا ستكون من الناجين، واصطبغت بهذا المنهج التربوي وتأثرت بهذه الوسطية، التي يجذبنا إليها كتاب الله عز وجل، تعيش مقرور العين، وتعيش مستأنسا بالموت، ولا تستوحش منه، وعندما تذكر بالموت تقول مرحبا بلقاء الله سبحانه وتعالى، وهذا هو معنى قوله "فإن حفظت وصيتي فلن يكون غائبٌ أحبَّ إليك من حاضر من الموت" ونحن نجد مصداق ذلك، حيث ما من إنسان إلتزم بأوامر الله عز وجل تبقى هذه الوصية لأبي بكر والتي اعتصرها من القرءان ومن وصايا سيدنا رسول الله ﷺ إلا ويتمنى

الموت الذي يجعله يلقى ربه، ونجد هذا في قوله تعالى :" ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ".لكن المتبع للباطل وابتعد عن الحق الذي يذكرنا به الله، يعرف ماذا عمل ولما يرى بوارق الموت تدنو إليه يرتعب ويشعر بعذاب الموت قبل أن يأتيه الموت.

في كل مراحل حياة المسلم يعيش بين رجاء وخوف، إلا عندما يقع بين براثين الموت، في هذه الحالة قال علماء الشريعة الإسلامية ينبغي أن يتغلب عندئذ الأمل برحمة الله على الخوف من عقابه.والسبب هو الضعف الذي هو فيه، وخوفه لن يفيده في النهوض والقيام بأعمال بر تقربه إلى المولى، لهذا يغلب رجاءه على خوفه عندها.

(الدرس 33)

النزعة الإنسانية في القرءان الكريم

النزعة الإنسانية هي مظهر من مظاهر إعجاز هذا الكتاب، ودليل باهر من الأدلة الناطقة على أنه لم ينبع من الأرض وأفكار الناس وإنما هبط من علياء الربوبية، ولو كان من الأرض لوجدنا فيه طابع البيئة والإقليم وجماعة معينة مثل العرب وهذا ما نجده في الكتب التي نقرأها.لكن عند قراءتنا لكتاب الله تعالى بتأمل وتدبر لا يمكن أن نستبين أثناء ذلك انتماء إلى أي بيئة معينة أو إقليم أو إلى أي قوم دون قومٍ أخر، وإنما هي النزعة الإنسانية إن خاطب البارئ عز وجل فهو يخاطب عباده جميعا، وإن تحدث عن صفات الناس وأخصّ ما تتمثل به هوياتهم نعتهم بالعبودية لله جميعا دون تفريق بين فئة وأخرى، وكل الموضوعات التي يتناولها بيان الله عز وجل من أمور العقيدة أو أمور التشريع أو غيرها تجد القرءان، ينتمي إلى النزعة الإنسانية المجردة، متساميا عن طابع بيئة معينة أو إقليم أو فئة معينة، ومن هنا نجد أنفسنا أمام دليل أخر من الأدلة الكثيرة، على أن هذا القرءان ليس نسيج أفكار بشرية ظهرت في الأرض، وإنما هو الوحي الرباني تنزل على عباد الله سبحانه وتعالى عن طريق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

النزعة الإنسانية في بحوث العقيدة: عندما يخاطبنا في أمور العقيدة نتأمل فنجد هذه النزعة الإلهية الشمولية والتي تتسامى عن الفئة...ونتأمل ونجد أن سورة الفاتحة علمنا البارئ فيها كيف نخاطبه، حيث نخاطب فيها البارئ أنه رب العالمين.ولما نقرأ قوله تعالى :" تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا " ونقرأ هذا في كثير من أي كتاب الله، وفي قوله :" فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ "، وعندما ينعت الله تعالى عباده أي يصفهم بهوياتهم، تجد

هذا الوصف يتسامى عن البيئة، وإنما يخاطب الجامع المشترك الذي يغطي الصفة الإنسانية جمعاء، مثلا في قوله تعالى :" إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا" صفة العبودية هي الجامع المشترك بين جميع الناس.في القرءان الكريم دلائل يعرضها الله سبحانه وتعالى منها :

دليل على وحدانيته، دليلا على ربوبيته، دليلا على خالقيته، ونلاحظ أن هذه الدلائل التي يسوقها بيان الله عز وجل هي من النوع التي يدركها الناس جميعا، على اختلاف أعراقهم، ونزعاتهم، وعلى اختلاف مذاهبهم، ودرجاتهم في الثقافة، وهذه من مظاهر النزعة الإنسانية في القرءان.

هناك من يقول لماذا لا يأتينا البارئ بأدلة علمية على وجوده، مثل موضوع بطلان التسلسل العلل الذاتية إلى ما لا نهاية مستحيل.؟ نقول لا، لو فعل ذلك لكان الخطاب لفئة معينة.

واحد أخر يقول لماذا لا يضعنا الله تعالى أمام دليل وجوده وخلقه للكون أمام دليل العلة الغائية؟ نقول إذا تعامل الله تعالى بها معنى ذلك أنه حجم الخطاب لفئة دون غيرها، والنزعة الإنسانية في القرءان هي الدائمة، والبارئ عز وجل يأتينا بالأدلة، لكنها تلك التي يمكن أن يتعامل معها الناس جميعا على اختلاف ثقافاتهم وبيئاتهم، فكلهم يدركون ذلك،مثلا عند قوله تعالى:"إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب "

أو في قوله تعالى :" وفي أنفسكم أفلا تبصرون " وعند قوله :" أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ" وعند قوله تعالى :" أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ" هذه أدلة قوية، في مضمونها علمية، لكن البارئ عز وجل يبسطها تبسيطا كبيرا بحيث يصلح أن يخاطب بها الإنسان أيًا كان، وفي مثل قوله تعالى أيضا :" أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ"أي كان قرأ هذه الآيات خاصة العربي فإنه بإمكانه التعامل معها وإدراكها.

النزعة الإنسانية في التشريع: عندما يحدثنا الله تعالى عن الأحكام سواء عبادات أو معاملات، أو كانت تتعلق بالمجتمع أو الأسرة، نتأمل فنجد أن البيان الإلهي إنما يخاطب الأسرة الإنسانية جمعاء، دون أن يخص بخطابه قوما دون قوم أو عرق دون عرق أو فئة دون أخرى نهائيا.وكل ما يمكن أن تستعرضه من آيات التشريع في كتاب الله عز وجل تجد هذه المزية واضحة في النزعة الإنسانية، مثلا البارئ عز وجل يدعونا إلى أن نحقق ميزان العدالة من خلال كتابه المبين :" وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ " والميزان هو قوانين العدالة، وهي العدالة الإنسانية الشاملة دون أن يغض من شمولها عرق، قوم بيئة، مذهب نهائيا.لذلك نجد البارئ عز وجل يقول :" وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ " أي لا يحملكم كرهكم لقوم ما على أن لا تعدلوا، والعدالة هنا بين مسلمين وغيرهم.

مثلا سورة النساء، هي من السور المليئة بالأحكام، حيث أننا نجدها شاملة لكل زمان ومكان، والنزعة الإنسانية تتجلى كأعظم ما يكون في افتتاحية السورة، في قوله تعالى :"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا "كأنه يريد أن يقول، أصغوا السمع جيدا إلى الأحكام التي سأسردها عليكم كلها نابعة من الميزان الإنساني ومن الكرامة الإنسانية العامة والتي متعتكم بها.فتحدث في السورة عن حقوق اليتامى، وعن حقوق الزوجين، وعن الميراث، وتحدث عن الحكم بما أنزل الله.

رجل اسمه "طعمة ابن أبيرق" أراد يوما سرقة غرارة طحين بداخلها درع وبعض الأمتعة الثمينة، والرجل مسلم بحسب الظاهر سرقه، ولكي لا تلتصق التهمة به أودع هذا المتاع الذي سرقه في دار جار للمسروق وهو يهودي.أعطاه على أساس أنه له ويتركها أمانة عنده.والرجل المسروق تبين له في اليوم التالي أن هناك متاع سرق من بيته، فجاء يشكو إلى رسول الله ﷺ، ففتحت سبل البحث عن هذا الذي سرق، أصابع الاتهام فعلا ذلت على "طعمة ابن أبيرق"، وجيء به إلى رسول الله ﷺ،فقال طعمة:" يا رسول الله نحن أهل بيت مسلم أنتهم بالسرقة؟

فليرى هذا الرجل إلى جيرانه، وفعلا وجدوا رشاش الطحين ما بين دار المسروق وبيت اليهودي.أتهم اليهودي.

فقال :" لست أنا بل جاءني طعمة وأودعه عندي " وأخذ: طعمة يقسم وبرأ نفسه من هذا الأمر.فالتهمة ضاقت على اليهودي، والرسول ﷺ بشر، إذا انقطع عنه الوحي فهو لا يعلم الغيب.فكاد رسول الله أن يحكم على اليهودي بجريمة هذه السرقة.ومحل الشاهد أن الله عز وجل أنزل عشر آيات كلها دفاعا عن اليهودي وتجريم لسارق الحقيقي، لنتأمل النزعة الإنسانية في كتاب الله سبحانه وتعالى :" إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا " في هذه الآيات نوع من العتاب لرسول الله، وهذه من دلائل أنه كلام الله عز وجل، ويقول تعالى :" وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا " وطعمة لم يكن لوحده وإنما أسرته بأكملها اتفقوا على هذه الخطة، وقوله :" هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا " لنتأمل النزعة الإنسانية في ميزان العدالة، ونلاحظ في هذه الآيات ما يبرز بشكل صارخ الدليل الناطق بأن هذا القرءان ليس بكلام محمد ﷺ، حيث كانت الآيات تنبيها لرسول الله ﷺ ودعوة له إلى أن يعود فيجرم السارق الحقيقي.وهذا الجانب سميناه مظهر جلال الربوبية في القرءان الكريم.

النزعة الإنسانية في أسلوب القرءان الكريم:عندما يناديا الله عز وجل، فإنه لا يناديا إلا بإحدى صيغتين اثنتين :

- إما بكلمة يأيها الناس، ويقولها عندما يكون المضمون دعوة إلى معرفة حقيقة الكون والمكون، أو يكون الخطاب دعوة إلى معرفة حقيقة الإنسان مآله، وقصة الرحلة التي هو بصددها.وهنا يخاطب الله تعالى الكل.مثل قوله تعالى :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ " وقوله تعالى :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "

ـ أو بكلمة يا أيها الذين آمنوا: يخاطبنا بها إذا أراد المولى أن يبصرنا بحكم من الأحكام في الشريعة، مثلا في كيفية الطهارة والوضوء، كيفية الصلاة والحج، ويحدثنا عن المحرمات التي نهينا عنها.ويخاطب هنا من آمن بالمبادئ والعقيدة.وكلا الخطابين على مستوى البشرية جمعاء

(الدرس 34)

الإجابة عن تساؤل أن الله تعالى أحيانا يخاطب بني إسرائيل بقوله :" يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ" فها هو ذا يخاطب فئة معينة؟ أو قوله مثلا :" قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ " والبارئ عز وجل قلنا أنه لم يلتفت إلى زيد من الناس وهاهو قد ذكر زيد بقوله تعالى :" فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا " الجواب على السؤال من أجل الفائدة للجميع هو التالي: عندما يخاطب الله عز وجل أهل الكتاب بني إسرائيل أو غيرهم، إنما يذكر ذلك حكاية لخطاب الله لرسوله، ويحكي من خلال خطاب الله لنا أو لرسوله ما قد خاطب به أهل الكتاب آنذاك، أي عندما تجد قول يا أهل الكتاب أو يا بني إسرائيل، إقرأ الآيات التي قبلها تجد أن الخطاب من الله تعالى موجه إلى المصطفى ﷺ، وهو ذاته خطابه لنا، مثلا قوله تعالى :" وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ " الخطاب لرسول الله حيث يخبره تعالى بما أوحى به إلى سيدنا موسى.كذلك عندما يقول يا أهل الكتاب، وفيها قل هنا الخطاب لسيدنا رسول الله ﷺ وهو خطاب لنا جميعا حيث يقول تعالى :" قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ "كلها داخلة في كلمة قل وهو خطاب الله تعالى لرسوله ﷺ وهو لنا جميعا.وخطاب الله تعالى لسيدنا موسى هو حكاية.

وبالنسبة لسيدنا زيد فعلا هو الشخص الوحيد الذي ذكر الله عز وجل اسمه من الناس الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ لماذا؟ الجواب أن سيدنا زيد زوجه المصطفى ﷺ من زينب، وعاش معها ردحا من الزمن، ثم من أجل إلغاء عادة التبني، وذكرت القصة سابقا، حيث ساءت العلاقة

بين زيد وزينب إلى أن طلقها.وأمر الله تعالى نبيه بأن يتزوج السيدة زينب.وفي الظاهر أن هناك شيء من الغضاضة أصابت زيد، فالبارئ عز وجل رفع مكانته وأزال هذه الغضاضة لما خلد اسمه في كتابه.

النزعة الإنسانية في الأخلاق في القرءان الكريم: القرءان كتاب عقيدة وتشريع وأخلاق، لو لاحظنا معايير الأخلاق في المجتمعات الإنسانية قديما وحديثا، كلها تتمثل في عادات لمجتمعات معينة، وتتمثل في أصول تربوية معينة متأثرة بثقافات معينة، والأخلاقيات التي نعرفها في المجتمعات بقطع النظر عن القرءان، معاييرها إما فلسفات أو أعراف معينة.لهذا نجد أن الأخلاق الفاضلة في مجتمع معين تختلف عن الأخلاق لمجتمع أخر.وهذا لأن كلمة الأخلاق الفاضلة للمجتمع لم يستطع أي مجتمع إنساني في عصر من العصور أن يتفق على مضمون معين لها.أما الأخلاق الإنسانية الفاضلة التي جاء بها كتاب الله عز وجل، عندما نتأملها نجد أنها ليست نابعة من بيئة أو أعراف أو ثقافات معينة، وإنما هي مبادئ أنزلها الله عز وجل علينا متفقة اتفاق دقيق مع الفطرة الإنسانية.وكأن تلك الأخلاق ثوب صاغه البيان الإلهي على قدر الفطرة الإنسانية.وتطبيقها يضمن أسس السعادة والخير للفرد وللمجتمع، أينما كان ذاك المجتمع موجودا، وأي كانت ثقافته.

أمثلة: كل المجتمعات الإنسانية نجد أن مقاييس تفاوت الناس سموا وعلوا وهبوطا آت من رعونات بشرية ومن عصبيات لقبيلة ما للغة معينة.وهكذا كان الناس يتفاوتون بعضهم عن بعض .والبارئ عز وجل أنبأنا أن الناس كلهم على مستوى واحد من الكرامة وهذا في قوله تعالى:" وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا "يقول قائل نعم هذا التكريم صحيح، لكن آلا يتفاوت الناس فيما بعد بسبب تصرفات يمارسونها وجهود يبذلونها؟ وضع البيان الإلهي ميزان لهذا التفاوت، وهو ليس بقومي أو عرقي أو ثقافي أو انتمائي أو بيئي، وإنما هو ميزان متمثل أن كل من خدم الإنسانية بدافع من الاستجابة لأمر الله عز وجل والخوف من غضب الله، هو أفضل ممن لم يستجب لنداء الله عز وجل، على هذا الأساس يتفاوتون، فقال جل جلاله :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ".

ـ السلوك هو دليل الأخلاق وهي نتيجة الشعور الذي يربى عليه، الله تعالى ربى الأطفال الذين ينشئون في أسرة على أن تكون علاقتهم مع الإباء والأمهات على أساس من العلاقة الإنسانية الصافية عن الشوائب، يعني أن بر الأبناء بالآباء والأمهات، هنا حذرهم البارئ أن يتأثر هذا البر

بدين أو أي اعتبار أو تبعية أو فكرة أو انتماء أو مذهب، وإنما البر يتم على أساس من الفطرة الإنسانية التي تقتضي أن يكون الولد بارًا بأبويه، ومنه فإن دين الله يأمر بما تقضي به الفطرة.ويقول ربنا سبحانه وتعالى :" وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ"الله تعالى هنا يوصي الناس جميعا حسنا بولديه أي كانوا، ويبين لنا سببا من أسباب كثيرة لهذه التوصية عندما يقول :" حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ " وفي هذا إلماح إلى الحكمة التي اقتضت أن يكون الإرضاع عامين، حيث تبث علميا إلى أن القيمة الغذائية في حليب الأم ترتفع شيئا فشيئًا إلى أن يصبح عمر الطفل عامين.وبعدها قرن البارئ شكر العبد لربه بشكره لوالديه.ومحل الشاهد أن البر ما ينبغي أن يتأثر باختلاف الدين بقوله :" وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا " فالمسألة هنا إنسانية.

ـ البارئ عز وجل أنبأنا أنه لا يجوز في مجال التعامل الأخلاقي أنه ما ينبغي أن يُحَمَّلَ أحد جريرة غيره .وفي المجتمعات الأخرى نجد أن الأقوياء من دأبهم في كثير من الأحيان، أن يحملوا مسئولياتهم وجرائرهم وجرائمهم للمستضعفين الذين لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا، وهذه من أسوأ المبادئ الأخلاقية التائهة.والمعيار الإنساني يقول :" وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا " والعرب كانت تتطير بما تراه، حيث أنهم يحملون شؤم أعمالهم للآخرين البُرَاءة، وربى الله الناس أن كل واحد يتحمل شؤم نفسه، لأن الإنسان لا يصيبه إلا إفرازات سلوكه من خير أو شر.ويعبر عن هذا بعبارات أخرى أجلى وهي في قوله تعالى :" مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا "

ـ والبارئ عز وجل وعد المسلمين بالفضل الجزيل وبالصفح الكبير، ووعدهم بسعادة العقبى ، وتوعد المارقين والجاحدين والمفتئتين على الله ورسوله بالعذاب والنكاد.لكن في دار الدنيا نهى رسوله ونهى أيضا عباده ،عن أن ينسيهم وعد الله ووعيده إتباع ميزان العدالة، حيث يقول تعالى :" وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" أي بغضكم لقوم ما لا يحملنكم على أن تظلموهم، وموازين العدالة الإنسانية هي

المحكمة.ومشاهد ذلك كله نجدها في أخلاق رسول الله وأصحابه، ولنتأمل هذا في قوله تعالى :" فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ " وهذا للمسلمين وغيرهم.

(الدرس 35)

فلسفة القرءان عن الكون والإنسان والحياة

نتحدث عن ما بينه لنا الله عز وجل في حقيقة العناصر الثلاثة والتي أجمع علماء الاجتماع، على أنها أركان الحضارة وهي: الكون بكل مكوناته التي من حولنا، والإنسان والحياة التي يتمتع بها.والعنصر الفعال هو الإنسان، أما الكون والحياة فهما عنصران متأثران أي منفعلان.فالحضارات الغربية لها تفسر لحقيقة المكونات والإنسان والحياة، حيث أن الفلاسفة القدامى تركوا لهم تفاسير لهذه العناصر.

لكن ما هي هذه العناصر الثلاثة في ميزان القرءان؟ وبعبارة أخرى الحضارة التي ربى بها القرءان عليها المسلمين، بما تختلف عن الحضارات الأخرى؟ وهذا الاختلاف ناتج عن اختلاف تفسير القرءان للكون والإنسان والحياة عن تفسير المجتمعات الغربية والفلاسفة القدامى لكل من هذه العناصر.

نريد من خلال حديثنا تصحيح فهما خاطئا يتلبس فيه كثير من المسلمين، حتى المثقفين منهم، ومع الأسف حتى بعض علماء المسلمين.حيث كثيرون هم الذين يتصورون أن العالم الإسلامي اليوم متخلف حضاريا، في حين أن المجتمعات الغربية متقدمة حضاريا.وهذا الكلام بهذا الإطلاق فيه خطأ كبير وهو كلام غير مغتفر.أي مقدار من الثقافة الاجتماعية تقي الإنسان من الوقوع في هذا الخطأ.فالحضارة تظهر وتتجلى في العلاقات الاجتماعية، وهذا هو الميزان الذي يكشف عن تخلف المجتمع أو عن تقدمه.وسبب خطأ كثير من الناس هو ما يتصورنه من أن ميزان الحضارة هو شيء واحد وهو العلوم التقنية أي العلوم المادية.في حين أن الجانب التقني هو جانب من جوانب كثيرة من الحضارة، وأهمها الجوانب الاجتماعية، والتي إذا نظرنا إليها نجد العكس تماما حيث أن المجتمعات الغربية هي المتخلفة، والمجتمعات الإسلامية على الرغم من تخلفها التقني هي المتقدمة.

ـ الأمن الاجتماعي في المجتمعات الإسلامية مستتب إلى أعلى الدرجات.
ـ سلامة الأسرة من حيث العلاقات التي تشيع بين أفراد الأسرة على الوجه المطلوب هي قريبة من الأوج في المجتمعات الإسلامية بحمد الله تعالى.وهذا من حيث تماسك الأسرة ومكانة كل فرد فيها.
ـ ما يتمثل بالراحة النفسية والتي تتمتع به المجتمعات الإسلامية، والمقصود منها الحصانة التي يتمتع بها الفرد ضد أمراض الكآبة، وضد الأمراض النفسية المختلفة.وهي في المجتمعات الإسلامية في أعلى المستويات بحمد الله تعالى.بمعنى أن الإنسان في مرحلة شبابه وكهولته والشيخوخة وضعه النفسي وضع مريح، وبعيد عن تسرب الأمراض المختلفة من كآبة، والسبب هو إيمانه لما بعد الموت، والثقة بالله عز وجل.
ـ النظافة الحقيقية لا السطحية التي تترأى على السمة والزى والشعر لا، وإنما نقصد النظافة في الداخل مع نفسه وفي منزله، فإن المجتمعات الإسلامية تتمتع بقيمة حضارية كبرى في هذا الجانب، وتجد النظافة في الظاهر والباطن على درجة واحدة.وهذا من أهم أسس الحضارة.
في حين أن المجتمعات الغربية تفتقد إلى كل ذلك :
ـ الأمن والسلم في مجتمعاتهم غير متوفر، والخوف هو المسيطر، وهذا من مظاهر التخلف.
ـ وما يتعلق بهجوم الأمراض النفسية وأمراض الكآبة على أفراد المجتمعات الغربية شيء تقشعر له الجلود،لا سيما عندما يتجاوز الإنسان هناك مرحلة الكهولة ويشم مرحلة الشيخوخة ويدخل إليها.وكل هذا لفقدان إيمانهم بالبعث وتصوره أنه إلى العدم أيل أمره.
ـ وما يتعلق بالنظافة هو مظهر شكلي من قشرة رقيقة إذا اخترقتها وجدت النقيض تماما، وهذا عن سائر الطبقات.
ـ وعن الأسرة في المجتمعات الغربية كلها تحولت إلى أطلال.

ومنه نقول أنه يخدعك من يقول لك أننا مجتمعات متخلفة، وتلك متقدمة لوجود صناعات واختراعات في شتى المجالات إذن هي متقدمة، وهذا جانب من الجوانب وهو ما ناله الغرب من الحضارة، وهو ركن واحد فقط.ومجتمعاتنا متخلفة في هذا الجانب التقني فقط، ينبغي علينا تصحيح هذه النظرة.

نظرة القرءان إلى الكون: وكلمة الكون يراد بها هذه المكونات التي من حولنا، وبيان الله عز وجل يحدثنا في كثير من أي كتابه المبين عن المكونات التي من حولنا، وينبهنا منها إلى أمرين اثنين.

الأمر الأول هو: ما يمكن أن نقرأه في سطور هذه المكونات العلوية من سماوات وأفلاك ونجوم وشمس والقمر، والسفلية وما بينهما من الدلائل على أن هذه المكونات تتمتع بنظام دقيق هادف، ومن تما لا يمكن أن يكون إلا نتيجة لخلق منظم له، وبإيجاد مدبر موجد لها.والبارئ عز وجل لما يلفت أنظارنا إلى هذه المكونات، يلفت أولا إلى ما يمكن أن نقرأه في سطور هذه المكونات من الدلائل على أنها لم توجد إلا عن طريق موجد، ولم تترتب على هذا النحو الدقيق إلا بواسطة صانع حكيم.مثلا نقرأ في قول الله عز وجل :" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " هذه الآيات تتحدث عن المكونات من الجانب الذي يهمنا أن نعرفه كدليل على وجود صانع لها ومكون لها.ونقرأ قوله تعالى :" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ "كلها آيات تطلب منا أن نتأمل في هذه المكونات لنرى الله من خلالها ببصيرتنا.

الأمر الثاني هو: بيانه أن المكونات كلها مسخرة لخدمة الإنسان ولمصلحته، وكلمة التسخير في كتاب الله مكررة كثيرا.والإنسان بقدر ما يحتويه من دراية وعلم يستطيع أن يعتصر هذه المكونات وأن يسخرها لخدمته.والتسخير على نوعين، تسخير لا يتوقف على جهد منا مثل حركة الأفلاك ،والتي تجعل الزمن ينقسم إلى ليل ونهار والسنة إلى أشهر وهكذا.. وفي المكونات مسخرات أخرى متوقف تسخيرها على جهودنا، مثلا في داخل الأرض معادن وطاقات وأموال وكنوز وخيرات كثيرة، لكنها تحتاج إلى جهد وعلم.وكذلك كثير منها على ظاهر الأرض كطاقة الشمسية.ومن أي كتاب الله التي تبين لنا هذا كله قوله تعالى :" هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "أي كل ما في الأرض خلقه الله تعالى لخدمتكم وصلاحكم.ثم فصل المولى تبارك وتعالى هذا الكلام فقال :" اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ آتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ

كَفَّارٌ" يبين لنا ويعطينا مفاتيح الحضارة، ونفهم من هذا أن الله تعالى يقول لنا تمتعوا بهذه الخيرات التي أبدعتها وخلقتها لكم وجعلتها خدما لمصالحكم، والسائر إلى الله يجعل من هذه المسخرات مطية إلى الله.ولهذا يقول في موضع أخر :" قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " وهذا الذي يقوله لنا الله تعالى يرد ردا حادا وبليغا، على الدجل الذي خاض فيه بعض الناس ولا يزالون، حيث يقولون :" أن المكونات أو الطبيعة حسب تعبيرهم أنها في عهد من العهود كان الإنسان يخشاها ويخافها، لأنه كان جاهل ولم يكن يتمتع بمعرفة وبثقافة، لذلك كان يخاف من صوت الرعد ويخاف البرق وكان بينه وبين الطبيعة عداوة، ولم يكن يستطيع أن يستفيد من الطبيعة شيئا بسبب جهله، ثم إنه تقدم وأفكاره اتسعت وهكذا شيئا فشيئا هيمن على الطبيعة، وأخذ يسخرها لمصلحته.. "كلام تافه ممزوج سمج على العقل، لا وجود لدليل ولا برهان ولا وجود لمنهج علمي لهذا الكلام الغيبي.وخالق الكون يوضح لنا أن الإنسان منذ أن خُلِق، ومنذ أن شاء الله تعالى أن يوجد فوق هذا الكوكب الأرضي كانت المكونات خاضعة له، ومسخرة له، والإنسان منذ أن وجد وهو يتمتع بالمدارك والمعارف، ويتمتع بمقومات الحضارية كلها.لذلك حدثنا البارئ عن أمم خلت من قبل وينبهنا أن الله تعالى مكنها من المكونات التي من حولها أكثر مما مكننا نحن، حيث قال تعالى :" وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ " ومكناهم أي جعلناهم يسيطرون على المكونات التي من حولهم أكثر مما مكناكم، وأثارهم دالة على ذلك.

ثم إن البارئ لما يحدثنا عن المكونات من خلال الجانبين المذكورين جانب وجود البارئ وجانب تسخير المكونات للإنسان، الأن كيف يحدثنا البارئ عن الإنسان.

نظرة القرءان إلى الإنسان: البارئ عز وجل يضعنا أمام هويتين للإنسان، في الظاهر أنهما متناقضتين :

ـ الهوية الأولى أن الإنسان كائن تافه جدا جدًا.في قوله تعالى :" قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ "

الهوية الثانية: أن الإنسان مكرم وليس هناك مخلوق أكثر منه تكريما، وهذا في قوله تعالى :" وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا "

كيف نجمع بين هاتين الهويتين اللتين ينعث بهما القرءان الإنسان؟

(الدرس 36)

القرءان يصف الإنسان بالعقل والذي يتفرع عنه العلم والإدراك والفكر، ومنه التفاعل مع المكونات التي حول الإنسان، ويتمتع الإنسان بشعور بالذات أو الأنا، وهذا يتفرع عنه الكبر وحب التملك، والرغبة في حماية الذات، ويتمتع الإنسان بالقدرة والقوة.وكلها صفات خطيرة وهي أشبه بسلاح ذي حدين.لهذا سمى الله تعالى هذه الصفات بالأمانة فقال :" إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا " وهي ظلال إن جاز التعبير لصفات الربوبية، مثل صفة العلم وهي علم الله تعالى، لذلك قال :" ولا يحيطون بشيء من علمه " كذلك القدرة والشعور بالأنا وغيرها.والحكمة من إضفاء هذه الصفات الإلهية في الإنسان :

ـ أن يتمكن عن طريق هذه الصفات من تسخير المكونات التي حوله لمصلحته.

ـ البارئ عز وجل سمى الإنسان خليفة، في قوله تعالى :" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ " وصف الخلافة لهذا المخلوق جملة لا يفسر إلا أنه خليفة عن الله عز وجل، ولكي ينهض بهذه الخلافة في الأرض لابد من أجهزة يتمتع بها، وهي هذه الصفات التي ميز الله عز وجل الإنسان بها.

تفسير معنى الخلافة: معنى خلافة الإنسان لله تعالى، أن الله تعالى خلق هذا الكائن وشاء أن يعيش فوق هذا الكوكب الأرض وكلفه برسالة وهي عمارة هذا الكوكب الأرضي، العمارة المادية المرئية والعمارة المعنوية، أي إقامة المجتمع الإنساني على النحو الذي أراه الله عز وجل إياه، أي على النحو الذي بينه الله له في محكم تبيانه، أي كلفه بأن يقيم موازين العدل في الأرض، وأن يطبق هذه العدالة التي يأمره الله تعالى بها.والبيان الإلهي أوضح لنا قوانين هذه العدالة.فإذا نهض الإنسان بتنفيذ هذا الذي أمره الله تعالى به وأقام موازين العدالة في الأرض طبقا للقرءان وما فيه، يكون قد فعل هذا باسم الخالق سبحانه وتعالى.

لماذا نسمي قيام الإنسان بهذه الوظيفة خلافة عن الله ؟الله عز وجل أقام ميزان العدالة في حياة الحيوانات مباشرة عن طريق الغريزة، كذلك الطيور في جوها، والأسماك في بحارها كلها لها نظام في حياتها.لكن الإنسان عندما كلفه الله عز وجل هو الأخر بإقامة نظامه الذي يريده بين أفراد هذا

المجتمع الإنساني، ما ساقه إلى ذلك غريزيا، حيث كرمه ومتعه بالحرية والفكر والنظر والعقل، ثم أنزل عليه القرءان وقال له اقرأ، وتبين العدالة وموازينها، وأطلب منك تنفيذها فيما بينكم.الذين قالوا لبيك يا ربي وإننا ننفذ أوامرك طوعا، عندها يصبح هذا الإنسان خليفة عن الله تعالى لهذا قال تعالى :" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ"

ـ هنالك من يتساءل من عرف الملائكة أن هؤلاء سيسفكون الدماء؟ الجواب أنه عندما قرر الله عز وجل أن يجعل هذا الإنسان خليفة عنه في إقامة موازين العدل، كان لابد لكي يقيم هذه الموازين وينهض بها من وسائل، ولابد له من مسخرات من حوله وهي هذه المكونات.وعندها لابد لهذا الإنسان أن يتمتع بالعلم والقوة والشعور بذات وما إلى ذلك.وعندها لابد من وجود من يسفك الدماء ومن يظلم.. لكون هذه الصفات هي صفات خطيرة ولهذا سميت أمانة.فمن عرف ربه وأدرك هويته أنه عبدا لله عز وجل، أكيد سيستخدم هذه الأمانة فيما يرضي الله تعالى.ومن أثر أن يركن إلى الطغيان وركب رأسه بشعوره بذات والشعور بالأنا والعلم أكيد سيظلم.والملائكة عرفت ذلك.أي أن الإنسان يتمتع بصفات، وحرية والتي قد تقوده إلى الشر أو إلى الخير، فقدرت الملائكة أن هذا المخلوق ربما يعيث فسادا.

فمن وسائل التي تجعل الإنسان يستعمل الصفات التي متعه بها في الخير التربية العجيبة التي ربى بها القرءان الإنسان، حيث أن القرءان في كثير من آياته يضعك أمام صورة لك تقزز النفس، وتبعث في نفسك الاستخفاف بنفسك والاشمئزاز من ذاتك، مثل قوله تعالى :" فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ "ويقول تعالى :" قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ " وقوله تعالى :" أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ "وأمثال هذه الآيات كثيرة، إلا أن الله عز وجل لم يتركك لها، عاد فقال لك :" وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا " البارئ عز وجل يضعك أمام صفات تجعلك تزدري نفسك و تستهين بها، وبعدها رأسا ينقلك إلى الوصف الأخر ويبين لك أنه كرمك وفضلك على كثير من مخلوقاته، هذا المزيج هو الذي يشكل الكابح الذي يمنع الإنسان من أن يطغى بصفات التي متعه الله عز وجل بها، وبهذه التربية هُيئ الإنسان لهذه الخلافة.عليه أن يعمر الأرض

وهو عبد دليل لله تعالى.وبسبب هذه التربية فإنه ليس بإمكان أحد أن يستذلني بسبب طغيانه، ولا النفس الأمارة بسوء تجعلني أطغى على الآخرين.

مثلا: سحرة فرعون قبل أن يعرفوا هوياتهم من خلال ما قلناه، كانوا بالنسبة لفرعون عبيد، ونجد هذا في قوله تعالى وما قالوه هؤلاء السحرة :" فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ " ودلهم هذا بسبب بعدهم عن هذه التربية الربانية وهي كونهم عبيدا لله وأن الله كرمهم، ولما تحولوا إلى الإيمان وآمنوا بسيدنا موسى نبيا، وعرفوا الفرق بين السحر الذي يخدعون به الناس، وبين المعجزة الربانية، ودخل الإسلام قلوبهم، عندها :" فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ " فهددهم فرعون بقوله لهم :" قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ"هؤلاء لو أصابهم هذا التهديد قبل أن يؤمنوا، كانوا ذابوا من الرعب، بل لم يهتموا بما قاله لهم :" قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ"هذه هي الحكمة من أن الله يخاطب الإنسان ويعرفه على ذاته بهذه التعريفات، من أجل أن لا يطغى بهذه الصفات التي متعه بها، ومن أجل أن لا يدل إلا لله سبحانه وتعالى.والقرءان بهذا هو مصدر الحضارة، من خلال تعريفه للإنسان بذاته وتعريفه للمكونات التي من حوله، وتعريفه بالحياة التي تخفق بين جوانحه، من خلال تعريفه كيف يتعامل الإنسان مع هذه كلها.

(الدرس37)

نظرة القرءان إلى الحياة :نتعرف هنا عن حديث القرءان لنا عن هذه الحياة التي نعيشها، ما هي قيمتها وأهميتها ومبدؤها ومنتهاها ،وما هي الحظوظ التي ينبغي للإنسان أن يقطفها من حياته التي يعيشها، وإلى أي حد؟ البارئ عز وجل يعرفنا على ذلك بتعريفين اثنين :

ـ يوضح لنا في آيات كثيرة وبأساليب متعددة أن هذه الحياة تافهة وأنها إلى زوال في قوله مثلا :" قل متاع الدنيا قليل " ويضرب الأمثلة المختلفة المتعددة للحياة التي تضعنا أمام صورة تفاهتها وعدم أهميتها، وأن الإنسان ما ينبغي أن يحفل بها، فهو يقول مثلا :" اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ

مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۗ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ" ويقول تعالى أيضا:" وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا"

أي ليس بين هطول الأمطار واخضرار الأرض إلى أن تصفر وتصبح حطاما بعد لحظات، فالحياة الدنيا كذلك.لو أن الإنسان لم يتلقى من معاني الحياة إلا هذه الآيات، لاقتضت هذه الآيات أن يعرض عنها الإنسان ولاكتفى من هذه الحياة بثوب يرتديه ولقمة يأكلها وكن يأويه، لكن سرعان ما ينقلنا البارئ إلى صورة أخرى للحياة، في قوله تعالى مثلا :" وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ " ويقول :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ" ويقول أيضا :" قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"

قد يكون هذا يسبب إشكالا للبعض ويقول، الآن ماذا نصنع، نجد آيات تشدنا إلى الزهد في الدنيا، وآيات أخرى تشدنا إلى التعامل معها؟ لله تعالى حكمة باهرة في تعريف الحياة لنا بهذين التعريفين اللذين يكادان يكونان بحسب الظاهر متناقضين.حيث يريد البارئ عز وجل أن نقبل إلى زخارف الحياة الدنيا، لكن لا إقبال المفتون بها والمتعشق لها ،وإنما إقبال الموظف الذي يحتاج لأداء وظيفته إلى استعمال بعض الآلات ويقبل إليها لأداء المهمة. فربنا سبحانه يحب لنا أن نقبل إلى زخارف الحياة الدنيا لنعمر بها الكون وكلفنا بذلك، ولكن علينا أن نقبل إليها إقبال المستخدم لخادمه.والسبيل إلى ذلك أن يضعنا أمام الصورة الحقيرة التافهة لهذه المظاهر الحياتية كلها حتى يبشعها في نفوسنا، وبعد ذلك يأتي البيان الإلهي ويطلب منا أن نستخدم هذه الحياة الدنيا لعمارة الأرض، لمصالحنا وشؤوننا، وإذا وصلنا إلى هذا نكون قد تملكنا مفاتيح الحضارة الإنسانية، وتملكنا الوسائل التي نستعلي بها على كل من يأتي ليعادينا وليخاصمنا أثناء هذا البناء للحضارة.

مثال لصورة سلبية: الأمم التي جعلت من هذه المتع في الحياة همها الأوحد فعملت وسعت وتحصلت على ما تريد، بعدها عاشت حياة اللهو والترف وما إلى ذلك.وهذه هي نقطة الضعف، وهو المرض الذي يجعل العدو يتسرب من خلاله إليها.ومثال ذلك الدولة الإسلامية التي ظهرت في الأندلس.حيث في بداية أمرها بنت حضارتها على أساس التربية الربانية التي ذكرناها بيد " عبد

الرحمان الداخل" حيث استخدموا وسائل الحضارة وهو مستعلون فوقها، فقويت الدولة وانتشر ألقها في الأفاق.لكن خلف من بعدهم خلف رأوا المال الكثير وأسباب النعيم والمتعة وفيرة، فانحطوا فيها وركنوا إليها، عندها تسرب إليهم الأعداء.وذهبت هذه الحضارة مع الريح.

مثال لصورة إيجابية: وهم أصحاب رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم والجيل الذي بعدهم، اصطبغوا بهذه التربية، حيث فاضت قلوبهم كراهية لدنيا ومظاهر الترف واللهو فيها، لكن لما رأوا أن الله تعالى يأمرهم أن يقبلوا إليها، وأن يعمروا هذا الكوكب الأرضي وقال :" هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا " أقبلوا إلى هذه الزخارف والأموال إقبال الإنسان الصانع الذي يستخدم آلات الصناعة من أجل تحقيق هدفه.

مثلا: كانت الأموال التي تأتي إلى أمير المؤمنين سيدنا عمر رضي الله عنه، من بلاد فارس بعد أن انتصروا في القادسية وغيرها ، سيقت لهم أموال كثير ة، ولولا هذه التربية القرءانية التي هيمنت على قلوب المسلمين آنذاك، لكانت لهذه الأموال والغنائم أثرٌ كبير وخطير على نفوسهم، ولكان مآلهم كمآل ملوك بني الأحمر بالأندلس.وسيدنا عمر تعامل مع هذه الأموال ووزعها، وجعل منها أساسا لبناء الحضارة والمجتمع، حيث بنى الكوفة والبصرة وغيرها.وورد في الصحيح أن سيدنا عمر لما سيقت إليه هذه الغنائم نظر إليها، فبكى بكاء عجيبا، قيل له لماذا تبكي هذه نعمة أرسلها الله إلينا؟ نظر إليهم وقال :" اللهم إنك كنت تعلم أن نبيك محمد كان خيرا مني، ولم تعطه شيئا من ذلك، وإنك لتعلم أن أبا بكر كان خيرا مني ولم تعطه شيئا من ذلك ، فأعوذ بك يا ربي أن تجعل عطاءك هذا فتنة لي " هذه التربية هي التي جعلت الدولة الإسلامية تترسخ وتسيطر وتهيمن.وجعلت المتربصين حولها يحومون ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئا لتقويض حضارتهم أو دولتهم.

مثال أخر: في وقعة القادسية كان رستم على رأس الجيش الفارسي، ظن أن هؤلاء الذين جاءوا إلى بلاد فارس ليقاتلوا مثل بقية الناس تأثرهم الأموال وتفتنهم الزخارف وتسكرهم مظاهر اللهو، إذن الأمر بسيط لمجرد رؤيتهم هذه المظاهر يركنوا إليها، أي يعاملهم بما يسمى بحرب نفسية.وفعل ذلك حيث كان له سرادق قد إزدان بكل مظاهر البذخ، وأرسل إلى " سعد ابن أبي وقاص " أن أرسل إلينا واحد أو اثنين لكي نتفاوض معهم.فأرسل إليه " ربعي ابن عامر" ذهب وهو يلبس ثوبا مرقعا، يركب فرسا لا جلَّ له.وكان يقوده رسول رستم.ولما وصل إلى السرادق ونظر ربعي إليه، علم أنه مدعو لمقابلة هذا السرادق، وليس مدعو لمفاوضة مع رستم.نزل من فرسه وربط زمامه بأول

سارية كان ملفوف عليها حرير ناعم، وربطه بإحكام حتى تمزق الحرير. وكان يمشي بخطى وئيدة وقد جعل زج رمحه إلى الأدنى، وأخذ يتوكأ ويتحامل بزج رمحه على البسط التي يسير عليها حتى مزق كل ما سار عليه.ولما وصل إلى العرش الكبير الذي يجلس عليه سرادق أخره وجلس على جانبه على العرش.يعني أن هذه المظاهر كلها نحن ندوس عليها ولا قيمة لها عندنا، وربنا عز وجل طهر قلوبنا منها.وأقبل إليه الأعوان يحاولون إجلاسه على الأرض.فقال "أنا لم أتي إليكم أنتم أرسلتم إليَّ، فإما أن أجلس حيث أشاء أو أعود" فأمر رستم أن يتركوه حيث جلس إلى أخر الحديث الذي كان بينهم.

وهكذا وبسبب هذه التربية لم تستطع لا حضارة الفرس ولا الروم أن تنال من المسلمين شيئا، ومادام المسلمين متمسكين بتلك التربية تبقى حضارتهم في أوج شبابها، ولا يستطيع أحدا أن يقضي عليها.

(الدرس38)

ترجمة القرءان

الحديث عن ترجمة القرءان يتناول ثلاث نقاط :

1 ـ هل من الممكن أن يترجم القرءان ؟

2 ـ إذا قلنا أنه من الممكن أن يترجم القرءان، فهل يجوز الإقدام على هذا العمل أم لا؟

3 ـ لو فرضنا أنه ترجم القرءان، وظهرت ترجمته، هل تقوم الترجمة مقام القرءان؟ أي هل يجوز مثلا للإنسان أن يصلي بترجمة القرءان بدلا من أن يصلي بالقرءان ذاته؟

أولا: هل من المستطاع ترجمة القرءان؟ الجواب عن ذلك لا، فترجمة القرءان مستحيلة، سبب ذلك ما سبق أن أوضحناه عند الحديث عن خصائص أسلوب القرءان، وعند الحديث عن ما يمتاز به القرءان عن بقية الكلام العربي، من اعتماده على التصوير وتجسيد المعنى، ومخاطبة الخيال مع مخاطبته للعقل، وجوانب من إعجاز القرءان.هذه الدراسات التي استوعبنها وانتهينا منها، تقول لنا جوابا عن هذا السؤال أن القرءان لا يمكن أن يترجم، لماذا؟ عن معنى الترجمة مثلا نقل نص من اللغة العربية إلى لغة أخرى، عن طريق الانتقال من الكلمات الجزئية كلمة كلمَة، ثم جمعها لتعبير عن المعنى المراد والترجمة تختلف اختلافا كليا عن التفسير.لأن التفسير معناه أن تنظر إلى كلام مكتوب،

فأدركت المعنى الذي يتضمنه هذا الكلام، فتحاول أن تعبر عن هذا المعنى بعبارات أخرى ربما بنفس اللغة أو بلغة أخرى.

إذن ترجمة القرءان بالمعنى الذي ذكر غير ممكن.لأنك إذا عمدت إلى آيات القرءان فنقلتها إلى لغة أخرى، عن طريق التدرج في نقل الكلمات الجزئية، ستجد نفسك أمام معنا أخر غير الذي قصد إليه البيان الإلهي.

مثلا البارئ عز وجل يقول :" وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا " نريد أن نترجمها، نبدأ بالكلمة الأولى فالثانية إلى الأخيرة، عندها تجد أن المعنى الذي في الآية سقط، وظهر معنى أخر لم يكن يريده الشارع.حيث قلنا أن من خصائص التعبير القرءاني أنه يعبر بالكلمة الواحدة عن عدة معاني، وهذا لا يتأتى في الكلام الأخر.

مثلا في قوله تعالى:" أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ " كلمة المقوين هي جمع مقوٍ أي نازل في قو الصحراء، وأهالي الصحراء النار عندهم في الليل مادة أنس.وكلمة المقوين بمعنى بات قاويا أي بات جائعا، فالنار تنضج لهم طعامهم.وكلمة مقوين بمعنى مستمتع بشيء ترفا.إذا أردت ترجمة هذه الكلمة إلى لغة أخرى من أين لي أن أتي بهذه المعاني الثلاثة في كلمة واحدة.

مثال أخر: الله تعالى تحدث عن الأرض والكواكب والشمس والقمر، قال مثلا :" والأرض بعد ذلك دحاها " دحاها بمعنى بسطها، وبمعنى كورها وبمعنى عظمها وكلها واردة، لو أردنا ترجمتها لا يمكننا ذلك.

مثال: في قوله تعالى :" أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا" كلمة قرارا لها كلاما طويلا.وإذا أردت أن تأتي بكلمة مماثلة لها في المعنى في لغة أخرى تكون غيرت، وإذا أردت أن تأتي بكل ما تتضمنه الكلمة من معاني تكون انتقلت من الترجمة إلى التفسير.

وقد أجمع علماء اللغة العربية قديما وحديثا على أن القرءان لهذا السبب الذي ذكرناه غير خاضع لترجمة، أي لا تتأتى ترجمته.ومن العلماء المعاصرين في علم الاجتماع أو ممن يمارسون الدعوة إلى الله عز وجل، يقولون نحن بحاجة ماسة إلى أن نترجم القرءان، فالمجتمعات الغربية تطمح اليوم إلى معرفة القرءان، وهم لا يعرفون اللغة العربية ولا يتأتى لهم أن يعرفوها... نقول لهم لسنا نحن الذين اخترعنا

هذا الكلام في هذا العصر، فعلماء اللغة العربية منذ أن نزل القرءان إلى اليوم مجمعون على أن القرءان لا يترجم إلى لغة أخرى.

نقلت نص للعالم "ابن قتيبة"من كتابه " تأويل مشكل القرءان" يقول :" وبكل هذه المذاهب نزل القرءان، ولذلك لا يقدر أحدٌ من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية وكما ترجمت الثورات والزبور، وسائر كتب الله تعالى بالعربية، لأن العجم لم تتسع في المجاز كاتساع العرب، ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى :" وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ"إذا أردت أن تنقل هذه الآية بترجمة لن تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عين المعنى الذي أودعته ، حتى تبسط مجموعها وتصل مقطوعها، وتظهر مستورها، فتقول إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد، فخفت منهم خيانة ونقضا، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم، وأذنهم بالحرب، لتكون أنت وهم في العلم بما تقضي على استواء.وكذلك قوله تعالى :" فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا"إن أردت أن تنقله بلفظه لم يفهمه المنقول إليه فيقول تألمناهم سنين عددا" يعني استعمال الأعاجم أي كان للمجاز أضيق بكثير من استعمال العرب، فضلا عن القرءان.إذن هذا إمام جليل من أشهر علماء اللغة العربية يقول ترجمة القرءان غير ممكن.

ومن يقول أن الغرب بحاجة إلى هذه الترجمة نقول له أن سبيل التيسير لهؤلاء ليس محصورا في الترجمة التي لا يمكن أن تتحقق، لأنك بهذا تجعلهم يفهمون القرءان فهما مشوشا أو خاطئا، فالسبيل أن تفسر القرءان بلغاتهم.وهذا الذي يفيد أولئك الناس.

وهنالك أجانب قصدوا إلى أن يسيئوا إلى كتاب الله عز وجل، فزعموا أنهم يريدون أن ينقلوا القرءان من اللغة العربية إلى اللغة الأجنبية كي يتعرف أبناء جلدتهم على هذا الكتاب، وفعلا ترجموه، وعمليا ترجمتهم تلك تجعله ليس بكتاب الله، بل هو أضحوكة أمام أبصار هؤلاء الناس، لأن المعنى بقي في لغته العربية ، والذي نقل وهو معان وأخيلة أخرى لا علاقة لها بالقرءان أبدا.

وما نسميه ترجمة حيث لا نتهم أصحابه بسوء النية والقصد، هو في الواقع ليس ترجمة بل هو تفسير.

ثانيا: لا يجوز الخوض في الترجمة لأن هذا يسبب العبث بهذا الكتاب.

ثالثا: هي مسألة شرعية، لنفرض أنه أمكن أن يترجم القرءان ترجمة حرفية، هل يجوز لإنسان غير عربي أن يصلي فيقرأ الفاتحة مثلا مترجمة إلى لغته؟ لا يصح ذلك عند كل علماء الشريعة الإسلامية.ومن نقل عن أبي حنيفة بجواز ذلك، فإن أصحاب أبا حنيفة قالوا لا يصح ذلك.وفي ذلك إجماع.لأن المصلي مكلف بقراءة الفاتحة من كتاب الله عز وجل، والذي هو هذه الألفاظ التي أنزلها الله عز وجل عن طريق سيدنا جبريل إلى رسول الله ﷺ وهو اللفظ العربي.

ما هو واجب المسلمين في هذا العصر اتجاه هذا التوجه العارم من المجتمعات الغربية إلى معرفة القرءان؟ واجبنا أن لا نتراخى وأن لا نهمل الغربيون الذين يتوسلون إلينا أن نبصرهم بالقرءان.أن نحملهم على تعلم اللغة العربية هذا لا يتأتى.علينا أن نيسر لهم القرءان ونضعه بين أيديهم.فالسبيل إلى ذلك هو تفسير القرءان، على أن يكون ذاك التفسير جهد الاستطاعة على قدر القرءان .

إمرأة أجنبية اسمها الأصلي " إميلي براملت " وسمت نفسها بعد إسلامها " أم محمد" قامت بترجمة لتفسير القرءان وكانت ترجمتها جد دقيقة إلى حد بعيد.ولها كتاب رائع اسمه " آمنت بربكم فاسمعون"

(الدرس 39)

القسم الثاني: الجانب التطبيقي لمختلف الموضوعات التي درسناها

نعود إلى موضوعات القرءان بتحليل والدراسة من خلال نصوص القرءان، والقصد من ذلك أن نتبين ما يتعلق بخصائص أسلوبه، ما يتعلق بالتصوير الفني، وما يتعلق بدلائل الإعجاز وأنواعه...وهذا مطلوب بالنسبة لعلاقتنا بالقرءان كله، لا من خلال النصوص المنتقاة هنا.

النص الأول في الإلهيات

وهذا النص يتناول صفات الخالق عز وجل، ودلائل ربوبيته، ودلائل وحدانيته وغيرها

قال تعالى في سورة الرعد :" اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (11) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ

الثِّقَالَ(12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ(13) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14) "

1. هذا الكلام الذي يخاطبنا الله عز وجل به منبئا عن ذاته، يتضمن صفة من أخص وأجلَ صفات الربوبية في ذاته تعالى وهي علمه بكل شيء، وعن علاقة علمه بما في الأرحام بالأمور الأخرى، حيث قال تعالى الله يعلم وهو في المضارع، ليدل على الاستمرار، وقوله كل أنثى دليل على العموم، وأنثى جاءت نكرة تعني سواء من الحيوان أو الإنس وغيرها، والحمل من الأمور الخفية التي لا تراها العين ولا يدركها الحس، وقد زادنا بيانا وتأكيدا لهذه الحقيقة وتوضيحا بقوله " وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ "وما تغيض بمعنى وما تسقط الأرحام، وما يزداد الرحم قوة ومقوما من مقومات الغذاء، كل هذه يعلمها الله تعالى.وزادنا تأكيدا على علمه لكل شيء بقوله :" وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ"أي كل ما هو موجود.مثل ذرات التراب لا تزداد ولا تنقص فهي بمقدار، النباتات وأنواعها، قطرات الماء، حياة الإنسان... إذن علم الله يتناول كل ما هو موجود صغر أو كبر، حقُر أو عَظُم.وعلم الله بهذه كلها هو الكمال المطلق.ويقول تعالى :" وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ"

2. ثم قال تأكيدا لتلك الحقيقة " سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ"سواء أسررت القول أي لم تفه به وأخفيته بين جوانحك، أو من جهر به كلاهما سواء عند الله أي في علمه ،وذاك الذي أخفى نفسه ضمن ظلام الليل و السارب بالنهار كلاهما أيضا سواء عند الله تعالى.الآية الأولى في علم الله سمعا، والثانية في علمه رؤية.وكلمة سارب مأخوذة من سرب الماء أي سيره على أرض واضحة.هذه من أهم صفات الربوبية في ذات الله عز وجل، والذي يعيش مع هذه الصفة فعلا ، لا يمكن أن ينفصل ولو للحظة عن مراقبة الله عز وجل.

3. ثم يقول تعالى :" لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ " وله أي لله تعالى ملائكة معقبات، وهي جمع لجمع معقب، بمعنى أن لك ملائكة تلاحقك وتتابعك وتحرصك، أي تتعقبك تعقب حماية ورعاية، وحفظ ضد الآفات التي يريد الله عز وجل أن يحميك منها.وهذه

غير الملكين اللذان يكتبان أعمالك.وكثير من الناس مهتم ومتشبث بالأسباب العلمية التي يعيش في خضمها لا يكاد يصدق هذا الكلام، لأنه أسير للمرئيات والماديات، لكن لو تأمل الإنسان في ذاته لعلم أن الذي يحل لغزا عجيبا غريبا في حياته هو هذا الكلام الرباني.وحفظ الملائكة يتم بأمر من الله تعالى.وربنا الذي خلقنا في عالم الأسباب والمسببات يرينا مظاهر رحمته بنا.

(الدرس40)

4- ثم قال تعالى :" إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ " هذه سنة من سنن الله تعالى التي يأخذ الله تعالى بها عباده في القرءان الكريم.ومعنى الآية هو التالي: الإنسان له ظاهر يتبدى في سلوكه من حركاته سكناته علاقاته الاجتماعية، أعماله وشؤونه الدنيوية ومختلف علاقاته مع الآخرين، وللإنسان أيضا جانب أخر خفي يتجلى في نفسيته طبعه أخلاقه.. وهذا جانب خفي يطلع عليه الخالق سبحانه وتعالى.ترى هل توجد علاقة بين هذين الجانبين بحيث أن أحدهما له سلطة على الأخر؟ أم أن هذين الجانبين كل واحد منهما منفك عن الأخر؟ البيان الإلهي في هذا القانون يوضح لنا أن هنالك علاقة قوية دائمة بين ما هو ظاهر من سلوكات الإنسان وأعماله وعلاقاته، وبين ما خفي من طبائعه وأخلاقه، وما خفي من أموره مع الخالق سبحانه وتعالى أو مع الناس، والقيادة دائما للجانب الخفي.فالبارئ عز وجل ينظر إلى خلق هذا الإنسان، أي الطبيعة التي هي في داخل كيانه، فإن البارئ عز وجل يوفقه إلى النهج الذي يتلاءم مع هذا الجانب الخفي المستكن في كيانه.وهذا القانون ينطبق على المجتمع وعلى الفرد الواحد.فإذا كان أفراد المجتمع أو الفرد الواحد لهم أخلاق رضية متفقة مع ما يحبه الله سبحانه وتعالى، ومع ما قد أوصاهم به، وكانت قلوبهم خالية من الزغل، أي خالية من الأمراض الخفية من حسد وكبر وضغائن، ومن تعشق الدنيا، فإذا رأى الله عز وجل في طباع وأخلاق الناس أو الشخص الواحد هذه الأخلاق، فإنه تعالى يدفعه إلى ما ينسجم مع أخلاقه هذه، يدفعهم إلى السلوك المسعد، ويدفعهم إلى التوفيق، وإلى كل مقومات العز والسعادة في دنياهم، من رغد العيش والرزق والعافية... والعكس صحيح أيضا.

نلاحظ كيف أن العبارة محبوكة تعطي معنيين متناقضين، لا يغير ما بقوم من مظاهر الحضارة والسعادة، حتى يغيروا ما بأنفسهم، بعد ما كانت زكية نقية تسربت إليها الأمراض، وهكذا غير البارئ حياتهم الظاهرة من الأعلى إلى الأدنى كما تغيرت نفوسهم.والعكس أيضا لا يغير الله ما بقوم

من ضعف وذل وهوان وتفرق وشتات وفقر، لا يغيرها إلى النقيض، حتى يغيروا هم أيضا قبل ذلك ما في نفوسهم فيصعدوا بها إلى الأعلى.

عند قراءتك لكتاب الله عز وجل تجد أن الله عز وجل يدعو الفرد بشكل متكرر إلى التزكية أي تطهير نفوسنا الأمارة بسوء، ونسمو بها إلى الأخلاق السمحة الرضية السليمة.وباستجابتك لأمر الله تعالى، ألزم البارئ عز وجل ذاته العلية أن يجعل شأنك مرتفعا، ويكرمه بالسعادة والأمن والطمأنينة والرزق...

هذا الكلام الذي يخبرنا به الله عز وجل يضعنا أمام دلالات هامة جدا جدًا وهي

أول دلالة هي: أن الالتزام بأوامر الله والانضباط بشرائعه لا يتمان أبدا إلا إذا وجدت لذلك جذورٌ مستكنة في باطن النفس.حيث إن وجدت السلوكات الإسلامية الظاهرة من صلوات وزكاة وغيرها، ولكن نفوسنا الخفية بقيت على حالها من احتضان أمراض باطن الإثم، فإن هذا الوضع الظاهر لا يستمر، ولا يمكن أن يكون سببا لإسعاد هؤلاء الأفراد.وهكذا يتفرقون ويتناحرون ويفتح سبل الأعداء إليهم.وهكذا على المسلم أن يبدأ بتزكية نفسه.

الدلالة الثانية هي: إذا أردنا أن ننظر إلى التاريخ البعيد والقريب، نجد تطبيق دقيق لهذا القانون الإلهي، حيث نجد أن المجتمع الجاهلي لما فتح عينيه على الإسلام، كانت طباع متفسخة وأخلاق سيئة وو.. لما اتجهوا إلى الإسلام كانت الخطوة الأولى تأسيسية هي تطهير النفس.هؤلاء الذين قال منهم وهو حنضلة " نافق حنضلة.."

مثال 2: "عبد الرحمان الداخل"لما ذهب إلى أوروبا وثلة من أصحابه، بنفوس طاهرة كطهارة الثلج هدفهم نشر شريعة الله ،وتعريف الناس على دين الله تعالى، لهذا نصرهم الله تعالى بإقامة دولة إسلامية ضمن ظلام أوروبا.وسارت نحو القوة والاتساع طالما كانت نفوسهم بهذا الشكل.لكن خلف من بعدهم خلف حيث كثرة المال والترف تغيرت النفوس وغزتها الأمراض الخفية، وهكذا تغيرت حالهم إلى الأدنى وطارت الدولة الإسلامية وقضي على ملوك بني الأحمر وكانوا عبرة للمعتبرين.

(الدرس 41)

5ـ "وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ " أي عندما تطبق هذه السنة الربانية التي ألزم الله عز وجل بها ذاته العلية في حق عباده، مثلا عباد من عباد الله في إحدى

المجتمعات يتحولون من الاستقامة الداخلية، ومن الطهارة النفسية والقلبية، إلى نقيض ذلك، فإن الله عز وجل حسب القاعدة التي ذكرناها في الآية السابقة، فإن الله أيضا يغير النعمة التي كانوا يتمتعون بها ويستبدل بها النقيض ويبتليهم بسوء، وفي هذه الحالة عندما يحيق عليهم مقتضى هذا القانون الإلهي، لن يجد هؤلاء الناس أي ملاذ لهم غير الله سبحانه وتعالى، ولن ينجيهم أحد من هذا السوء الذي أراده الله سبحانه وتعالى لهم.وهذا تطبيق للقاعدة السابقة التي لها وجهان.إذن هذا المقطع من كلام الله عز وجل بيان لكيفية تطبيق البارئ عز وجل هذا القانون على عباده.

كذلك العكس إذا كان ذاك المجتمع يعاني من فساد في الطوية، من أمراض نفسية مختلفة، ثم إن أفراد هذا المجتمع طهروا أنفسهم من هذه الأمراض والأوبئة، واصطبغوا بتربية الربانية، فإن الله سبحانه وتعالى أيضا يذهب الابتلاءات التي كان البارئ يبتليهم بها، ويكرمهم بنعم والخير.

إذن لا جدوى من انتصار دول مهما اشتدت قوتها، ومهما اجتمعت من أن تنتشل مجتمعا من المجتمعات من سوء أراد الله أن يبتليهم به، نجد هذا في قوله تعالى :" أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ"

6. ندخل الآن إلى القسم الثاني من صفات الله عز وجل والذي يبرز قدرة الله سبحانه وتعالى، وجبروته وسلطانه الذي لا سلطان لأحد أمامه .والبارئ يقول :" هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ " لماذا هنا استبدل بكلمة الله الضمير هو؟ لو قال كلمة الله لانفصل هذا الكلام عن ما سبقه، سياق الكلام اقتضى عدم الفصل بين السابق واللاحق، أي ذلك الإله الذي يتصف بصفات التي علمناها، أنه يعلم السر وأخفى، والذي يعلم ما تغيض الأرحام.. وهو نفسه الذي يريكم البرق خوفا وطمعا.وهنا يلفت البارئ نظرنا إلى قدرته، حيث يضعنا أمام نماذج، حيث يتحدث هنا عن البرق والرعد والصواعق.كلمتا خوفا وطمعا علماء العربية يقولون أنها مفعول لأجله، وعندها هي على تقدير إرادة الخوف وإرادة الطمع ،أو على تقدير إخافة وتطميعا لكم.والحكمة من أن يرينا الله تعالى لوامع البرق لإخافتنا في بعض الأحيان ولإطماعنا أحيان أخرى، بل ليمتزج الخوف بالطمع.ثم قال أنه هو ينشئ السحاب الثقال، ولماذا قال الثقال وكلمة سحاب جاءت مفرد؟ بل كلمة سَحَاب اسم جمع، والذي أثقل السحب الماء الذي تحمله.ثم يقول " وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن

يَشَاءُ " من العلماء من قال أن الملائكة تسبح عند وجود الرعد، أو أن هذا الرعد يذكر الناس المؤمنين بالله سبحانه وتعالى بالتسبيح.لكن التفسير الدقيق الذي جنح إليه الجمهور، أن الرعد فعلا هو الذي يسبح، فالجملة على حقيقتها ليس بها مجاز، والدليل على هذا هما اثنان :

الأول: في الجملة التي تليها " والملائكة من خيفته" وتسبيحها غير تسبيح الرعد، والملائكة أيضا يدخلها هذا الصوت في مشاعر الخوف والرعب من جبروت الله سبحانه وتعالى، فلو قلت أن تسبيح الرعد يعني تسبيح الملائكة عند سماع الرعد، لكانت الجملتان بمعنى واحد، والجملة الثانية تكرير للأولى وهذا لا يليق بكتاب الله.

الثاني: نجده في قول الله تعالى في سورة الإسراء :" وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا"وهذا العموم في التعبير في قوله وإن من شيء ،أكيد دخل فيه الرعد، ولكن لا نفقه تسبيحها.

و ظاهرة الصواعق هي ذلك الجرم الذي ينفصل عن هذه الشرارة التي تنقدح عند البرق، وهذا الجرم متفاوت في وزنه وحجمه، ومنه ما هو كالسيف القاطع، ومنه ما هو ثقيل، ومنه ما يقطع بحده، ومنه ما يحطم بثقله.ويقول تعالى ويصيب بها من يشاء، ما حقيقة هذه الأشياء؟ علماء العصر يقولون :"أن السحب فيها طبقة عالية، وفيها طبقات أقرب إلى الدنو إلى الأرض، فالمرتفعة تحمل شحنة كهربائية موجبة، والطبقة المتدنية منها تحمل شحنة سالبة.في كثير من الأحيان تتقارب الطبقتين من السحاب حتى تتحدا، عندها تنقدح شرارة وضياؤها يسمى البرق، وتنشأ معها حرارة تتفاوت عندها شدتها ينبعث جرم فيقع، وهو الذي نسميه صاعقة.والرعد هو الصوت الذي ينبعث من السحاب عندما يتم التلاقي بين هاتين الشحنتين ". هذا الكلام نؤيده وليس هنالك ما يتنافى مع كتاب الله عز وجل .لكن ما هو كنه ما يسمى بالكهرباء اليوم؟ هذا الشيء لا نعلمه، ولا يعلمه الذين يتحدثون عنه.وجهالتنا هذه تقتضي إلى أن نستسلم إلى هذا الذي يقوله الله.وهو الذي جعل هذه الطاقة في كل شيء، وأي احتكاك بين جرمين يبرز وجود هذه الظاهرة، بدرجات متفاوتة.والإنسان أيضا من الأشياء التي استودع الله تعالى فيها هذا الأمر.

. هذه الظاهرة كيف نعرف أنها تخيف آنًا وتبشر آنًا؟ النتائج مرئية من الوقائع التي نسمعها دائما في حياتنا، وكثير من العلماء قالوا أن هذه الآيات نزلت تعليقا على واقعة.لكن هل الآيات نزلت

لمناسبتها أو نزلت هكذا مقطوعة عن تلك المناسبة؟ هناك خلاف في الأمر والله أعلم.لكن مما يضعنا أمام جبروت الله عز وجل وقدرته في هذا لذي يخاطبنا الله عز وجل به وقائع كثيرة جدا.

منها الواقعة التالية: "رجل اسمه"أربد"له شقيق اسمه"لبيد ابن ربيعة العامر"من نجد جاء أربد هذا، و"عامر ابن طفيل" وكان من ألد أعداء رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة قاصدين قتل رسول الله ﷺ ودخلا مجلسه، وكان عنده ثلة من الصحابة، فا "عامر ابن طفيل" لم يجلس وقف يقول لرسول الله ﷺ :" يا محمد ما لي إن أسلمت ؟" قال النبي ﷺ :"لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم " قال له "عامر " أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: لا، ليس ذلك إليَّ، إنما هو إلى الله عز وجل.قال :" أتجعلني على الوبر وأنت على المدر؟ (أي أنا على البادية وأنت على المدينة) قال: لا.قال :" فما تجعلني؟ قال: أجعل لك أعنة الخيل تقاتل عليها في سبيل الله.فقال له عامر :" أليست لي أعنة الخيل اليوم؟ قم يا محمد أُكلمك، يوجد بيني وبينك كلام خاص." فقام إليه رسول الله ﷺ، وانتحى معه زاوية من المسجد.وكان قد أشار إلى "أربد" أن إذا رأيتني وقفت أكلم محمد وشغلته بالكلام فدُر من خلفه وأخرج سيفك واقتله.وبدأ "عامر ابن طفيل يكلم رسول الله ﷺ والنبي يسمع له.فاستدار "أربد" وحاول أن يخرج السيف من جرابه فعض القراب نصل السيف ولم يستطع.طبعا الصحابة كشفوا الأمر في هذه الحالة، فخرج "أربد" و"عامر ابن طفيل" من المسجد والنبي ما فعل بهم شيئا، لكن دعا رسول الله ﷺ بدعاء.أما أربد فما خرج هو وصاحبه "عامر ابن طفيل" من المدينة وابتعدا عن البيوت حتى نزلت صاعقة لم تخطئه.، قتل رأسا وأصبح قطعة سوداء.وأما "عامر ابن طفيل" فوصل سيره ليعود إلى بلده، في الطريق فجأة وإذ بغدة قد ظهرت في جهة من جهات جسمه، وسرعان ما استفحلت وأورثته ألما في جسمه كله، وجد هنالك خباء لامرأة اضطر أن يدخل خباءها وأن يمرض عندها، فاضطجع واشتد به المرض وشم رائحة الموت فقال :" غدة كغدة البعير وموت في بيت امرأة سلولية " وهذه هي النهاية.

مهما عرفت عن الرعد والبرق والصاعقة فإنك لن تستطيع أن تنجي نفسك من غائلة هذا الذي يُلَوح به البارئ سبحانه وتعالى لنا، كمظهر من مظاهر جبروته وقدرته.كل كائن له أذات خاصة لتسبيح الله تعالى.

(الدرس 42)

7. ثم قال تعالى :"وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ" وهو ضمير راجع إلى الذات الإلهية وعبر عنها بكلمة الله، في قوله :"والله يعلم ما تحمل كل أنثى.."وقلنا أن البيان الإلهي آثر التعبير بالضمير هو، من أجل ربط كل هذا الكلام بالكلام السابق، أي ذلك الإله الذي يعلم ما تحمل كل أنثى ويعلم الخفايا والظواهر وهو ذاته الذي يريكم البرق خوفا وطمعا إلى آخر الآيات , وقال وهم هنا الواو في مصطلح اللغة العربية هي واو الحال، أي كل هذا الذي يريكم الله عز وجل إياه وحالة هؤلاء المستكبرين الجاحدين أنهم يظلون يجادلون في الله، إذن الجملة حالية، رغم ما يريهم من ظواهر لكن هم باقون على استكبارهم.وهم يجادلون في الله يعني في كل ما يتعلق به سبحانه وتعالى، يجادلون في وجوده ووحدانيته، وفي صدق ما قد أخبر به من وجود يوم القيامة والحساب والجزاء الذي ينتظر العباد.أي أن هذه الآيات من رعد وبرق وصواعق لا تغير من شؤونهم شيئا، وقصة المشركين اللذان أرادا قتل رسول الله خير مثال لذلك."وهو شديد المحال " جملة أيضا حالية، حيث الجملة الأولى حال المشركين المستكبرين، والجملة الثانية حال من الله سبحانه وتعالى.والمحال يعني القوة، والفرق بينهما أن القوة اسم للقدرة التي تمتع بها صاحبها لكل ما يشاء ، للحق وللباطل، لكن المحال هي تلك القوة التي تستعمل للبطش، وتستعمل للانتقام.والله تعالى شديد المحال إذا أخذ أخذَ أَخْذَ عزيز مقتدر.المستكبرون ليست مشكلتهم أنهم لا يرون الدلائل، لكنهم محجوبون عن التأثر بها بحجاب الاستكبار الذي ران على قلوبهم.وكلام الله مطلق وقوانينه سارية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

8. ثم يقول سبحانه وتعالى :" لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ " له أي لله دعوة الحق، أي الدعوة التي تستجاب بحق ومحصورة في ذات الله سبحانه وتعالى.ولن تجد استجابة من أي جهة يتجه إليها الداعي من دون الله عز وجل، لأن كل ما سوى الله مخلوق بقبضة الله.وهذه دعوة لمن يطرق أبواب غير باب الله سبحانه وتعالى، وهو المعنى الذي نبهنا إليه رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه الترمذي وغيره إذ يخاطب سيدنا "عبد الله ابن عباس" وكان غلاما، ومما قاله له :" إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف" وهذا معنى

قوله له دعوة الحق.وهذا لا يتعارض بأن تستنجد برسول الله على أن يقضي الله حاجتك، لأنك تطرق باب الله موسطا رسول الله ﷺ وهذا أمر لفت الله أنظارنا إليه ودعا إليه وذلك عندما قال :" وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا " أي أعلنوا توبتهم بين يدي رسول الله.والبارئ أراد بهذا تكريما لنبيه محمد ﷺ، وأراد أن يرينا شدة محبته لرسوله ﷺ، وكيف أن الله عز وجل يدخل كثيرا من التائهين والعصاة في شفاعة محمد ﷺ وكل هذا لشدة حب الله لرسوله وتميزه على سائر الأنبياء في ذلك.وهذا منتهى التوحيد لأن توجهك لرسول الله إنما هو لله الذي أحب رسوله.

وقال أن الذين يدعون من دونه، حيث تجدهم يدعون الأصنام والأشخاص، والمؤلهين من غير الله سبحانه وتعالى من أصحاب الديانات الأخرى، وهؤلاء كلهم لا يستجيبون لهم بشيء، وهم كباسط كفيه إلى ماء وبينه وبين الماء مسافة شاسعة ليأتيه إلى كفه ولا يأتيه، وهذا استثناء شكلي يرينا البارئ من خلاله أن هذا لا يتأتى.

ـ هذا النص يرسخ في نفوسنا معاني ومظاهر ألوهية الله سبحانه وتعالى ووحدانيته بالنسبة لهذه الصفات التي يذكرها الله سبحانه وتعالى.ويصب في مظهر جلال الربوبية في كتاب الله تعالى.

بقي أن نتساءل إذا قرأت هذه الآيات في خلواتك هل تهيمن عظمة هذه الآيات على كيانك، وهل تأخذ معاني هذه الآيات بلبك وبمجامع نفسك؟ وإذا كان هذا يتم، فهو دليل على أن البارئ سبحانه وتعالى يتجلى على قلبك تجلي رحمة وهي بشرى كبيرة جدا جدًا.ولكن القارئ لهذه الآيات بسرعة وكأنه يحسب على الله ما قرأه، دون أن يلتفت إلى هذه المعاني، فنقول له أن القرءان لم يتنزل لأجل هذا:" أفلا يتدبرون القرءان أم على القلوب أقفالها "

(الدرس 43)

النص الثاني في الوصف

من سورة غافر بدء من قوله عز وجل :

" إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (11) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(16) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20) " كما نلاحظ أن هذه الآيات وصف لحال الكافرين يوم القيامة، ثم هي وصف لبعض حوادث يوم القيامة التي ينبئنا عنها بيان الله سبحانه وتعالى.

1ـ يقول تعالى :" إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ " الحديث في الآيات عن الكافرين الجاحدين المستكبرين على الله، والآيات التي قبلها يتحدث فيها البيان الإلهي عن المؤمنين في قوله تعالى :" الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ.." وهنالك قاعدة كما قلنا في القرءان الكريم أنه تعالى كلما تحدث عن الصالحين وما وعدهم الله عز وجل به من نعيم ورضوان، لابد أن يتحدث عن الفريق الأخر من الجاحدين، إما من قبل أو من بعد.والحكمة من ذلك أن يكون الإنسان دائما وهو يتلو كتاب الله عز وجل بين حالتي الرجاء والخوف.

يقول لنا البارئ أن الكافرين ينادون أكيد من الله تعالى، وربما من طرف الملائكة، وهذا يوم القيامة بأن مقت الله أكبر من مقتهم أنفسهم، حيث أن الكافر يوم القيامة يمقت نفسه مقتا شديدا ويرى أن نفسه هي التي ظلمته وأوردته المهالك، أي نفسه الأمارة بسوء هي التي حجبته عن الحق وصدته عن الإصغاء إلى الدعوة إلى الحق، بسبب نفوسهم التي حشيت بالأهواء و الرغائب والرعونات ونحو ذلك.ويبلغهم الله تعالى هذا النداء بأن مقته تعالى أشد من مقتهم أنفسهم، لأنكم أنتم الذين استجبتم لنفوسكم، دعيتم إلى الحق فأعرضتم عنه، وكان بإمكانكم أن لا تصغوا إليها.والرسل والأنبياء حذروكم من زغل نفوسكم وشهواتكم التائهة...

لماذا يا ربي مقت الله أشد من مقتهم لأنفسهم؟ يأتي الجواب بقوله تعالى :" إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ " إذ لتعليل، أي أنكم كنتم تدعون إلى الإيمان عن طريق الرسل والأنبياء وورثتهم،

وعن طريق آيات الله الكثيرة المنشورة والمنثورة في ملكوت الله عز وجل ومع ذلك كنتم تكفرون لهذا كان مقت الله سبحانه أشد.

2 . ثم كان جواب الجاحدين في قوله تعالى :"قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ " لنرى كيف أن هذا النص مغموس بتذلل، حيث تحول الاستكبار العاتي والطغيان المتجبر في دار الدنيا، إلى أبلغ صورة من صور الذل والمهانة، والبيان الإلهي يصور ذلك.حيث الآن قالوا ربنا أمتنا اثنتين أما أولاهما كان العدم الذي كان قبل أن يولدوا، وأما الأخرى كان الموت الذي بعد حياتهم التي عاشوها، وأحييتنا اثنتين، أما الحياة الأولى فهي تلك التي قضوها في دار الدنيا، وأما الحياة الثانية فهي تلك التي حشروا إليها اليوم.قد يقول قائل أما الموت الثاني فهو موت فعلا لكن الشيء الذي كان قبل ولادتهم فهو عدم.نعم هو عدم فعلي، لكن لما كان المعْدِمُ هو الله سبحانه وتعالى فنزل ذلك العدم منزلة الموت.والعلماء يشبهون هذا بقول العرب :" سبحان من صغر البعوض وعظم الفيل أو البعير " وكأن البعوض كان كبير فصغره والحقيقة خلق صغير.

هذا تمهيد بين يدي السؤال الأتي: ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين، أنت ربنا مؤمنين بك وأنت أوجدتنا المرة الأولى والثانية.. فاعترفنا بذنوبنا، ومعترفون أننا أسأنا وأننا حمّلنا أوزار أنفسنا، فقالوا :" فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ " كلمة خروج جاءت نكرة وكذلك سبيل نكرة، ليظهر لنا البيان الإلهي مدى تذلل هؤلاء الناس، بمعنى أي خروج وأي عودة المهم التخلص من المحنة التي هم فيها، وبأي طريقة.هذا لمن ذاق الشقاء وأحرقته مشاعر الندامة التي فات أوانها.

3 . الغريب أنه لم يكن الجواب على سؤالهم وإنما جاء الكلام التالي :" ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ " هنا يصور لنا البيان الإلهي استحالة هذا الشيء الذي تصوروه، ولكي يبرز لنا البيان الإلهي استحالة هذا الأمر يوضح لنا أنه أمر لا يحتاج إلى جواب.وهو غير قابل لسؤال وجواب.ونجد هذا في مكان أخر أيضا في قوله تعالى :" وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ " صورة أخرى لذل الذي يرسمه البارئ للجاحدين.كذلك لا يأتي الجواب لأن المسألة تتسامى وتتعالى إلى الإصغاء إلى هذا الكلام، وهنا يأتي الجواب :" وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ " والجواب تما في دار الدنيا، وهي هذه الآيات.لهذا فيما سبق كان قوله تعالى ذلكم أي ذاك القرار الإلهي المتمثل في مقت الله لهم، وفي

إعراضه عن تذللهم ورجائهم، لأنه كان إذا دعي الله كفرتم، وإن يشرك به تؤمنوا.هنا الفرق بين إذا وبين إن؟ إذا تدل على الاستمرار، وإن تدل على حالة مصادفة.حيث تقول إذا طلعت الشمس، وتقول مثلا إن خسفت هذه الأرض.فاستعمل البيان الإلهي في حالات الدعوة إذا، لبيان أن الدعوة كانت دائمة تلاحقه، وأنها كانت مستمرة في حياته.وقال وإن يشرك به أي إذا لاح على سبيل المصادفة حالة شرك أمامكم رأسا تركضون إليها وتعانقونها بدون دعوة.لذا فالحكم لله العلي الكبير، لا مفر ولا مخرج.وذكر البارئ هذا في أكثر من موضع، في قوله تعالى :" قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ " كان الجواب للبارئ بيان لسبب تَعَالِي الله تعالى إلى الإصغاء إلى رجائهم، فضلا إلى أن يجيبهم إلى ما يطلبون.

4 ـ ثم يقول البارئ "هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" البارئ كان يصور لنا فئة من الناس يوم القيامة وكأننا نراهم ماذا قالوا وماذا كان الجواب، فجأة يطوي البيان الإلهي هذه الصورة، ويلتفت إلينا ونحن متأثرين بتلك الصورة فنلتفت يمينا وشمالا فنرى أن الفرصة لا تزال موجودة ونملك ناصية الموقف، هنا البارئ يخاطبنا وينبهنا.فيقول هو أي هذا الإله الذي يخاطب الجاحدين غدا، هو نفسه "الذي يريكم آياته و ينزل لكم من السماء رزقا " وآياته هي دلائل وحدانيته، ودلائل وجوده وصدق وعده ووعيده، ودلائل صدق رسله وأنبيائه، وهي آيات لا تنقطع فسلسلتها باقية إلى يوم القيامة.وهذه صفة تجعل الإنسان يخضع لسلطان الله ويؤمن بألوهيته من خلال هذه الآيات المبثوثة في الكون.وقوله " وينزل لكم من السماء رزقا " هي صفة تلفتنا إلى عظيم رحمته ولطفه بالإنسان.فالصفة الأولى تملأ قلوبنا رهبة لله سبحانه وتعالى، والثانية تملأ قلوبنا حبا لله عز وجل، والذي ينزل من السماء هو سبب الرزق وهذا يسمى بالمجاز.ومع ذلك لن يتذكر على الرغم من ظهور هذه الآيات، وعلى الرغم من وجود ألطاف الله ورحماته إلا من كان له استعداد إلى أن يثوب ويرجع إلى الله، وهو الذي لا يستكبر، والإنابة معناها أن يكون الإنسان سالكا طريق الضلال بسبب جهله، فإذا هدي عاد ورجع إلى الله لأنه متحرر من أسر كبريائه.

ـ ثم يقول سبحانه :" فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" لازال الحديث إلينا في دار الدنيا ،وقال لنا فادعوا الله مخلصين لكي يبين لنا أنه يجب أن نمارس عبوديتنا لله في دار الدنيا،

فآيات الله ورزقه لنا يذكرنا بضعفنا، وعلينا أن ندعو الله مخلصين والفرصة سانحة ونحن في دار الدنيا، متدللين متضرعين، وهذا هو الطريق الذي نسلكه إلى الله تعالى.

(الدرس 44)

الهداية تكون بتوفيق الله تعالى والسبيل إلى ذلك أن ندعو الله مخلصين له، وقد أمرنا كي نلتجئ إليه ونجأر إليه بالدعاء والرجاء وعندئذ يعيننا الله سبحانه وتعالى.وهذا هو معنى الكلمة القدسية لا حول ولا قوة إلا بالله، ومعنى قول رسول الله :"استعن بالله ولا تعجز " ولما قال تعالى :" مخلصين له الدين " فهذا قيد لدعاء، أي عليك أثناء الدعاء أن تدع أي شائبة شرك تتسرب إلى عقلك أو شعورك، أي ينبغي أن لا ترى للأسباب وجودا، ولا للأشخاص قيمة، بمعنى أنهم لن يفيدوك بشيء، ولن يضروك بشيء، والفاعلية كلها لله تعالى.وهو واحد في ذاته وصفاته وأفعاله.

ـ ثم قال :" ولو كره الكافرون " في عصر رسول الله ﷺ لما كان المسلمين يتكاثرون، والشرك يتقلص، كانت العداوة تغلي بين جوانح المشركين، وكانت البغضاء تهيمن على نفوسهم من المسلمين، ومعظم الحروب التي كانت بينهم من جراء هذا الأمر.وقال البارئ عن ما قاله الوفد الذي جاء من حبشة وأعلنوا إسلامهم لرسول الله ﷺ للمشركين الذين سبوهم:" وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ " هذا هو معنى قوله :" ولو كره الكافرون " وهذا ينبئ عن حقيقة يجهلها بعض الناس وهي أن: المصطفى ﷺ لما نشر الإسلام، نشر دين الله بيد ونشر السلم باليد الأخرى، وحديث أعضاء هذا الوفد تجسيد لهذه الحقيقة، ولكن المشركين ضاقت صدورهم بهذا الأمر فكانوا يخططون لقتال رسول الله وقتال أصحابه.ولنكن مثل أعضاء ذلك الوفد وما قالوه للمشركين.

5 ـ ثم قال تعالى :" رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ" هذه الجمل الثلاث خبر لمبتدأ محذوف، رفيع الدرجات خبر لمبتدأ مقدر تقديره هو، أي هذا الإله الذي ذكر البيان الإلهي بعضا من صفاته هو رفيع الدرجات وهو ذو العرش وهو يلقي الروح من أمره.وجل العلماء الذين فسروا معنى قوله "رفيع الدرجات " أي عالي الصفات أي لا يشركه فيها أحدٌ أبدًا، وقوله " ذو العرش " وقد نسب هنا العرش إلى ذاته العلية أي هو مالك

العرش وخالقه والمسيطر عليه، و استوى على العرش الذي هو أكبر مخلوق.ونقول كما قال الصحابة رضوان الله عليهم :"الاستواء معلوم لغة والكيف غير معقول والسؤال عنه بدعة"

وقوله تعالى :" رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ " الروح هو سيدنا جبريل عليه السلام أي الملك الموكل بإبلاغ الرسل والأنبياء الرسالة التي ينبغي أن يحملوها إلى عباد الله في الأرض.ربما يخيل إليك أن النبوة شيء كسبي تتعلمه، لكن قوله تعالى يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده نفى هذا التصور نفيا قاطعا، ويقول الله لنبينا محمد ﷺ"مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ "

ويختار الله تعالى من يشاء من عباده ليكونوا رسلا إلى الناس.والحكمة في قوله تعالى :" لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ "وفي كلمة لينذر فإن المفعول غائب وهو فعل متعدي، وهنا لينذر كل الناس عن يوم القيامة.

(الدرس 45)

ومعنى الآية " لينذر يوم التلاق " أي ذلك اليوم وما يجري فيه ينذرهم، ووجه الإنذار لناس جميعا، وتساءلنا لماذا؟ رغم أن في الناس المقربين والرسل والأنبياء والصالحون؟ والجواب أن أي من الناس لا يتأتى له أن يؤدي حقوق الربوبية لله عز وجل، ومنه فالناس كلهم مقصرون في جنب الله تعالى.لهذا كان النبي ﷺ يمعن في العبادة وقيام الليل حتى تتورم قدماه،وهو الذي قال:" لن يدخل أحدكم الجنة عمله"قالوا:" ولا أنت يا رسول الله؟ " قال :" ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ".وكما قلنا أن يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة.وسمي كذلك لأنه فعلا يوم اللقاء، وجاءت الكلمة عامة لكل ما يخطر بالبال من أنواع التلاق، كالتقاء الأرواح بأجسادها، وتلاق الأجيال المتصرمة كلها تجتمع على صعيد واحد، أيضا تلاق الإنسان مع عمله إن صالحا أو سيئا.

6 ـ ثم قال البارئ عز وجل:" يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ"

يوم هم بارزون هذا بدل عن يوم التلاق، وهو وصف آخر من أوصاف يوم القيامة، وهنا يوم مضاف وهم بارزون مضاف إليه، وبارزون بمعنى ظاهرون، والأرض يومئذ منبسطة ومستوية استواء تامًا، كما قال الله عز وجل :" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا "لهذا فإن الناس الذين يحشرون يكونون بارزون.ويقول تعالى :" لَا يَخْفَىٰ

عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ "لا يخفى على الله منهم ظاهر ولا يخفى منهم باطن.علماء التفسير هنا أوردوا إشكالا قد يخطر في البال، قالوا: رب العالمين يرى عباده إن كانوا بارزين أو غير بارزين، وهو يعلم السر وأخفى، فلماذا قيد ذلك في يوم القيامة، حيث جاءت العبارة وكأنها توحي على أن بروزهم لله عز وجل بحيث لا يخفى منهم شيء في يوم القيامة؟ الجواب عن هذا كما قال العلماء، أن الجاحدون والغافلون كانوا في دار الدنيا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى لا يرى ولا يطلع عليهم كما قال عنهم البارئ في سورة النساء :" يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا" هذا هو شأن الإنسان المغفل.ويوم القيامة ظهرت لهم الحقيقة وأن الله لا يخفى عليه شيء، إذن الكلام هنا للجاحدين حيث أن ذلك التصور الأرعن يذهب وأن الله يرى ظاهرهم كما يرى باطنهم.ويقول تعالى بعد ذلك :" لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ " البيان الإلهي وهو يصور لنا يوم القيامة لم يذكر كلمة القول، أي الرواية قال وقيل، حيث يُقال لمن الملك اليوم، يأتي الجواب لله الواحد القهار.وحذف القول كي يضعنا أمام تصور تمثيلي حيث نسمع نداء من هنا، فإذا بنا نسمع جوابًا من هناك.

أي على ذلك الصعيد كما يروي ابن مسعود: يحشر الناس على أرض بيضاء، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، ويحشر الناس جميعا كما وصف الله تعالى حفاة عراة غرلا أدلاء.في ذلك الموقف فإن الوضع والجو ينطق لمن الملك اليوم؟ والجواب واضح لله الواحد القهار.وكلمة اليوم كأنه يعطينا دلالة لمفهوم مخالف، وكأن قبل اليوم لم يكن الملك لله، لا هذا المعنى غير مراد نهائيا، إذن لماذا جاء هذا القيد بكلمة اليوم؟ الجواب أنه في دار الدنيا كثيرون هم الذين يتصورون أن هذه الدنيا إنما هي خاضعة لسلطان الناس الذين يستطيعون أن يستخدموها ويستغلوها، ويستثمروها لمصالحهم، وغاب عن دهنهم مالكية البارئ سبحانه وتعالى.وكلمة الحرية التي تردد في كثير من الألسن وتطرق أسماعنا إن هي إلا تعبير عن هذا المعنى.وكأنهم يملكون قراراتهم ودواتهم، ولا يمكن لأحد أن يتدخل في شؤونه.وكثيرون هم اليوم يقولون كما قال قارون.

هذا الإنسان لما يحشر ويرى أنه قد خلق خلقا أخر، ويرى نواميس جديدة ظهرت، عندئذ المنطق والأسلوب البلاغي يقتضي أن يأتي من يسأله فيقول له: ماذا ترى اليوم؟ ومن المالك اليوم يا هذا ؟؟؟ من هنا جاءت كلمة اليوم، وهي قيد للحالة الجديدة التي وقع فيها هؤلاء الناس.وهذا

تصوير لا يتأتى إلا لخالق الإنسان والكون وهو من مظاهر جلال الربوبية في القرءان الكريم ومن أبرز مظاهر إعجاز القرءان.

7 ـ ثم يقول سبحانه وتعالى :" الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ " لا يزال الكلام وصف، لنتأمل هنا كيف الله يحكي عن ذلك اليوم وهو ما زال لم يأتي؟ الجواب أن هذا تصوير لمشهد يوم القيامة، وكأنك ترى هذا المشهد اليوم، وهذه من أساليب القرءان في الوصف، حيث يضع أمامك حوار دون ذكر لرواية من قال وقيل.والمراد باتجزى كل نفس هم المكلفون، وبما كسبت سواء كان خير أو شر.لماذا قال كسبت ولم يقل عملت؟ قلنا أن كلمة الكسب التي هي مناط الثواب والعقاب في القرءان تعني العزم والقصد والنية الباعثة للعمل.أي وهبك الله اتخاذ القرار ثم يخلق فيك العمل الذي يحركك لتنفيذ ذاك القرار.ثم يقول البارئ :" لا ظلم اليوم " وهل كان من قبل ظلم؟ لا ما عدى الله.والجواب في الدرس القادم.

(الدرس46)

كلمة القهار في قوله تعالى :" لله الواحد القهار " وهي اسم من أسماء الله الحسنى، وهي صيغة مبالغة من القهر، بمعنى التغلب على الشيء أو كائن ما أيًا كان، واسم الله القهار يعني الإله المذل بقهره وبطشه وسلطانه للجبابرة بإماتتهم و إذلالهم، وبإخضاعهم لسلطانه ولمحكمته يوم القيامة، وزجهم في العقاب الذي ادخره لهم وتوعدهم به.

لكن نتساءل هل اسم الله القهار خاص فقط بالجبابرة؟ لا، بل قهر الله سبحانه وتعالى المأخوذ والمستخلص من اسمه هذا القهار شامل لكل شيء.ولا يعني هذا الاسم العام للبطش والتعذيب، وإنما يعني سلطانه المهيمن على كل شيء، فهو يغني ويفقر بقهره، ويبتلي ويكرم بقهره... ولا دخل لأحد في هذا كله قط.

والمناسبة التي اقتضت أن يصف البارئ نفسه هنا بالقهر، لأن الموقف الذي يصوره بيان الله عز وجل إنما يتناسب مع هذا الاسم، لأن المالك هو الله سبحانه وتعالى لا شريك له.والقهر ترجمة ملكوته وملكه وهيمنته.

ـ لنتابع ما قد بدأناه في شرح الآية :" الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ " والجواب عن قوله لا ظلم اليوم أن تقيد رفع الظلم عن الله عز وجل بذلك اليوم لتبكيت و تأنيب للجاحدين والمستكبرين والكافرين في دار الدنيا، عندما كان يقول أحدهم

أين هي عدالة الله في هذه الدنيا؟ وها نحن نجد كثير من الناس يعانون من أمراض ومصائب دون ذنب اقترفوه، ودون أي سبب تعرضوا له، في حين أننا نجد بالمقابل أناسٌ يتمتعون بالغنى الوافر وبالعافية والرفاهية ورغد العيش دون أن يقدموا لله ما يستحقون به شيئا من ذلك، أين هي عدالة الله سبحانه وتعالى في طفل يولد مثلا مشوه، أو في إنسان يعيش حياته فاقد البصر أو السمع؟ وأين عدالة الله في تسلط الكافرين على المؤمنين والأوضاع الاجتماعية التي نراها؟ كم وكم كان هؤلاء الجاحدين يطرحون هذه الأسئلة على أسماع المؤمنين، ليشكِّكُوهم وليحرجوهم , ولكي يدعموا عقائدهم الباطلة، وإنكارهم لوجود الله سبحانه وتعالى.فالبارئ عز وجل عندما يريهم في ذلك اليوم مظاهر عدله، والحساب الدقيق الذي يعرض الناس جميعا له، وعندما يعرض كل واحد لما قد اقترفه أو اكتسبه في دار الدنيا.قول لهؤلاء:هل أخذتم جواب سؤالكم؟ الآن عرفتم أن الله لم يكن غائبا ولا جاهلا لظلم الظالمين في دار الدنيا، والآن الله تعالى سينصف المظلومين وسيضرب على أيدي الظالمين.وها هي العدالة التي كنتم تبحثون عنها بالأمس.

ـ قد نحتاج إلى توضيح أكثر عن السؤال الذي يتكرر كثيرا وهو أين عدالة الله؟ وهذا الذي جعل الدكتور يؤلف كتابا أسماه " الإنسان وعدالة الله في الأرض "وفيه إجابة عن كل ما يطوف بدهن الفاسقين والملحدين والمستكبرين على الله عز وجل، ولعله سد هذه الثغرة.إلا بالنسبة للمستكبر فمهما سمع من أجوبة سيظل يبث هذه اللوثة بين الناس، من أجل أن يجعل منها شَرَكا يتصيد بها عقائد عباد الله المسلمين.وتعالوا لأضعكم أمام جواب مختصر لهذا السؤال :" دار الدنيا هي دار ابتلاء، وهذه الدار من شأنها أن تبرز هويات الناس بالنسبة لمولاهم وخالقهم عز وجل، وبتالي تفصلهم إلى قسمين، قسم سكر برعونته وأهوائه وشهواته التي تهيمن عليه فحجب عن الله ومن تما حجب عن ذاته من هو، وتعامل مع هذه الدار وكأنه في يوم لا غدا له، وفئة أخرى هذا الابتلاء وضعهم أمام هوياتهم عبيدا مملوكين لله سبحانه وتعالى، ومن تما يمارسون هذه العبودية وهذا بطريقتين وهما: الصبر عند المصائب وشكر عند النعم، والذي المراد منه استخدام النعم التي أسداها الله عز وجل إليَّ للوظيفة التي خلقت لأجلها وفيما يرضي الله سبحانه وتعالى.إذن بالابتلاء يأتي الصبر وبالنعم يأتي الشكر.وكل إنسان له نصيب من هذا وذاك.والابتلاءات متنوعة وكل تأتيه على حسب وضعه وليس شرط أن تراها عيناك.ومحكمة رب العالمين تعقد يوم القيامة، وهذه الدار هي دار ابتلاء ."

ـ ثم يقول تعالى :" إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ " لا ظلم اليوم لأن هناك حساب، ولا ينجوا أحدا من الحساب أبدا، إلا عندما يشاء الله سبحانه وتعالى لمن وعدهم من عباده بأن لا يحاسبوا، ونجد هذا في قوله تعالى :" إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ " وسبحانه وتعالى الذي لا يشغله شأن عن شأن وهو سريع الحساب لتلك الأعداد الهائلة من البشر وقد اجتمعت على صعيد واحد.نعم قد وردت أحاديث من أن الحساب طويل :" من نوقش الحساب عذب " نعم حيث من شاء أن يحاسبه البارئ حسابا عسيرا، تراءى حسابه أن له أمدا طويلا جدا جدًا لا ينتهي منه، لهذا يود لو انتهى من هذا الحساب ولو إلى النار، وهذا لمن شاء الله له ذلك.والأصل أنه سريع الحساب أي لا يشغله حساب عبد عن حساب عبد أخر.وأسلوب حسابه يختلف هناك من يحاسبه باللين وأخر بشدة، وأخر بعتاب بسيط.وورد في الصحيح أن البارئ يدني عبد من عباده فيسدل إليه ستره ويقول أتذكر المعصية التي ارتكبتها يوم كذا؟ فقال: نعم يا ربي.. ويذكره بمعاصيه.فيقول لقد سترتها عن الناس في الدنيا وها أنا أغفرها لك اليوم " لكن من هم ؟؟؟ لا ندري.

(الدرس 47)

8 ـ ويقول سبحانه وتعالى تتمة لنص :" وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ " هنا الخطاب اتجه إلى سيدنا رسول الله ﷺ، وكأن هذا الأمر نتيجة لقرار الله عز وجل السابق، في قوله تعالى :" يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ " ويقول له وأنذرهم أي الناس الذين قد أرسلت إليهم، حيث أرسل إلى الناس جميعا.وسمى يوم القيامة هنا بالآزفة وهو اسم فاعل من أزف يزف بمعنى قرُب ودنى، ومعنى الآية أنذرهم ذلك اليوم القريب.وهذا خلاف ما نظن فإنه يوم قريب جدا منا كما قال البارئ عز وجل :" إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا "والزمن وهْمٌ ولا وجود له، ومن الحقائق المعروفة لكن ينساها الإنسان أن الزمن قبل أن يفد إليك وتدخل فيه بأعمالك وشؤونك تراه شيء طويل، ولكن إذا دخلت في غمار هذا الزمن ومارسته ومشيت فيه، تنظر إلى هذا الذي مضى وكأنه لا شيء.

معنى ثان لكلمة الآزفة هو ما تبث من أن بعثة المصطفى ﷺ إنما كانت علامة من علامات الساعة، وإذا قارنا بين الزمن الذي مضى منذ أن أبدع الله وفطر هذه الخلائق إلى بعثة النبي ﷺ مع الزمن المتبقي ليوم القيامة من بعد بعثة النبي ﷺ، تجد نفسك إلى ما قد وصفه رسول الله ﷺ عندما قال " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار إلى الفرق بين إصبعي السبابة والوسطى.والمسألة

نسبية.وكل الأحداث التي كانت بعد بعثة النبي ﷺ تدخل في أشراط الساعة.يوم الآزفة يسميه علماء اللغة إضافة البيان، بمعنى المضاف والمضاف إليه نفسه، ثم وصف هذا اليوم بقوله تعالى :"إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ " كناية عن الخوف والهلع اللذين يستبدان بنفوس وأفئدة الناس، حيث القلوب ترتفع عن مقارها وتلتصق بالغلاصم فلا هي تخرج ليموتوا ويستريحوا، ولا هي تستقر في أماكنها ليتنفسوا ويمارسوا الشهيق والزفير بالطبيعة.والكلام هنا عام يشمل الكل، فلا يقلن قائل أنني منجي من هذا لأنني ولله الحمد أؤذي واجباتي وأبتعد عن ما حرم الله عز وجل... من قال لك؟ نعم هنالك أناس الله تعالى يستثنيهم من هذا العموم لكن من ذا الذي يعرف أنه من هؤلاء الذين استثنوا؟ حتى الذين بشروا بالجنة كان الخوف يهيمن على أفئدتهم.وهذا رب وإذا غضب يفعل ما يشاء، ولا ضمانة تأخذها من الله عز وجل ثم يطمئن بالا.وهما خوفان من خاف الله عز وجل في دار الدنيا آمن من خوفه إن شاء الله يوم القيامة، ومن آمن عذاب الله في دار الدنيا لابد أن يخافه يوم القيامة.ثم قال البارئ :" كَاظِمِينَ"والكظم هو إخفاء ما يستقر في داخل النفس من غيظ وخوف وآلم وأوجاع...هي حالة نفسية لا يستطيع أحدهم التعبير عنها وهي مخفية داخل النفس هذا هو الكظم.وكاظمين حال من أصحاب القلوب، وهم لم يذكروا لكنه مقدر.ويقول كثير من العلماء أنها حال من القلوب نفسها، عندها كان قد قال كاظمة.إذن لما كانت القلوب منسوبة إلى أصحابها وهم من ذوي العقل، جاء التعبير أيضا بهذا الشكل كاظمين.نتساءل هل من شفيع؟ هل من ناصر لهم؟ بعدها يجيب المولى قائلا :" مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ " لنتأمل دقة البيان الإلهي حيث لما جاء الشفيع لم يعمم بل قال :" ما لظالمين " في الأول عمم والخوف مستبد بالجميع.وبعدها افترق الناس، حيث أن قسم كبير منهم لهم شفعاء، والله أعلم من هم، وقسم أخر لا شفاعة لهم وهم الظالمين.والحميم هو الصديق المشفق والمخلص، وهؤلاء الظالمين لن يجدوا يومها صديق حميم وكم كان لهم في دار الدنيا من أصدقاء ومحبين مشفقين عليهم.لكن حاق بهم قرار الله القائل :" الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين " كل الأخلاء أعداء لبعضهم إلا تلك الأخوة التي تربط بين أصحابها في الله.وهذه تجنى ثمراتها يوم القيامة.علماء التفسير قالوا عن قوله تعالى: وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ " أن المنفي هو الموصوف والوصف معا، والموصوف هو شفيع والوصف يطاع أي لا الشفيع موجود ولا شفيع يطاع موجود.أي العبرة أن يقبل الله شفاعة هؤلاء الشافعين.هنا نتساءل من هؤلاء الظالمين ومن هو المظلوم في حياتهم؟ نجد غالبا أن البارئ عز وجل

يعبر عن العاصين الذين باؤوا بغضب الله تعالى بكلمة الظالمين.والظلم معروف وهو انتهاك حق الغير بدون إذنه، وكل من ركب رأسه في العتو والاستكبار وذُكر فلم يتذكر، ونبه إلى هويته عبدا لله عز وجل فلم يهتم واستخف بما قد ذكر به هذا هو الظالم لنفسه، وهؤلاء يقول عنهم البارئ "خسروا أنفسهم" وكأنه حكم على نفسه بالهلاك باختياره وطوع إرادته.من خلال قوله تعالى :" مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ " فتح البارئ هنا نافذة بشارة ورحمة وهي: أما من لم يكونوا من هؤلاء الظالمين، وهم الذين لما ذكروا تذكروا، وعندما نبهوا تنبهوا، ولما أمروا استجابوا، وعندما نهوا أقلعوا عن ما نهوا عنه، وإذا تغلبت عليهم نفوسهم ووقعوا في بعض المحذورات سرعان ما تقوده مشاعر عبوديته إلى التوبة والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى.فهؤلاء الناس لا يدخلون في هذا الذي أنذرهم الله عز وجل منه، بل ربما يجدون شافعا لهم، مثلا صالح من الأسرة وْرِدَ أن يشفع في أهله وأولاده، الرجل الصالح في الحي وْرِدَ أنه يشفع في أهل حيه .البارئ عز وجل كما جعل عباده في دار الدنيا يثاب بعضهم ببعض، أيضا يوم القيامة يأذن ويرضى بأن يشفع بعض العباد للبعض.والحقيقة أن منبع الشفاعة والرحمة يأتيان من عند الله عز وجل.حتى رسول الله صاحب الشفاعة الكبرى والتي أكرم الله بها حبيبه محمد ﷺ إنما هي إعلان عن مدى محبة الله لرسوله ومدى إكرامه له والذي ميز به حبيبنا محمد ﷺ عن سائر الرسل والأنبياء، وهي رحمة آتية من عند الله سبحانه وتعالى.

9 ـ ثم إنه يصف هذا اليوم بشيء مثير ومخيف في قوله تعالى" يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ "

هنا البارئ عز وجل يصف ذاته العلية يوم القيامة بهذه الأوصاف التي كانت خفية عند كثير من الناس، والذين كانوا يحدثون عن الله أنه يعلم السر وأخفى ويعلم خلجات الإنسان، ولكن لم يكن يبالي بهذا الأمر، ويوم القيامة لا أحد يشك في هذا الأمر، ويرون كل ذلك عيانا.والله تعالى هنا في دار الدنيا ويوم القيامة وفي كل الأحوال يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.والخائنة هو اسم فاعل وكثير من العلماء قالوا أنه مصدر صناعي بمعنى خيانة، أي يعلم حالة العين وهي تسترق النظر المحرم، والذي يعبر عن كيد أو خداع أو نية قدرة يضمرها الرائي.والعين فعلا فضاحة ومفضوحة.حيث أن الإنسان إذا أراد أن يعبر بصمت تنوب العين عن اللسان آنذاك.فالله تعالى لا يحاسب الإنسان فقط على القول الذي قال بل يحاسبه على العين التي استرق بها النظر بنية سيئة بسبب من هذه الأسباب التي ذكرت.

(الدرس 48)

10 ـ ثم قال تعالى :"وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" يقضي بمعنى يحكم، وكلمتا الحكم والقضاء متلازمتان رغم أن بينهما فارقًا دقيقًا، هنا الحديث عن يوم القيامة ومحاسبة الله تعالى لناس والحكم لهم أو عليهم، والحساب مقدم على الحكم وهو نوع من أنواع التحقيق عن ماض الإنسان في دار الدنيا، وبعدها يكون حكم الله على إثر ذلك.وكلمة الحق في الآية تعني العدل، وبين الحق والعدل تلازم، وكلمة الحق أدق وأخص.وحكم الله تعالى هو الحق ومن تما كانت العدالة أي إعطاء كل ذي حق حقه، وهو نقيض الظلم.والبارئ عز وجل هو مالك كل شيء له أن يقضي بما شاء، وفي حكمه وقضائه العدل.

قد يأتي قائل ويقول أليس الله تعالى من صفاته الرحمة فلما ترك هذا مريض ولم يعافه من مرضه ؟؟ لنصغي إلى الجواب هنا، رحمة الله تعالى لعباده تسري في نفق خفي لا نتبينها مع وجود صور كثيرة من مظاهر رحمة الله تعالى ولكن جل رحمته تعالى الحقيقية تسري إلى الإنسان في نفق خفي وتسري إلى نفسية وشعور هذا الإنسان، وكثير ما رأينا أناس مرضى إذا جلسوا في مجلس وزعوا السرور على الحاضرين معه.ومثال ذلك قصة "عمران ابن حصين" من أصحاب رسول الله ﷺ وهذا الصحابي كان مضرب المثل في السرور والفرح، وما دخل عليه إنسان إلاَّ ووجد البسمة مِلْأَ فمه، رغم أنه أمضى قرابة ثلاثين عاما وهو مثبت على سرير من خوص النخل يابس، حتى تغضا جسمه وأصبح مجموعة عظام في كيس من جلد، ودخل عليه يوما أخوه العلاء رضي الله عنه نظر إليه فبكى.فقال له سيدنا عمران وهو يتبسم: ما يبكيك؟ قال هذه الحال التي أنت فيها.فقال له: مه فإن أحبه إلى الله أحبه إليَّ.وهو يعبر هنا عن شعوره.إياك أن تقيس رحمة الله بمقياس نظرك الدقيق المحدود.

والعكس أيضا صحيح كم من أناس ترى في حياتهم مظاهر الترف والغنى والعافية لكن في الباطن يعانون من شقاء لا تراه عيناك.

الله يقضي بالحق يوم القيامة وهو وحده من يحاسب عباده ثم يحكم، لكن في دار الدنيا كيف يقضي؟ البارئ يقضي بطريقتين:طريقة مباشرة وهذا عندما ينشئ الإنسان كما يشاء، بالعمر الذي يتمتع به بالصحة، وبالابتلاءات التي يرسلها إليه، بالغنى أو الفقر... وهنالك قضاء أخر من خلال شريعته التي وضعها بيننا، والتي تتضمن الواجبات، المحرمات، المباحات.. ثم عهد بها إلى القضاء،

وكلف القاضي بأن يحكم طبق هذه الشريعة.مثل أحكام المعاملات من عقود البيع والشراء، الإيجار، الاستئجار....كلها أحكام صدرت من عند الله عز وجل، ومنها الجنايات والعقوبات.ظاهريا الحاكم هو الذي يحكم، لكن الحقيقة الحكم لله تعالى.ونجد هذا في قوله تعالى :" وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ " والميزان هو الشرع، ويأمرنا بتطبيق الشريعة.ومن هنا كان الإنسان خليفة لله.وصدق البارئ لما قال:" والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء " وهذه دعوة لنا إلى أن تتجه إلى حاكم واحد وهو الله تعالى.وعندها تصل إلى وحدة الشهود، أي وأنت تنظر إلى مخلوقات الله فإنك لا ترى إلا الله تعالى المسير الحاكم القاضي فيهم جميعا.

رجل من الأولياء كان دائما يمشي بشوارع مصر قائلا :" ألا يا أيها المحجوب عنه تأمل ما ترى فالكل منه " عش هكذا دائما مع الله تكون من العليين وأصبحت مع الله سبحانه وتعالى.وعلينا أيضا مع التوكل على الله أن نتخذ الأسباب في كل شيء وهذا من حسن الأدب مع الله مع إيمانك القوي أنها بدون أي فاعلية.وتعاملك مع الأسباب الحكمة منها امتداد علاقات الود والترابط بين العباد في الأرض.ومقومات الحكم هما السمع والبصر ولا يتأتى ذلك لغير الله سبحانه وتعالى، وهو السميع لكل شيء حتى المبصرات يسمعها، ويبصر كل شيء حتى المسموعات يبصرها.

(الدرس 49)

النص الثالث في المبادئ والإنسانيات والأحكام

هذا الموضوع من أجل الموضوعات التي يحفل بها كتاب الله عز وجل، والنص التالي مأخوذ من سورة الإسراء، وهو يتضمن أحد عشرة مبدأً وحكما من الأحكام الشرعية التي شرف الله سبحانه وتعالى عباده بالالتزام بها والعمل عليها، وعند قراءتنا لهذا النص واستعراضه، نجد أنه يبدأ بمبدأ أساسي واحد وينتهي أيضا بهذا المبدأ ذاته.وهو مبدأ عبادة الله وحده والإيمان به وحده والدينونة له وحده.والنص هو التالي :

قال سبحانه وتعالى :" وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ

تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا(27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (33) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا(38) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا(39) "

.وافتتح النص بـ :

1 ـ المبدأ الأول: بقوله تعالى :" وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ " جاء الحصر هكذا إلا إياه ليلفت البارئ نظرنا إلى أن الإنسان لابد أن يدين بالعبودية والعبادة لشيء ما، فإما أن يعرف مولاه وخالقه ومتصرفه فيكون هو معبوده، وإما أن يتيه عن إلهه وخالقه فتصطاده عندئذ الآلهة الأخرى، ربما يصبح عبدا لأهوائه وشهواته، أو عبدا لمن يستذله ولمن استطاع أن ينتهز فرصة ضعفه فيتغلب عليه ويقوده إلى الخضوع لأمره ونهيه.والله تعالى يحذرنا أن نكون عبيدا لغيره وهو وحده بيده كل أحوالنا، ومبدأنا منه وانتهائنا إليه.فاجعله وحده معبودك .والعبودية والحب في هذا الصدد واحد، فالإنسان العارف لله ويدرك رسائل الحب التي تأتيه من مولاه عندها يتجه قلبه بالحب لهذا الإله، ومن لم يعرف الله ويعرف ألوهية الله سبحانه وتعالى، ولم يعرف المحسن الأوحد في حياته، فالقلب مثل المرآة لابد أن يتجه بالحب لكائن ما، منها ربما الأهواء والشهوات والرعونات، فيصبح محبوبه ذاك الحاجز الذي حجزه عن مولاه وخالقه .ورحم الله "ابن الفارض " وقد قال :" أنت القتيل بأي من أحببته فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي" أي لابد أن تعلم بأنك قتيل محبوبك فاختر لنفسك من تكون قتيله، أكيد أن العارف بالله تكون سعادته أن يكون قتيل حبه لربه.وقضى ربك

الخطاب لواحد وهو رسول الله ﷺ، ثم قال ألا تعبدوا إلا إياه، هنا الخطاب لنا جميعا.لماذا هذا التحول في التعبير؟ الجملة الأولى إخبار، ليست بأمر أو نهي، والإخبار يتلاءم أن يكون حديثا متجه لرسول الله ﷺ، ولما تحول الخطاب إلى أمر لتطبيق هذه المبادئ السلوكية اتجه الخطاب إلينا جميعا.

2 ـ المبدأ الثاني: في قوله تعالى :" وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ" أي قضى ربك أن تحسن بالوالدين.الملاحظ أننا نجد دائما تجاورا بين أمر الله عباده بأن لا يشركوا به أحدا وأن يعبدوه، وبين أن يكونوا بررة بآبائهم وأمهاتهم، لماذا؟ لأن هنالك تناسب وتشابه ولله المثل الأعلى، فالبارئ سبحانه وتعالى هو السبب المباشر والحقيقي لوجود هذه الخليقة ولرعايتها وتربيتها والرحمة بها، والأبوين صورة مصغرة جدا جدًا لحكم الله وقضائه، حيث أنهما سببان لإيجاد الأولاد ولرعاية والعطف عليهم والرحمة بهم.فالله يقول عليك أن تمارس عبوديتك لمن خلقك، ولمن يرعاك لحظة فاللحظة ويرحمك ويرد عنك الغوائل، ولقد جعلت في المجتمع الإنساني والأسرة الإنسانية التي تترعرع برعاية الأبوين.ومن تما يجب الإحسان لهما.وفسر صور الإحسان بقوله تعالى :" إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا " هكذا الإحسان للوالدين، لنتأمل في دقة هذا الكلام.في قوله تعالى " إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا " هنا رأسا اتجه البيان الإلهي إلى حالة الكبر الذي آل إليه الولد، ولماذا لم يتحدث البارئ عن طفولة الولد كذلك؟ والسبب لأن الطفل عندما يكون صغيرا في الغالب لن يتمرد على أبويه، سيدفعه إلى برهما الحاجة إليهما، لكن مرحلة الخطورة في هذا الأمر، عندما يبلغ هذا الطفل سن الرشد وقد تحول من ضعف إلى قوة، وتكاملت مقومات الفكر والحياة ووو عنده، في حين أنه ينظر إلى والديه فيجد أنهما قد تراجعا إلى مثل ما كان هو عليه من قبل ،وقد لا يلتفت إليهما وينسى فضلهما عليه، ولهذا ركز البيان الإلهي على مرحلة الكبر والقوة عند الولد والبر الذي يجب أن يتجه به إلى والديه.وقوله إما يبلغن " أي في كل حالة من الأحوال تجد أن أبويك قد بلغا الكبر فترجعا إلى الضعف بسبب الشيخوخة فلا تقل لهما أف ولا...

ولماذا قال "عندك الكبر" تصور لنا مدى حاجة الأبوين إلى الابن اليافع وهما يعيشان الآن في كنفك بعدما كنت أنت في كنفهما، أحدهما هنا فاعل وكلاهما معطوف عليه، والكبر مفعول،

والأصل أن يتقدم الفاعل على المفعول.لكن في الآية جاء العكس، ليصور المعنى الذي قلته، حيث تناسب أن تكون كلمة الكبر مجاورة لعندك.

فلو قال إما يبلغن عندك أحدهما أو كلاهما الكبر، هنا الصورة تبدلت.وبعد ذلك نهانا عن قول كلمة أف وهي شيء نفسي يتبدى بكلام، ونهى عن شيء سلوكي بقوله ولا تنهرهما يتبدى في فعل.أي لا تحدثهما بفضاضة، ولا توجههما بكلام جارح.بل عليك أن تقول لهما قولا كريما، أي كلام المعبر عن حبك لهما وتقديرك واحترامك لهما، و خدمتك لكل منهما.ثم قال البارئ :" وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا " الجناح هنا كناية، حيث يجسد البيان الإلهي تواضع الولد لأبويه وتذلل لهما بمظهر طائر عندما يهوي من علو إلى أفراخه يبسط جناحيه لهما، معبرا بهذا عن حبه وشفقته لهذه الصغار، فاجعل جهد استطاعتك من خدمتك وبرك ورعايتك ودلِّك ما يشبه جناحي الطائر.وقال استثناء من الرحمة أي ذل رحمة وليس ذل مهانة.والتذلل يكون لله وحده.وأخيرا توجه إلى الله عز وجل بالدعاء قائلا "ربي ارحمهما كما ربياني صغيرًا" وكما هنا لتعليل أي مقابل ما رباني صغيرا.والله يرحمها سواء دعوت أم لم تدعوا.لكن يدعوك أن تكون وفيا لأبويك.وهذا هو تفصيل الإحسان.هذا الإله الذي ينمي مشاعر الود والعطف والرحمة اتجاه الأبوين ماذا عساه يكون شأنه اتجاه عباده ؟؟ أكيد رحمته أكبر بكثير من هذا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.الله أكبر ولا إله إلا الله.

(الدرس 50)

ـ وصلنا إلى قوله تعالى :" رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا" هذا يشبه استدراك للذي مضى وتما شرحه، حيث أمر الله عز وجل الأبناء ببر الوالدين ونهاهم عن التأفف أي الضجر النفسي منهما، ونهى إلى الإساءة إليهما بسلوك والقول ونحو ذلك، وحذر من ذلك أيما تحذير , ولعل سائل يقول ربما هذا الابن غلبت عليه نفسه وضجر لأمر ما فتأفف، أو فعل فعلا شائنا غير مناسب في حق أحد من أبويه أو كلاهما، ولكن استدرك وندم، ما عاقبة هذا الإنسان؟ البارئ عز وجل طمأن هذا الإنسان بهذا الكلام التالي: قال :" رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا " أواب جمعه أوابون وهم الراجعون إلى الحق، وهنا البارئ يقول لهذا الذي ندم أنه ليست العبرة باللسان والكلام، وإنما العبرة بصدق الشعور والذي مستقره القلب، وهذا شيء يراه الله ويطلع عليه لهذا قال :" رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ

ۚ"كأنه يقول إياك أن تعامل مولاك كما تعامل إخوانك في الإنسانية، وإعلانك لتوبة فإن الله يرى إلى القلب وإذا كان منسجم مع اللسان قبل الله عز وجل التوبة.لهذا بدأ بتلك الآية.ومعنى الصلاح أن يكون اللسان منسجم مع القلب وهو سلوك منبثق من القلب والسريرة، كلمة كان تعني قانون وهو أن الله تائب للأوابين وغفور لهم، وتدل على الاستمرار أي كان و لا يزال.

3 ـ المبدأ الثالث :وهو الوفاء بحق القرابة والرحم خاصة من الناحية المادية والمعنوية، ويلي ذلك عامة الفقراء والمساكن.ويقول لنا الله عز وجل بخصوص هذا:" وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا "

والقربى هم أرحامك، وذا القربى شغل قسمين وهم الأقربون إليك والذين هم بعد ذلك، وهم أيضا أقارب، ثم قال والمسكين وابن السبيل وهؤلاء عامة المحتاجين والفقراء.هنا نلاحظ فرق كبير لكن لابد أن له سببا، وهذا عندما حدثنا عن حق الأبوين قال :"وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ"وهنا يقول :" وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ " لم يستعمل البيان الإلهي التعبير بالإحسان.لماذا هذا الفرق؟ هنا لو قال أحسن إلى أقاربك، فكلمة الإحسان توحي بمعنى المنة وتفتح بابه، بمعنى أنك عندما تشعر أنك قد أحسنت إلى أقاربك، هنا الشيطان يوسوس إليك على أنك ممتن عليهم، فلكي لا يسري إلى ذهنك هذا الشعور، ولكي لا تتصور أنك بإحسانك إليهم تملك أن تمتن عليهم فإنه عبر بقوله حقه حيث عندما تتعاون معهم بأن تغني فقيرهم وتسد حاجاتهم.. إياك أن تحس بأنك بهذا تحسن إليهم، بل عليك أن تشعر أنك تؤدي بهذا حقا في عنقك لهم.وهذا طبعا لن يشعر بالمنة.في الوقت ذاته يشعر هؤلاء الأقارب الذين يتلقون منك العون أنهم أخذوا حقهم منك.وبهذا لن تجرح مشاعرهم.أما بالنسبة للوالدين استعمل كلمة إحسان، لأن الولد مهما قدم العون لوالديه فإنه يوجد ما يمنعه ويصده من التمنن عليهما، لعلمه أنه مهما فعل لأبويه فإن ما فعلاه له سابقا أبلغ وأكثر وأجزل من هذا الذي يقدمه لهما الآن.قد يقول قائل ليس لي من الأموال التي يمكن أن أقدمها لأقاربي.. والبارئ يجيبه أن هذا سببه التبذير، لهذا أتبع هذا بقوله :" وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا " أي أنك لو لم تسلك مسلك التبذير ستجد مزيدا من المال يكرمك الله به تعود به إلى أقاربك كحق لهم في عنقك.وما هو التبذير؟ هو أن يصرف الإنسان المال فيما لا حاجة إليه، أو يصرف المال بدافع الاستكبار والتباهي على الآخرين.ومن أسوأ أنواع التبذير أن تملأ مائدة الضيفان بأكثر مما يحتاجون وتتلف فيما بعد الباقي، وضحيت بأمر هام

خاطبك الله عز وجل به من أجل أن تضع نفسك في إطار الكرم أمام هؤلاء الناس.إلا إذا صرف هذا الطعام للآكلين هنا الأمر يختلف.وفي الآية أتبع الله تعالى الفعل بالمفعول المطلق تبذيرا، ومعناه لا تبذر وأنت لا تقصد من تبذيرك هذا إلا التبذير.ثم بين لنا خطورة التبذير قائلا :" إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا " والمبذرين قال عنهم أنهم قرناء الشيطان، وخاصة يوم القيامة.إذن التبذير أمر خطير جدا.والحديث عنه أمر طويل.وتساؤلنا متى يكون المال المصروف تبذير ومتى لا يكون تبذيرا؟ هنا النية تتدخل ومصير المصروف يتدخل والحالة تتدخل، ووفق الشخص الذي تتعامل معه.مثل تحطيم استكبار شخص بمظهر مماثل لإشعاره بالخزي وتحطيم استكباره هذا.

ـ هناك من يتساءل لما يسمع هذا الكلام أو يقرأه، أنه في عنقه حق وهو لا يملك ويقول ماذا أصنع؟ خاطب الله تعالى هؤلاء الناس بالبديل قائلا سبحانه وتعالى :" وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا " وإما أصلها إن وجاءت ما للاستقصاء، أي في أي وقت من الأوقات اضطررت الإعراض عنهم لفقر، وانتظار رحمة أي مال من الله يأتيك وعندها تعود به إلى قرابتك، واجههم عندها بالكلمة الطيبة والحديث المؤنس.وحتى وإن وجد المال فيجب أن يتوج العطاء بكلام ميسور.

4 ـ المبدأ الرابع : استخدام المال لأداء حق القرابة فيه شرط وضابط وهنا يلفت البيان الإلهي نظرنا إلى هذا الضابط بقوله تعالى :" وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا " لنتأمل أسلوب القرءان كيف يجسد المعنى التجريدي، حيث يريد أن يقول لك لا تبالغ في البخل والشح، ولا تبالغ أيضا في بدل المال بدون حد.وأخرج لنا المعنيين بصورة تتأملها، فصورة البخل عبارة عن شخص ألصق يده بعنقه، عندها تكون يده بعيدة عن المخاطب، ثم قال ولا تبسطها كل البسط، وكأن يده دائما ممتدة ولا تكاد تنقبض على شيء وهي صورة للمبالغة في الإسراف.فتقعد ملوما في الحالة الأولى، و محسورا للحالة الثانية .على الإنسان أن يكون وسطي في صرفه للمال وميزانه في ذلك أن يصرف المال لهدف مَشْرُوعْ.

ـ قد يقول قائل أن هذه الأموال جمعتها بعرق جبيني لابد لي أن أحافظ عليها ولا أصرفها.. يأتيه الجواب من البارئ سبحانه وتعالى بقوله :" إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا " أي لا تخاف ليست هذه مهمتك، فالمال يأتي من عند الله، أما تعبك وعرقك

وجهدك هو صورة أو شكل فقط، أما ما وراء ذلك من السبب الحقيقي لرزق فإنما الرزاق هو الله في قوله تعالى :" لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ " وكلمة يبسط يعني يعطي، ويقدر بمعنى يقلل، والله حكيم في هذا.ومن عادة رب العالمين أن الإنسان إذا أعطى وهو يهدف إلى ما يرضي الله عز وجل فإن الله يعوضه ويزيده، وهو القائل :" مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ " إذن الثقة بالله تنفي هذا العذر وتنفي هذا الجدل.

(الدرس 51)

5 ـ المبدأ الخامس :من المبادئ الإنسانية التي يوصي مولانا وخالقنا بإتباعها وتنفيذها، في قوله تعالى :" وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا " في العصر الجاهلي كانت بعض القبائل كان من عاداتها وأد المولود إذا جاء أنثى خوفا من العار، مبالغة في العناية بالعرض وما إلى ذلك، وكل شيء زاد عن حده آلا إلى النقصان، وكانت هنالك قبائل تئد الأطفال خوفا من الفقر، وبالمناسبة نذكر أن سيدنا عمر برئ لما قيل عنه أنه في الجاهلية وأد ابنته، ولم يثبت شيء من ذلك قط.البارئ عز وجل قضى على هذه العادات السيئة وحذر من إتباعها.والمراد في الآية من كلمة إملاق، الأصل يقال فلان أملق أي إذا التصقت يده بحجارة ملساء ليس فوقها شيء من الغبار أو أتربة، أنواع هذه الحجارة تسمى الملاقاة، ثم أصبحت هذه الكلمة كناية عن الفقر، أي لم تعد يده تقع على شيء من المال لا على درهم ولا على دينار، وإن وقعت على شيء إنما تقع على هذه الحجارة.والبارئ يحذر من قتل الأولاد خشية فقر قادم تتوهمونه، ثم قال :" نحن نرزقهم وإياكم " نلاحظ أن بيان البارئ دقيق جدا، حيث تكفل برزق الأولاد قبل أن يتكفل برزق أبويهم حيث قال نحن نرزقهم، ثم قال وإياكم، وهنا البارئ يصور لنا أن هؤلاء الذين يتجهون إلى هذا العمل تحسبا منهم من قدوم الفقر الذي قد يلجؤهم إلى العار، البارئ يخاطبهم أأنتم ترزقون أولادكم ؟؟ ويجيبهم أنهم مرزوقون قبلكم.نلاحظ أن هذا الكلام كرر في سورة الأنعام لكن بطريقة أخرى ويقول البارئ عز وجل :" وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ" وهنا سبب القتل هو من فقر موجود، لهذا هنا طمأن الكل قائلا "نحن نرزقكم و إياهم " وهذه من بلاغة البارئ عز وجل.والحرمة واحدة بين الوأد خوف الفقر أو خوف العار.ثم قال :" إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا" يوجد فرق في اللغة بين خطئا وخطأ.عندما نقول خطأ نقول فلان أخطأ يخطئ خطأً، يعني وقع في زلة لكن بدون قصد.وهذا معفو عنه.أما الخِطْأ عبارة عن جريمة وهي أن ينحرف

الإنسان بقصد.لهذا قال المولى عن قتل الأولاد بأنه جريمة كبيرة.إذن تذكرنا للأخطاء التي كانت تمارس في الجاهلية، يجعلنا نشعر بنعمة الله وفضله سبحانه وتعالى على هذه الأمة بأن طهرها من أمثال هذه العادات السيئة وقال البارئ :" وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " أي كانوا على سوء ورذيلة وعادات جاهلية عفنة، والإسلام هذب هؤلاء وسما بهم إلى الأوج الحضاري، وأعلن المصطفى ﷺ: " أن كل مأثورة من مآثر الجاهلية تحت قدميه موضوع ".لولا الإسلام لما كان للعرب مكانة بين الأمم، فسميت بالأمة العربية التي نبعت من مهد الإسلام.ووجدت كلمة أمة بعد هجرة المصطفى إلى المدينة المنورة وذكرت في أول بند من بنود الوثيقة.

6 ـ المبدأ السادس: في قوله تعالى :" وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا " هذا المبدأ مهم جدا جدًا بالنسبة للأسرة، وهذا الشيء الذي نهى الله عز وجل منه هو حزام وسياج مهم جدا لحماية الأسرة.لنتأمل دقة البيان الإلهي حيث يقول :" ولا تقربوا الزنا" المبادئ الخمسة السابقة ليس فيها ولا تقربوا، وإنما في الأمور المنهي عنها يتم النهي مباشرة، وفي أمور الأمر يتم الأمر بها مباشرة.لكن هنا عند الحديث عن الفاحشة قال :" ولا تقربوا" ولماذا لم يقل ولا ترتكبوا الزنا؟ ليوضح لنا البيان الإلهي أن هنالك حمًا حول هذه الفاحشة، إذا وصل الإنسان إليها ودخلها هيهات أن يستطيع رجوعا، ولابد عندئذ لهذه المقدمات أن تجذبه إلى الجريمة، وإذا أراد الإنسان أن يبتعد عن هذه الجريمة وأن لا يرتكبها فينبغي أن لا يدنو منها، أي عليه أن لا يقع في الحمى.وما هي الحمى؟ أو ما هي الأمور التي إن فعلها الإنسان يعتبر أنه قد دنا من الزنا ؟إنها قائمة من أمور كثيرة كلها البارئ حذر منها بكلمة ولا تقربوا منها:

ـ الاختلاط الفاحش والذي لا توجد ضمانات وقيود شرعية له.

ـ الخلوة بين الرجل والمرأة، أي تواجدهم في مكان مغلق وليست بينهما قرابة أو رحم.والرسول ﷺ يقول

:" ما خلا رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما"

ـ كشف العورات مما أمر الله المرأة أن تستره، من مظاهر قرب الفاحشة.ولدكتور كتاب عنوانه "إلى كل فتاة تؤمن بالله" توضيحات عن الحدود التي رخص الله تعالى للمرأة أن تكشفها من جسمها.ونجد في سورة النور والأحزاب أيضا الله تعالى يأمر النساء بالحجاب.

ـ الخوض في الأحاديث التي تتجاوز حدود اللياقة، وحدود الأدب ما بين الشاب والفتاة.

ـ رؤية المسلسلات والأفلام الشائنة والتي تستثير هذه الرغبات، وهذه لون من ألوان القرب..

كل الأعمال والأقوال والتصرفات التي تغري الإنسان بارتكاب هذا المحرم اجتنبوه.

ثم قال عن الزنا :" إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا "فاحشة وصف لاسم محذوف أي كان فعلة فاحشة، أي خارج عن الحد، نقول فحشت الدابة عن الطريق أي اتجهت يمينا أو يسارا.أي هذا العمل خروج عن ما أمر الله عز وجل بالتزامه ،وهو شرود عن الصراط السلوكي الذي يجب على المسلمين أن يضبطوا أنفسهم به،وقوله:

" وساء سبيلا"أي هذا السبيل يودي إلى سوء أي إلى شقاء اجتماعي وبيل.صدق الله سبحانه وتعالى.حيث ما وجدت جراثيم في المجتمع تغرس فيها الأمراض الفتاكة التي ترعب، مثل تلك الجراثيم التي تنتشر من هذه الفاحشة.وما وجد سبب لتحطيم الأسرة وتبديدها والقضاء عليها مثل الوسيلة التي تفعلها هذه الفاحشة.

والغرب اليوم يؤمنون بهذا الذي نقوله لكن لم يستطيعوا الرجوع عن ما يقترفونه، وقد ذاقوا نتيجة ذلك المرارة، ولسان حالهم يقول نحن الآن انحدرنا ولم نعد نملك كوابح تعيدنا إلى ما كن عليه.

ـ وفي قصة لرسول الله ﷺ مع صحابي اسمه " خوات ابن جبير" وهو من الأنصار ذهب يوما مع رسول الله إلى ظهران فأقاما هناك، وقال يوما خرجت من خبائي فرأيت نساء مجتمعات فأعجبني، ربما كان وقتها في صدر إسلامه رضي الله عنه، قال فلبست أحلى حلة فجلست إليهن ،ولما خرج رسول الله من خبائه رآه جالسا معهن فقال له :" يا أبا عبد الله ما يجلسك إليهن " قال: فهبت رسول الله ﷺ.. فقال له :" يا رسول الله جمل شرودٌ لي أبحث عن قيد له.فمر رسول الله..... وكان كلما لقيه قال له "السلام عليك يا أبا عبد الله ما فعل شراد جملك؟ إلى أن أجابه يوما قائلا :" والذي بعثك بالحق ما شرد جملي بعد الإسلام قط " فقال رسول الله :" اللهم ارحمه اللهم ارحمه اللهم ارحمه" نلاحظ كيف جمع رسول الله بين أسلوبين النهي لكن بطريقة من ألطف ما يكون.ورسول الله فسر شراد جمله بنفسيته الأمارة بالسوء، أي كيف هي نفسك الأمارة أمازلت لم تقيدها؟ لهذا ذاك الصحابي أراد أن يثلج صدر النبي بأن نفسيته تربت وقد قيدها.(وردت القصة في درس 53 إجابة عن سؤال)

(الدرس52)

ونحن المسلمون ولله الحمد لن نقع في هذا المنحدر ونملك الكوابح اللازمة لاستخدامها فنقف عند الحد، ومع ذلك فإن في مجتمعاتنا الكثير ممن يحلم بالبلاء الذي وقع فيه الغرب، هذه هي المصيبة التي نعاني منها.وعندنا في قانون الزنا أن مرتكب الفاحشة بطريق الاغتصاب يعتبر جريمة، وإن كان الأمر تما برضا الطرفين فهنا القضية تصبح جنحة، وهو قانون غربي، والغيرة الإنسانية تتعارض مع هذا القانون، أي الفطرة الإنسانية تدعو إلى الدفاع عن الشرف، وهنا يجد أن القانون لا ينصفه ولا يقوم مقامه في الردع، عندها هو الذي يقوم بردع، هذا باختصار ما يسمى بجريمة الشرف، و مالسبيل إلى امتلاخها؟ فالسبيل هو تغير القانون حيث يكون هو المدافع عن صاحب الحق والمعبر عن غيرة الأب والزوج والأخ...عندها تتضاءل جريمة الشرف.

أحكام الشريعة الإسلامية هي الكفيلة بسعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا وتعدنا بسعادة العقبى أيضا.

المبدأ السابع: في قوله تعالى :" وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا " نلاحظ أن التعبير جاء بقوله النفس، وهي أشمل عبارة وهي بمعنى الروح، إلا قتلا متلبسا بحق.هنا ما الذي ندركه من هذه الطريقة التعبيرية التي يخاطبنا بها مولانا جل جلاله؟ ندرك أولا أن الأصل فيما شرع الله سبحانه وتعالى هو قدسية الحياة، وأن الأصل ضرورة حماية الروح، إذا الأصل هو السلم وهذا من معنى قوله تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً" وهذا الخطاب موجه للكل وبوابته الإيمان بمن يخاطبنا.وما يعارض السلم فهو شيء عارض له أسبابه وموجباته، وفي تطبيقنا لها أيضا نرعى بذلك السلم ونحافظ عليه ونقيم سياجا له بهذه الطريقة، لأنه لكي ترسخ دعائم السلم في المجتمع ينبغي أن تضرب يد من يريد أن ينسف هذه الدعائم، وهذا معنى قوله تعالى :" ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب".وعندما شرع الله سبحانه الجهاد، وشرع القصاص، وشرع قتل الصائل، إنما أرانا أن ذلك كله أنها عوارض داخلة على الأصل.مثلا: إذا وجدنا من يتربص بمبادئنا وقيمنا، ويتربص بالعقائد الإيمانية فا لنعلم أن هذا الإنسان يعبث بدعائم السلم، لهذا شرع الله الجهاد لذلك.

مثال 2:الصيال من أبواب الشريعة الإسلامية يسمى "باب الصائل "، مثلا أسرة آمنة مطمئنة في دارها، فاستيقظ رب البيت في منتصف الليل على من يعبث برتاج الباب، وتبين أن هنالك من يريد أن يقتحم الدار ليسرق، هذا صائل، وللمحافظة على السلم يقتضي أن نضرب على يد هذا

الإنسان الذي جاء ليعبث بالسلم، لهذا شرع الله سبحانه وتعالى مقاتلة الصائل.وهنالك آداب في هذا علينا الالتزام بها.

ـ رجل قُتِلَ ابنه أو أخوه أو أي قريب له، البارئ عز وجل يخاطب هذا الإنسان بما ينبغي أن يفعله، حيث أنه ظُلِمَ بسبب قتل قريب له، يقول تعالى :" وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا" ما هو هذا السلطان يا ربي؟ هو أن يطالب بحق القصاص إن شاء، ويطالب بدية إن شاء، ويعفو إن شاء.ومظاهر القدرة التنفيذية لهذا السلطان بأن يطالب القضاء أن يفعل ما يريد، فالقاضي هنا خادم لولي الدم ومنفذ لما يطلبه.ثم قال بعد ذلك :" فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا " هنا البارئ عز وجل يضع كابح أمام هيجان ولي المقتول، بأن يريد أن يمارس بنفسه الثأر ليشفي غليل نفسه، هنا البارئ يقول له أن لا يسرف في القتل، ومعناه التطرف في القتل، أو الإصرار على أن يقتل بنفسه القاتل دون نظر إلى القضاء، ومن مظاهر الإسراف في القتل أيضا أن يقتل اثنين أو ثلاثة، أو يقتل غير القاتل لأنه فر ولم يستطع أن يدركه، وهنا المسألة تتحول من قصاص يحمي السلم إلى جرثومة تقضي على السلم، عندها تشيع الفتنة.لهذا يجب أن تكون المسألة بيد القضاء، وبيد الشارع، لهذا بعد أن قال البارئ فلا يسرف في القتل، فالضمانة قوله "إنه كان منصورا".لكن إذا القضاء تساهل في الأمر وتدخلت الوسطات وتبخرت أحكام الشريعة في ضرام ذلك، عندها الفتنة تقرع الأبواب لا شك في ذلك، وإذا غاب القانون وغابت سطوته استشرت عوامل الفتنة.

المبدأ الثامن: في قوله تعالى :" وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا " هنا استعمل البيان الإلهي نفس الأداة التي استعملها في النهي عن الزنا وهي قوله "ولا تقربوا"، لأن الخطورة هنا كالخطورة بالنسبة لزنا.ومال اليتيم مال مقدس جدا جدًا ومآل رعاية هذا المال إلى الله عز وجل، لهذا ينبغي الحيطة كل الحيطة في النظر في مال اليتيم.لأن عند وفاة صاحب المال تاركا من ورائه قصر، عندها الأطماع تستشري بسبب ضعف المالك وعجزه عن حماية نفسه ،والشيطان يغري، والنفس الأمارة بالسوء تغري، وعوامل التحايل وما أكثرها للعبث بالمال باسم الرعاية والحماية، وباسم المتاجرة كثيرة جدا، وكل ذلك يمكن يكون وسائل لاقتناص مال اليتيم.لهذا البارئ يحذرنا من مقاربة هذا المال.وحتى إذا كان لغرض اقتراض المال لأن في هذا مغامرة بالمال.و لك أن تتاجر بماله بشرط التزام الحيطة والغبطة.ثم قال :" إِلَّا بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ " هنالك وسيلة لرعاية مال اليتيم لكن لابد من وجود مقاربة وهي أن يتاجر بماله مع الغبطة والحيطة.وقال :" حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ" وكلمة أشده من الكلمات القرءانية التي أغنت اللغة العربية، ومعناها بلغ القوة في فكره وبلغ مستوى القوة في جسده، وبلغ القوة في قدرته على مراعاة الأمور وحماية رزقه وماله وما إلى ذلك.وهذا الكلام زاده المولى توضيحا في سورة النساء في قوله تعالى :" وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا "فبعد اختبارهم تأتي كلمة أنستم أي تلمستم منهم رشدا،عندها ادفعوا لهم أموالهم، وحذر من أكل الأموال قبل أن يكبر اليتيم ويحاسبك عليها.والذين يتحركون حركة المذبوح يقولون عن القرءان كلاما مثل قولهم أن في القرءان تكرار مثل هذه الآيات في سورتي الإسراء والنساء عن اليتيم، ويقولون هكذا عن القصص.. وقمنا برد سابقا حيث نجد الكلام في السورتين مختلف، ففي الأولى مجمل، وفي النساء تفصيل وتوضيح.وأين التكرار هنا ؟؟؟

وولي اليتيم أوصي الوكيل أن يرعى له أولاده ووو وهذا عهد، حيث يقول تعالى :" وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا " ويوم القيامة يؤتى بالعهد وكأنه رجل ويقال له: ما فُعِلَ بك؟ وكم من أمر معنوي يجسد الله به الحقيقة، وهنالك من قال أن الله تعالى يسألكم عن العهد فيما ضيعتموه.والمعنى الأول هو الوارد.

(الدرس 53)

المبدأ التاسع: في قوله تعالى :" وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا " هذا المبدأ يتعلق بالمعاملة المتعلقة بالبيع والشراء وقوله "أوفوا الكيل إذا كلتم " خطاب موجه للبائع، لأنه في كثير من الأحيان الشيطان يوسوس له أن ينتقص وأن لا يوفي الكيل.وهذا يتعلق بكل ما يُكَالْ ولا يوزن، ثم قال :

" وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ " وهنا لما يوزن بحيث يجب عليك أن تجعل الكفتين متساويتين، والقسطاس اسم من أسماء الميزان.ويقول البارئ في موضع آخر عن هذا:"وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين" في هذه الآيات تهديد لمن لا ينفذ، وفي الأخرى أمر ونهي.

فيما مضى كانت هنالك فئات يسمون بتجار، وآخرين هم علماء دين، كما في هذا العصر رجال دين وآخرين موظفين.فالتاجر ينبغي أن يكون خبيرا بأحكام الشريعة فيما يتعلق بالبيع والشراء والربا والصرف وما إلى ذلك.لهذا نجد أنه عندما نعد إلى تراجم علماء الشريعة الإسلامية، نجدهم في الوقت الذي كانوا فيه مراجع في الدين ولهم تأليفهم التي تسير في العالم الإسلامي مشرقة ومغربة، نجد في الوقت ذاته منهم التاجر، ومنهم الصانع، وكل واحد منهم كان يلجم عمله التجاري بلجام الدين.

هنالك من قد يقول أنه لو طبق هذه الأحكام كلها لا يكاد يربح والمشتري اعتاد أن نلبس له الأمور ونحن نسير على هذا المنوال، فالبارئ عز وجل أجاب عن هذا بقوله.:" ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا " ولما قال ذلك خير معنى هذا أن يكون التاجر دقيقا في مراقبته لأحكام الشريعة الإسلامية، لا يغش ولا يخدع، ولا يكذب على المشتري، وأضاف البارئ قائلا :" وذلك أحسن تأويلا " أي مع الزمن وتباتك على النهج القويم أيها التاجر مع الصدق مع الله ومن تما مع الناس، فإن الله عز وجل ينشر دلائل صدقه ودلائل إخلاصه في المعاملة ،وإذا بالناس كلهم يجتمعون عليه، لكن في المآل.وتأويلا بمعنى عاقبة.والدين معاملة.

10 ـ المبدأ العاشر :في قوله تعالى :" وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا "هذه في موضوع إتباع العلم والابتعاد عن التقاليد شيء خطير في حياة المسلمين وينبغي أن يتبينوه، وعلينا أن نجعل العلم هو المصباح الذي تتبين منه الحق الذي يخاطبنا به الله عز وجل.والتفاصيل في الدرس القادم (الدرس 54)

هذا المبدأ من أهم المبادئ التي تتعلق بالعقيدة وبالسلوك، وهو دعوة الله عز وجل عباده إلى أن يتبعوا إلى ما يقضي به العلم فيما يتعلق بالمعتقد، وفيما يتعلق بالسلوك، وأن لا ينأى الإنسان مادامت متعلقا بالعقل والرشد عن ميزان العلم الذي متعه الله عز وجل به.وقوله :" لا تقفُ" بمعنى لا تتبع، يُقال مثلا فلان قفا أثر أستاذه.ويقول تعالى " ما ليس لك به علم" يشبه البيان الإلهي دعوة ما تفد إليك، وأنت لم تستبن أحقيتها، ولم تتبين دلائل صدقها، أهي حق أم باطل.ويشبه البارئ عز وجل الإنسان الذي يستجيب لهذه الدعوة وهو لم يستبن حقيقتها، بمن يتبع إنسانا يسير في طريق لا يعلم النهاية التي سيصل إليها هذا الشخص الذي يتبعه، والعاقل لا يفعل ذلك.

والبارئ يجسد لنا إتباع مبدأ وأنت لا تعلم هويته، أهو حق أم باطل؟ العلم يؤيده أم لا؟ وعن حرف "ما "في الآية فإن علماء اللغة وعلماء الأصول يقولون، أن "ما" هذه أداة من أدوات العموم أي تعبر عن معنى عام، ومعنى الآية لا تتبع أي دعوة لا تعلم أحق هي أم باطل، والحق ما يؤيده العلم، والباطل ما لا يؤيده العلم.ودخل في هذا العموم الذي يحذرنا البارئ عز وجل منه إتباع الأديان والمذاهب، وإتباع أي فكرة، وحتى إتباع الإسلام الذي يدعوك إليه داعية ما، حيث أغمضت عينيك دون أن تسأل عقلك أيدعوك الداعي إلى الحق أم إلى الباطل؟ ربما حبا لداعية وكرامة له.لكن هذا غلط، والبارئ عز وجل لن يقبل منك هذا الإسلام، لأنك لم تتبع هذا الإسلام من منطلق يقينك من أنه حق، وإنما هو تقليدا لمرشدك لأبيك ومعلمك ،أو ربما لمن يضغط عليك أو ينذرك ويحذرك.وكل من قلد في التوحيد إيمانه لا يخلو من الترديد. إذن عليَّ من وضع أي مبدأ أو دين دعيت إليه في البصيرة العلمية، إن وجدته حق عليَّ إتباعه، وإذا رأيت أنه باطل أو لم يستبين لي الأمر علي أن أتوقف.

ما هو العلم؟ هو إدراك الشيء على ما هو عليه بدليل، إذا أدركت الشيء وكان فعلا على حقيقته إذن هو العلم، وكلمة الحقيقة تساوي كلمة العلم عند علماء المنهج والبحث والمناظرة.والحقيقة هي المفهوم الذي استقر في ذهنك وكان له مصداق في الخارج وذلك هو العلم.أي أن يكون المفهوم مطابق للواقع.فالأمور المادية البحث فيها يتم عن طريق التجربة والمشاهدة، أما ما أدعى إلى معرفته من القضايا الغيبية، فالسبيل إلى إدراك هذا هو قانون التلازم أو الاعتماد على الخبر الصادق عن طريق موثوق به ما بين ذلك الصادق ووجودي، أي السند متواتر يعلو إلى درجة اليقين.

مثال: قيل لك أن الإنسان قديما لم يكن يتمتع بالعقل لكن حاجاته المتنوعة هي التي فجرت فيه الإدراك.إذا أردت التحقق في هذا الأمر أرى إلى النتائج الحالية، أي هذا الذي تقوله يستلزم أن تكون الحيوانات العجموات في أدغالها أيضا تتمتع اليوم بالعقل والرشد، لأنها هي أيضا تشعر بحاجاتها العضوية.لكن لما نظرت وجدت أن الحيوانات لا تتمتع بهذا الرشد بل تتحرك بدافع الغريزة، إذا كلامك هذا غير صحيح.وربي يقول :" ولا تقف ما ليس لك به علم".أو ألجأ في البحث إلى الخبر الصادق بوجود سند صحيح، مثل القرءان والسنة النبوية.

ثم حذرني المولى بقوله سبحانه :" إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا " وربي يقول لنا أنه قد جهزنا بأدوات العلم، فليس لك عذر بعد ذلك، الأدوات هي السمع والبصر والفؤاد وهو العقل، والسمع والبصر هما رسولان ما بينك وبين العقل، أي هما جنديين تحت سلطان العقل.ومعنى قوله :" كان عنه مسئولا" أي أن الإنسان يوم القيامة يكون مسئولا عن سمعه وبصره وفؤاده هل استعملها أم لا؟ أي هل أصغى السمع إلى قرار العقل مشفوعا بطريق السمع والبصر، أم ترك كل ذلك وأثر شهواته.واسم كان هو الإنسان.وكلمة أولئك يشار إليها إلى العاقل، وهنا إشارة عن السمع والبصر والفؤاد.ولما كانت هذه كلها أداة المعرفة ووسائل التفريق بين الحق والباطل، لهذا نزلها الله تعالى منزلة العاقل.ونحن بعد البحث والنظر من خلال طريق طويل جاءنا القرار العقلي عن طريق السمع والبصر أن الإيمان ابلله عز وجل حقيقة علمية وأن محمد ﷺ صادق، وأن القرءان كلام الله عز وجل، وبعد ذلك قدسنا كل ذلك.

(الدرس 55)

11 ـ المبدأ الحادي عشر: وهو في قوله تعالى :" وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا " نلاحظ أن الخطاب هنا للمفرد "ولا تمشي" مع أن الله عز وجل يخاطب عباده جميعا، وهذا من أجل تأكيد الخطاب وتوجيهه إلى كل فرد فردٍ على حدا، وكأن كل واحد منا هو المخصوص بالخطاب الذي يتوجه إليه من لدن مولاه وخالقه.لماذا قال :"في الأرض" وهل يمشي الإنسان إلا في الأرض؟ هذا بيان لواقع، ثم هو بيان لبشاعة هذا الذي ينهى عنه الله سبحانه وتعالى.والله تعالى يبين لنا واقع الإنسان وأنه مشدود إلى الأرض، وأنه لا يتحرك إلا عليها، وهي التي تحتضنه، ولن يجد معاشه وأسباب استمرارية حياته إلا عليها.وقال :"مرحا" العلماء قالوا أنها مفعول مطلق لفعل محذوف أي ولا تمشي على الأرض تمرح مرحا عليها، وهذه الجملة في محل نصب حال.وهنا يصور لنا البارئ حال الإنسان الذي يطوف برأسه الاستكبار والعتو والطغيان والتباهي.وكلمة المرح هو الفرح الذي ينبثق من رؤية الذات، والفرح فرحان فرح محمود وفرح مذموم، قوله تعالى :" قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ " هذا فرح محمود.أما ذاك الذي ينظر إلى نفسه ويجد أنه يتمتع بمزايا لا يتمتع بها غيره فتأخذه الفرحة بذلك، وهي فرحة استكبار، وهذه الفرحة تسمى المرح، وهذا هو الفرح الذي نهى عنه قوم قارون قائلين له :" إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ".أما

الفرح المحمود أن يفرح الإنسان بنعمة وردت إليه من الله سبحانه وتعالى، فيدفعه الفرح إلى شكر الله عز وجل وإلى الثناء عليه وللالتزام بأوامره.إذن من خلال النتائج تصنف نوع الفرح، فإن كانت النتائج تدعو إلى الزهو بذات والتباهي بالنفس فذلك هو المرح المذموم، أما إذا كان فرح يجعلني أحمد الله وأشكره وأزداد حبا له وتمسكا بأمره فهو الفرح المحمود.والمرح هو الاستكبار وهو مما لا يعد فيه الله تعالى بالعفو بل يتوعدهم بالعقاب في كثير من الآيات.ثم قال عن سبب نهيه عن المرح قائلا :"إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا " أي على من تتكبر فقبل أن تتباهى على الناس من أمثالك أتبث تباهيك على الأرض التي تحتقرها وأنت تمشي فوقها بقدميك، و أتبث مظاهر استكبارك على هذه الجبال الراسيات.

المستكبر تتجلى فيه مظاهر الاستكبار في وصفين وهما شدة ضربه بقدمه الأرض كأنه يريد أن يخترق الأرض، وأن يظهر تفاهتها تحت قدميه، والصفة الثانية أنه يظل يرفع رأسه عاليا وكأنه يريد أن يُطاول الجبال وكأنه يقول أنا هامتي تتسامى على الجبال وعلوها.لهذا البارئ قال له :" :"إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا " وهذا الأسلوب القرءاني نوع من أنواع السخرية للمستكبر، وهو تصوير بليغ للمستكبر وهو يعبر عن استكباره بهذا الشكل.وهذه الطبيعة من الكبائر، وعلى الإنسان أن يعلم هويته يعيش بها ويرحل بها وهي العاصم من الاستكبار، والنفس البشرية إذا لم تلقى التربية الدينية الصحيحة كانت مثل نفس فرعون وفي هذا خطر كبير.والله تعالى متعنا بشيء من قدرته وعلمه وحكمته والأنا وهي صفات خطيرة وهذه هي خلافة الإنسان لله تعالى، وهذه هي الأمانة التي حملها الإنسان، ولكي يمارسها الإنسان ممارسة العبد لربه عليه أن يتشبع بصفة العبودية لله تعالى، وتغذية مشاعره كونه عبدا ذليلا لله سبحانه وتعالى.ويتأتى هذا بكثرة ذكر الله والابتعاد عن المحرمات.

والإنسان يتمتع بصفات كثيرة ولكنه لا يملكها، ومالكها هو الله تعالى الذي متعك بها إلى حين.لهذا عليك أن تتذلل لمولاك وأنت لا تملك شيئا من هذا الذي قد يسكرك وتتكبر به على عباد الله."الشيخ الرفاعي" يقول في كتابه "البرهان المؤيد":" حشرت محشر هامان وفرعون إن كنت أرى نفسي خيرا من أي واحدا منكم ".

ـ ثم قال تعالى :" كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا " أي كل هذه المبادئ التي أحصاها ربنا وذكرنا بها، قال سيئه عند ربك مكروها، لأن من هذه المبادئ ما صاغه ربنا بشكل سلبي مثل

هذه الأخيرة، ومنها ما صاغه البيان الإلهي إيجابا، مثل قوله :"وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ" لهذا حدد البارئ بقوله سيئه، فجمعت هذه العبارة صفة الكراهية والتحذير لكل ما ذكر.فالجانب السلبي طبعا مكروه، والإيجابي سيئه مكروه.والقصد هنا من كلمة مكروه هو المعنى اللغوي ، أي شيء يمقته الله عز وجل ويكرهه، وهو من المحرمات.

ثم رد البيان الإلهي العجز على الصدر وهذه من مظاهر البلاغة العربية، حيث افتتحت المبادئ بقوله تعالى :" وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ " ثم ذكر لنا طائفة من المبادئ التي درسناها، ثم إن الله عز وجل يعيدنا إلى نفس الفاتحة فيقول :" ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا" واختتمت المبادئ أيضا إلى الدعوة إلى توحيد الله عز وجل ونبذ الشرك، مع وجود هنا تحذير خطير وتأنيب ووعيد وهو خطاب موجه لكل فرد منا.والسؤال لماذا الفتحة والخاتمة لهذه المبادئ هي توحيد الله تعالى؟ الجواب ليبين لنا الله سبحانه وتعالى،أن الضمانة التي تيسر للإنسان الالتزام بهذه المبادئ هي إيمانه بوحدانية الله عز وجل.

(الدرس 56)

النص الرابع في موضوع القصص

لقد سبق أن درسنا موضوع القصة دراسة نظرية علمية، من حيث الحكمة من وجود القصة في القرءان أسلوب القصة في القرءان، ومظاهر فنية القصة في كتاب الله عز وجل.وندرس الآن الموضوع من الناحية التطبيقية، من خلال نص نقوم بتحليله وشرحه وتتبين لنا الخصائص التي سبق لنا دراستها.هي قصة سيدنا نوح مع قومه، وهي في سورة هود، وهنا نجدها أكثر تفصيلا مما هي عليه في السور الأخرى، ومظاهر فنية القصة موجودة هنا، ونحن تجاوزنا المشهد الأول الذي فيه حوار سيدنا نوح مع قومه ،والذي امتد معهم لسنوات طويلة.وندرس المشاهد الأخرى وعددها خمسة، ففي المشهد الأول يصور لنا البارئ غضب الله على قوم نوح، وكيف يأَّس نوح منهم وأمره بالإعراض عنهم والعكوف على صنع سفينة.المشهد الثاني سيدنا نوح عاكف على صنع السفينة.المشهد الثالث الفجاءة التي وقعت لقوم نوح عندما أمر الله عز وجل السماء أن تهطل شآبيب وأمر الأرض أن تتفجر ينابيع، ويصور لنا البارئ كيف أن سفينة نوح سارت بين الأمواج العاتية، وكيف تمكنت تلك السفينة من مواجهة الأمواج.وفي المشهد الرابع فجأة نجد أن هذا الغضب قد سكن، وكيف أن السماء قد أقلعت، والأرض قد جفت ينابيعها، والسفينة رست في المكان الذي أراده الله تعالى.وفي

المشهد الأخير حديث سيدنا نوح لربه بأسلوب العبد الذي يستجدي المعرفة والفهم، وهو يتساءل عن ابنه ولما لم ينجو وحاق به ما حاق الكفرة؟ وسننظر جواب البارئ له.النص هو التالي :

يقول الله عز وجل :" وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ(37) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)

المشهد الأول: من قوله تعالى :" وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ " هذا هو المشهد الثاني، البارئ يخبر نبيه أن كل الذين بقوا على ظلالهم وكفرهم لن يؤمنوا، ولن يجدي معهم الحوار مهما تطاول، فلا تبتئس وأقصر في الحديث معهم، اقطع حبل الحوار بينك وبينهم، وإنه قد حاق عليهم غضب الله ومقته.هنا يقفز إلى الذهن سؤال: لماذا لن يؤمنوا؟ هل قضى الله عز وجل أن يغلق مفاتيح قلوبهم؟ هل قضى الله عز وجل أن يحجبهم عن الحق؟ نعم

قضى الله بذلك.وهنا ربما قال قائل إذن هم مجبرون على الكفر، وقد يقول قائل منهم فما ينبغي أن نعاقب لأننا أجبرنا على الكفر قهرا.الجواب عن هذا كله هو التالي: أن سيدنا نوح لبث سنوات طويلة وهو ينصحهم ويرشدهم ويجيب عن أسئلتهم، ويوسع صدره لهم على الرغم من شدتهم وغلظ موجهاتهم له، وكان كل واحد منهم حرا يملك أن ينقاد للحق الذي يخاطبهم به نوح، ويملك أن لا ينقاد، أي يملكون زمام قرارهم، لكنهم استكبروا وصدهم هذا عن الانقياد له، وأعطاهم البارئ مهلة لعلهم يرجعون عن استكبارهم، ولعلهم يتحررون عن طغيانهم.حيث لبث سيدنا نوح يدعوهم مدة ألف سنة إلا خمسين عاما.ولهذا كله حاق عليهم غضب الله سبحانه وتعالى، ومن مظاهر هذا الغضب أن يغلق منافذ قلوب المستكبرين، لكن في الوقت الذي يشاءه الله عز وجل.وهذا هو العقاب العاجل لهم، وهو حجبهم عن الحق.

ـ وقوله تعالى :" فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ " أي يئس قلبك منهم ومن تما لا تأس ولا تحزن، واقطع الحوار معهم.فقال له :" وَاصْنَعِ الْفُلْكَ " ويقول يا ربي أنا لست نجارا ولست مهندسا، فجاء الجواب :" بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا" أي برقابتنا ولن يستطيع أحدا أن يمتد إليك بأي سوء من قومك، ووحينا أي جهلك بهذا الذي أمرك به سيتبدد بإيحاء الله عز وجل لك كيف تصنع، أي القدرة الإلهية تسعفك بهذا الذي أمرت به .ثم يقول له البارئ :" وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ"وهذه من مظاهر الغضب أي إياك أن تحدثني عنهم، وإياك أن تسترحمني بشأنهم، والحكم فيهم قد صدر وهو أنهم مغرقون، وقرار الله نافذ وكأنه قد نفذ لهذا قال مغرقون.وهنا انتهى المشهد الأول حيث يظهر غضب رباني لهؤلاء الظلمة.

المشهد الثاني: ويفتح الستار وسيدنا نوح غارق في كم هائل من الخشب، منهمك في صناعة لا شأن له بها وهي صناعة سفينة، سبحان الله الذي علمه علم النجارة والهندسة والفيزياء، ويقول تعالى في هذا المشهد :" وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ" قال ويصنع فعل مضارع، أي الآن سيدنا نوح أمامكم وهو منهمك في صنع السفينة وعاكف على تجميع الألواح الخشبية لتنفيذ هذا الذي قد طُلب منه، تصوير لواقع كأننا نشاهده.ثم قال :" وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ"بين الحين والأخر يمر جمع من قومه الكفرة الفجرة ليقفوا أمامه ساخرين..ما الخبر نراك أصبحت نجارا؟!لماذا تصنع هذه السفينة وما الحاجة إليها؟! وهو عاش ما بين الشام والعراق، وهم متعجبون من حاجته إلى السفينة

هناك.وربما حاول هؤلاء القوم إيذائه، لكن الله تعالى قطع لهم سبيل إيذائه بقوله:" وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا "، وسيدنا نوح تلقى من ربه ما يطمئنه، وما يتعالى به من سخرية هؤلاء الناس، وأنه لن يستطيع أحدا أن ينال منه منالا، وكان يجيبهم بهذه الجملة :" قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ" أي أنتم اليوم تسخرون منا وغدا يأتي دورنا ونكون نحن الساخرين منكم.ثم قال :" فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ"شرح سيدنا نوح طرفا من سخريته بهم عندما يأتي ميقات ذلك المحدد في علم الله عز وجل، وهو "عذاب مقيم " أي باق خالد يورثكم الندم في ساعة لم يعد ينفع فيها الندم قط.

ملاحظة: الإنسان الذي لم تترسخ في عقله عقلية الإيمان، ربما استشكل هذا الكلام .في إنسان لا علم له بالنجارة، ولا هندسة السفن، ولا بقوانين الفيزياء.كيف أصدق أن هذا الإنسان الذي لم يمسك آلة من آلات النجارة في حياته، واستطاع مع هذا أن يصنع سفينة عملاقة، ويقول هذا أنا لا أتصور ذلك أنا رجل علم ؟؟

الجواب نقول لهذا العلم إدراكك الشيء على ما هو عليه بدليل، وهذا الإدراك جاء من البارئ عز وجل، ونعمة الإدراك بهذا انفعلت بها ولم تفعلها إذن هي ليست ملكك.والله تعالى الذي متعني بهذا الإدراك قد يجعل مني أشم حقائق الأشياء من بعد.والذي يستشكل هو غير المؤمن.

لو تأملنا في بعض الحيوانات لوجدناها تتمتع بقدرات أكثر منا، فانظر إلى عش الطائر، وإلى النملة وهي تحمل شيئا أكبر من وزنها، وانظر إلى بيوت النحل وخلاياها المتناسقة ووو.. وأنت أيها الإنسان لن تستطيع أن تفعل ذلك إلا بوسائل.وهنا نقول البارئ عز وجل هو الذي علم هذه كلها كما علم الإنسان.

المشهد الثالث: ويكشف الستار على ما يلي: في قوله تعالى :" حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ" كلمة حتى ما دورها هنا؟ ينطوي في داخل هذه الكلمة أحداث طويلة مرت، الله أعلم بها وبزمن الذي احتضنها، ما بين بداية صنع السفينة وهذا الذي يذكره الله عز وجل، ويطوي جميع تلك الأحداث ويشير إليها بكلمة حتَّى، وقال جاء أمرنا أي حان ميقات تنفيذ أمرنا، الذي كان في الأزل من علم الله تعالى.وقال :"وفار التَّنور" والتَّنور وما تفجر منه من ماء بدل النار هي نقطة الصفر لهذا الأمر، والتَّنور شأنه ينبع بالنار، وفعلا كان يفيض بالنيران واللهب وفجأة اختفت النيران

واختفت ألسنة اللهب، وفاض هذا التنور بينبوع من الماء، وإذا كان هذا شأن التنور فما بالك بالأماكن الأخرى، حيث تحولت الأرض كلها إلى أفواه فاغرة تنبع بالماء، وتحولت السماء إلى ما يشبه أفواه قرب يهطل منها الماء، تماما كما وصف البارئ ذلك في سورة القمر في قوله تعالى :" كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ". إذا تحول فوران التنور إلى ينبوع ماء إعلان إلى أن الأرض تحولت كلها إلى ينابيع، وتحولت السماء إلى أبواب تنهمر منها المياه إلى الأرض.ثم قال البارئ :" قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا" وهي السفينة التي كانت جاهزة بأحسن ما تكون بصنع سيدنا نوح ،وقوله :" مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" أي من الحيوانات المختلفة ذكر وأنثى من كل صنف وقال :" وأهلك" أي أهل سيدنا نوح وقال له :" إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ " وهم الذين قال الله عز وجل عنهم أنهم مغرقون، ثم قال :" وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ" والواو معطوفة على أهلك، وهم قليلون، وفي العبارة مشاعر الأسى على هؤلاء الذين ذكروا بالله فلم يذكروا، وحاول سيدنا نوح أن يوقظهم فلم يستيقظوا، والحسرة توصف علينا نحن وليست على البارئ عز وجل.وهنا البارئ يصف الرحمة واللطف بهم، وكم و كم نبه وأرسل إليهم من يوقظهم لكنهم أثروا الغي والظلال، وهذا شيء مؤلم." وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ " وهذه جواب لمن ركب وكأنهم يقولون ماذا تفعل لنا هذه السفينة أمام هذا الطوفان والأمواج العاتية كجبال من المياه، ومن الذي يستطيع أن يقود هذه السفينة وسط هذه الأمواج بسلام واطمئنان، وهذا شيء أكيد يخطر بالبال.جاء الجواب :" بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا" أي الإله الذي يسر صنعها هو الذي سيجريها، وهو الذي يرسيها عندما يحين ميقات رسوها.والمسألة كلها منوطا بواحد لا ثان له، الأسباب هنا غابت وفاعليتها غابت، إن هو إلا فعل رب العالمين سبحانه.ثم صور لنا هذا المشهد بقوله تعالى :

" وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ " هنا يصبح شكل السفينة بالنسبة للأمواج العاتية والتي يشبهها بيان الله بالجبال، أشبه ما تكون بذبابة أو سمكة صغيرة في عرض البحر.وصور لنا البارئ هذا لنعلم أن الذي أنجى السفينة هو الله سبحانه وتعالى.وبعد ذلك يأتي حوار بين سيدنا نوح وابنه وهو حوار مهم جدا، سنجد فيه معان كثيرة جدا نتبينها من هذا الحوار.وفي الدرس القادم نتابع.

(الدرس 57)

وصلنا إلى مشهد الطوفان وقد استشرى وهاج من خلال مياه انهمرت كأفواه القرب من السماء، ومن خلال الأرض التي تحولت إلى ينابيع وإلى عيون، وفي لحظات تحولت اليابسة فيما بين الشام والعراق إلى بحر لا تجد من حوله شاطئ، أو ساحلا، في هذه الأثناء يصف لنا البارئ وظيفة هذا الفلك أو السفينة، ويلفت نظرنا إلى أنها ليست ي التي أنجت نوح ومن معه، بل هو أمر أخر ينبغي أن نخترق الوسائل المادية إليه، وهذا من قوله تعالى :" وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ " فالله تعالى هو المنجي للمؤمنين وهو الذي يحميهم وهو الذي يبعد عنهم أسباب الغرق، في وسط أمواج كالجبال.

ـ بعد ذلك يصور لنا البارئ مشاعر الأبوة التي اهتاجت في قلب سيدنا نوح وهو على ظهر السفينة، في اتجاه ابنه، وكان كما قال البيان في معزل، وهو غير أبه بالسفينة وغير مفكر بأن يلتجئ إليها مع من التجأ، ولواعج الأبوة معروفة ونرى هنا قوله تعالى واصفا الحوار الذي دار بين سيدنا نوح وابنه :" وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ " هي شفقة واحدة، لكنها اهتاجت بين جوانح سيدنا نوح، بدافعين اثنين: أولهما الدافع الذي يحمله على أن يكون ابنه مع المؤمنين لا مع الكافرين، وأن يستيقظ في هذه اللحظة الخطيرة للحقيقة التي لا ينبغي أن يتيه عنها وهي عبوديته لله، ويستيقظ للفطرة الإيمانية التي جعلها الله عز وجل مغرسا في قلوب الناس جميعا، ويريد من ابنه بدافع الشفقة أن لا يذهب ضحية استكباره.

الدافع الثاني :أنه يريد لابنه النجاة من الغرق.

وأجابه الولد مبينا لنا البارئ منطق الإنسان الذي يؤله الطبيعة، بدلا من أن يؤله خالقه عز وجل :" قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ" ومهما كان أي إنسان ولو كان طاغية ومستكبرا إلا ويؤله شيئا ما، فإما أن يهديه الله عز وجل إلى المعبود الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى، فيدرك أن إلهه هو الله، أو أن يكون محجوبا عن الله تعالى بحجاب الاستكبار، وعندها يؤله غيره.فابن نوح حجب عن الله لاستكباره، لهذا نظر يمينا وشمالا فلم يرى إلا إلها مزيفا واحدا وهو الطبيعة، لهذا قال ما قاله ظنا منه أن الجبل يعصمه من الماء.فنسب العصمة إلى الجبل فرارا من الماء.فأجابه والده :" قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ" حوار بين منطق الإلحاد ومنطق الإيمان والعقل والإدراك، فالمشكلة ليست مشكلة ماء، فالمشكلة أن الله عز وجل أوعز إلى هذه المياه إلى أن تكون

السبب الذي به هلاك هؤلاء المستكبرين على الله، والماء جند من جنود الله :" وما يعلم جنوده إلا هو" ويجنده أيضا للحياة، مثل كثير من جنوده.وصحح كلام الولد قائلا له لا عاصم اليوم من أمر الله، وليس من الماء.فالأمر صادر من الله فما عساها أن تفعل الجبال، ورحمة الله تعالى هي العاصم.ثم قال تعالى :" وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ " لم يتطاول الحوار، حيث ما كاد سيدنا نوح ينهي كلامه هذا وابنه في معزل يسمع كلامه، حتى جاءت موجة عاتية حالت ما بين الأب وابنه، فابتلعت ابنه وذهب فيمن ذهب مختنقا.

نتساءل كيف استطاعت هذه السفينة أن تنجي المؤمنين مع الحيوانات وما إلى ذلك؟ نعم الصورة هي صورة سفينة ،لكن لا ينبغي أبدا أن نقف في هذه الصورة، وبيان الله يعيننا على ذلك، لنتأمل ما قاله في سورة القمر:" وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ"قال حملناه سبحانه وتعالى، وهون من شأن هذه السفينة قائلا على ذات ألواح ودسر.قد يتساءل أحدنا ما دام الناجي هو الله فلماذا كانت هذه الصورة؟ ألم يكن الأولى كي نرى سلطان الله عز وجل أن يبعد هذه الوسيلة؟ الجواب أننا قلنا أن لله تعالى سنن في هذه الحياة التي نعيشها، ومن جملتها أنه يأخذنا بعالم الأسباب، أي صور لعوامل فاعلة ولكن لا فعل فيها ولا أثر لها، وهذا لأجل زرع عوامل التعاون والأنس و التآلف بين الناس جميعا ، وفي نفس الوقت هي أسباب لا فاعلية لها.

المشهد الرابع: في قوله تعالى :" " وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "وكلمة قيل هي من لدن علام الغيوب سبحانه وتعالى، قال للأرض ابلعي ماءك ولم يقل جففي وهي عملية تأخذ وقت طويل، والأمر بالابتداء مناسب للأمر بالانتهاء، كما كان الأمر للأرض بأن تتحول إلى عيونا تتفجر بالمياه الغامرة، وكان الأمر موجه إلى السماء بانفتاح أبواب تنهمر منها مياه عاتية، فالنهاية متناسقة مع البداية، وفي لحظة واحدة استجاب الكون لأمر الله تعالى، كلها جنود بيد الله سبحانه وتعالى.ولكي يبين لنا أن الأمر نفد خلال لحظات قال :" وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ" غيض يعني اختفت المياه، وانتهت المشكلة، واستوت السفينة بأهلها الذين أنجاهم الله سبحانه وتعالى على الجودي وهو جبل بشمال العراق على الحدود التركية.جمل ثلاثة تصور لنا الهدوء والسكون، بعد تلك الزمجرة العاتية التي طالت بالأمد الذي لا نعلمه.وعن هؤلاء القوم المستكبرين الذين كانوا يقولون لسيدنا نوح :" مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ

الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ"عن هؤلاء قال عنهم الله تعالى:" وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " رست السفينة وهي تحتضن الذين آمنوا، أما عن أولئك الذين طغوا وبغوا فأجتثهم انحسرت عنها المياه فإذا بها ملقاة في الأماكن التي غرقوا فيها.وقيل هلاكا للقوم الظالمين.

وهذا الذي جرى في عصر سيدنا نوح يتم في كل عصر بالنسبة لصورتين صورة الطغاة المستكبرين، وصورة المؤمنين المتذللين والذين تجلببوا بجلباب العبودية لله عز وجل، وفي كل وقت يحمي هؤلاء وينتصر لهم، ويعرض الطغاة للهلاك.هذا معنى قوله :" وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ"

(الدرس 58)

المشهد الخامس: وفيه سيدنا نوح وشفقته على ابنه، حيث أن رب العالمين قال لسيدنا نوح :" قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ " وابنه من أهله، فدفعت سيدنا نوح لواعج الشفقة على ابنه الذي أزهقه وأهلكه الطوفان وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ"كلام في منتهى الأدب مع رب العالمين، وكلمة نادى القصد منها توجه سيدنا نوح بكليته إلى الله عز وجل، حيث قال إن ابني من أهلي، وأنت قلت وأهلك، ونشم هنا سؤال وطلب استيضاح، وقال ووعدك الحق، أي أنك وعدت أن تنجي كل من هو من أهلي ومن المؤمنين، وقال وأنت أحكم الحاكمين، معناه أيًا كان حكمك فهو العدل ،لا أشك في هذا لكنني أستوضح، وجاءه الجواب :" قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ " ففي قوله إلا من سبق عليه القول، بمعنى من مقتك والعقاب الذي قد قضى به عليه لكفر أو استكبار أو نفاق، وأنت يا نوح لا تعلم طوية ابنك، حيث كان في الظاهر معك، لكنه في الباطن كان مع الكافرين، وكأن البارئ يذكره بما قاله من قبل إلا من سبق عليه القول وابنك منهم.وجاء هذا بعد أن قرر ابنه الكفر ،وأثر سيرة المستكبرين على الله. وكونه مع الكافرين أيكون هذا إلغاء لبنوته لقوله تعالى إنه ليس من أهلك؟ الجواب عن هذا أن الله عز وجل عندما بين لنوح أن ابنه كان كافرا، ولم يكن مؤمنا بين له أن أهلية النسب لم تعد لها قيمة عندئذ أمام أهلية التلاق على الإيمان، حيث عندما تكون هنالك أهلية نسب متوجة بالإيمان بالله تعالى هذا شيء رائع، لكن عندما يغيب الإيمان بالله ويحل الكفر محله، لا تبقى عندئذ فائدة لأهلية النسب.حيث أن الإبن والولد إذا اختلفا دينهما لا يتوارثان، لا فاعلية هنا لأهلية

النسب.وكلمة أهلك هنا حقيقتها الشرعية مقدمة على الحقيقة اللغوية والتي يقصد بها النسب وهي موجودة.أما حقيقتها الشرعية أن يكون الولد مرتبطا مع أبيه على الإيمان وعلى حدود الله وشرعه، وإذا لم يوجد هذا الجامع المشترك فإن هذه الأهلية لم يعد لها وجود بمعناها الشرعي.

والدليل أن هذا هو مقصود البيان الإلهي لما قال له :" إنه ليس من أهلك " قال تعالى بعد هذا :" إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ " وهذه الجملة نزلت من التي قبلها منزلة العلة من المعلول.يعني أنه ليس من أهله لأنه ذو عمل غير صالح.فقال له :" فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ " يبين لسيدنا نوح أنه لا يعلم إلا ظواهر الأشياء، وأما الخفية الله تعالى وحده يعلمها.هنا قد يستشكل البعض من هذا ويقول بالعكس أنا عندما لا أعلم عليَّ أن أسأل، والذي أسأله هو العالم، وهنا البارئ قال له :" فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" الجواب، أن المعنى المراد هنا يعني لا تسألني سؤال عتاب عن مثل هذا الأمر، فعتابك كان اعتمادا على جهلك، وهذا لا يتأتى.ولكن هل كان سؤال سيدنا نوح عن ابنه عتابا ؟؟ في الظاهر ليس عتاب، وصيغة ليست صيغة عتاب كما قلنا، وفيها منتهى الأدب مع الله تعالى، نعم هو سؤال وتشم منه رائحة العتاب، ولهذا كان جواب الله له :" فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ"أي لا تسألني معاتبا، و لك أن تسألني هل كان ابني مؤمنا أم لا ؟أقل لك أنه لم يكن مؤمنا، عندئذ تعلم لماذا هلك مع الهالكين، أما أن تقرر سلفا أنه كان مؤمنا هذا تسرع، شيء لا علم لك به، لك أن تسألني لكشف السر عنه هل كان مؤمنا أم لا، أما أن تفترض من عندك أنه كان مؤمنا ثم تسألني سؤال العاتب فلا.

ويقول له تعالى :" إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ "وأعظك هنا يعني أحذرك، أي أقول لك منبها ومحذرا أن تسلك مسالك الجاهلين في العتاب المتسرع.

ثم قال تعالى :" قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ" هل في هذا الذي يقوله الله تعالى معنى أن سيدنا نوح أساء الأدب مع ربه؟ لا.وهل في هذا ما يدل أن سيدنا نوح ارتكب ذنبا، وأن عليه أن يستغفر الله عز وجل من هذا الذنب الذي ارتكبه؟ لا.هنالك من تسرع وقال أن سيدنا نوح ارتكب ذنبا لذا عليه أن يستغفر ربه.ليس في سؤال نوح رغم أن فيه إشارة لعتب لكنه ليس بمعصية أبدا.ومن تما ليس في كلام الله له ما يدعوه أن يستغفر الله من ذنب ارتكبه، وإنما كلامه دعوة في المستقبل أن لا يسأل عن أمر تصور سلفا شيئا غير حقيقي فيه، فكان تصوره سبب سؤاله، موعظة الله تعالى للمستقبل وليس عتابا عن شيء وقع،

أو دعوة إلى أن يستغفر الله من ذنب ارتكبه.من مظاهر التي تتجلى فيها عبودية الإنسان لربه أن يتجه الإنسان بالخطاب إلى الله عز وجل والذي يلح عليه فيه بكشف السوء وكشف الضر، وإن جاء إلحاحه بنوع من التشدد أو العتب.هذا شأن العبد لربه.وكلام سيدنا نوح من قبيل ما دعاه سيدنا رسول الله يوم الطائف.

والرسل كلهم يجتهدون إذا انقطع عنهم الوحي، وهذا ما اتفق عليه جميع علماء أهل الكتاب والسنة، وعند اجتهاده قد يصيب الحق الخفي عند الله وقد لا يصيب، عندها يأتي الوحي لتوجيهه إلى الحق.ولكن اجتهاد الرسول ﷺ أيا كانت نتيجته وأيا كان الحكم الذي أدلى به بالنسبة لنا حق دائما وعلينا أن نطيعه.أما بالنسبة إلى ما بينه وبين الله يمكن يكون أصاب الحق وممكن أن لا يكون، وهذا لا نتدخل فيه نهائيا.مثل قصة رسول الله والسيدة خولة.

ـ اختتمت الآيات بقوله تعالى :" قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ " انتهى الطوفان وانتهى كل شيء، وسيدنا نوح بالسفينة الراسية في الجودي، فجاءه الوحي أخيرا بهذا التوجيه، يأمره الله أن يهبط من الجودي إلى الأرض اليابسة التي ستستقبلك بسلام وأمن وطمأنينة، فالخطر قد زال، واترك الحيوانات أيضا تعيش في أرض الله الواسعة، والسلام للمجموعة البشرية الباقية، وهذا يعني أن الأصل في حياة الإنسان وعلاقاتهم مع بعض هو السلم، ولئن رأينا عوارض الحرب فما ذلك إلا حراسة لسلم، ودليل قوله تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً "

ومعنى قوله وبركات عليك وسبب وجود هذه الكلمة هنا هو: أن الأرض قد أغرقها الطوفان وهي حديثة عهد برجوع إلى شأنها، لهذا بشر المولى سيدنا نوح أنه ببركات الله تعالى تعود الأرض كما كانت فأنبتوها وتنبث لكم وتكون مهادا لكم، وهذا هو معنى البركة أي أرض غنية بخيراتها، وبركة كل شيء بمعنى السر الذي أودعه الله تعالى فيه، ولو انفصلت هذه البركة عنه لعادت الأشياء صور جامدة، كأنها أشكال وأشباح.وقال :" وعلى أمم ممن معك" أمم هم الذين كانوا معه من المؤمنين، وقال :" وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ " وكأن البعض من هؤلاء الذين نزلوا معه يبارك الله لهم والبعض لا، لكن لا يقصد المولى هؤلاء، بل ذريا تهم الآتية من بعدهم وفيهم الصالحون وفيهم السيئون.وهذه سنة الله تعالى الماضية إلى يوم القيامة .بهذا ختم البيان الإلهي

الحديث عن قصة سيدنا نوح مع قومه.وهنا كيف نجمع بين قوله وأمم سنمتعهم وبين إهلاكه لأقوام من بعد نوح كقوم لوط وعاد وثمود... فالعذاب الأليم ليس محصور ليوم القيامة كما قد توهم البعض، لا بل يمتعهم لمدة ثم يرسل الله لهم العذاب وهذا في الدنيا.وهذا الكلام شرحه لنا المولى في أماكن أخرى وهو يشرح سننه، في قوله تعالى :" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ"

(الدرس59)

النص الخامس في الحجاج والنقاش

كثيرة هي الآيات القرءانية التي يتوجه البيان الإلهي فيها إلى التائهين والمشركين والضالين بالمناقشة والحجاج، وللقرءان أسلوبه المتميز في الحجاج والنقاش، وعلينا أن نأخذ فكرة عن أسلوب القرءان في مناقشته للمبطلين، والآداب التي تستخلص من أسلوب القرءان في هذا الموضوع، والنص هو من أواخر سورة النمل وهو التالي :

قال تعالى :" قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59)أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ(62) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(63) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (64) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (66) " هذا النص يواجه به البيان الإلهي الضالين والمشركين والمبطلين على اختلاف صنوفهم وعلى اختلاف أزمنتهم.

1 ـ يبدأ البيان الإلهي في خطاب لسيدنا رسول الله ﷺ بقوله عز وجل :" قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ" هذا بداية كلام جديد والذي قبله هو حديث البارئ عن طائفة من المشركين التائهين الذين خلو من قبل، وافتتح الكلام هنا بإعلان الحمد لله عز وجل وحده، وإعلان السلام على عباده الذين اصطفى، وهم الرسل والأنبياء السابقون.

ـ ومن هنا استظهر كثير من العلماء أن الإنسان عندما يريد أن يفتتح حديثا يواجه به الناس، إن شفهيا بخطاب أو عن طريق كتابة ينبغي أن يهتدي بهدي القرءان فيبدأ حديثه بالحمد لله سبحانه وتعالى والصلاة والسلام على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء السابقين أيضا.وهذه سنة ماضية.وإضافة "والصلاة" فهي دعاء وترد من أمثالنا، ولا يرد هذا من الله عز وجل.ولكن السلام إخبار حيث يثبت الله السلام لسائر أنبيائه ورسله الذين خلو من قبل، ويعبر عنه بقوله :"عباده الذين اصطفى" وهذا أدبا علينا أن نلتزم به.

ـ ثم بدأ الحوار بقوله :" آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ" أي قل لهؤلاء التائهين آالله خير فالهمزة الأولى همزة استفهام والثانية جزء من اسم الله، والخير معروف فهو كل شيء اجتمعت فيه المحاسن بكل أنواعها، بالبارئ يطلب من رسوله أن يسأل المشركين بأن يستحضروا عقولهم ويقارنوا بين هذه الأصنام والحجارة التي يعبدونها وبين الله سبحانه خالق هذا الكون وتلك الأصنام أيهما خير؟ وأفعال التفضيل هنا غير واردة في أيهما أبلغ في الخير ، وهنا الأصنام أصلا هل فيها خير.وعندما يكون أحد الأمرين شرا والأخر خيرا فالمقارنة بالتفضيل غير واردة.للإجابة على الإشكال قال العلماء أن البارئ سبحانه وتعالى هنا جار المشركين في تأليه هذه الأصنام متصورين أن فيها خيرا، لهذا كان السؤال أيهما خير.وهناك من قال أن خير هنا ليست من أفعال التفضيل وإنما هي تعبر عن جنس الخيرية، بمعنى أيهما فيه معنى الخير؟ الله أم هذه الأصنام التي تعبدونها؟ والله تعالى من خلال السؤال يتبين أنه جعل الخيرية نابعة من ذات الله سبحانه وتعالى، وإذا كان الله هو مصدر الخير إذا ينبغي أن نبحث عن الخير في مصدره.وعلينا أولا أن نؤمن بمصدر الخير، ثم ننقاد إلى ما يأمرنا به، وننفذ ما يوصنا به، ونبتعد عن ما يحذرنا عنه سبحانه وتعالى.

2 ـ يطرح البارئ تساؤلات حيث يأمر المصطفى بأن يواجه بها المشركين.

ـ فالسؤال الأول يتعلق بهذه المكونات كلها جملة.

ـ وسؤال ثان عن قضايا علمية تتعلق بالأرض والمدخرات التي في باطنها، وعوامل استقرار الإنسان فوقها من جاذبية ومن ثقل معين للأرض، وقابلية الاستنبات.

ـ ثم سؤال ثالث يتعلق بالإنسان وذاته، وكيف أنه في كل الأحوال في داخله فطرة إيمانية تستيقظ لا سيما عند وقوعه في الشدة تراه يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى .

ـ سؤال رابع عن مصير الإنسان بعد الموت إلى أن يعود مرة أخرى للحياة ويقف بين يدي الله سبحانه وتعالى.

هذه الأسئلة الأربعة المقصود منها إيقاظ هؤلاء السامعين إلى الحقيقة التي تقول إن الإله واحد، وما من إنسان إلا وهو عبد مملوك لله عز وجل بالأدلة العلمية، منها ما يتعلق بالإنسان، أو بالتجربة والمشاهدة.فنوَّع الله الطرق لإيمانهم فإن لم يؤمنوا فذلك بسبب عصبياتهم الرعناء التي تجعلهم عما وبكما وصما.

السؤال الأول: في قوله تعالى :" أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ" كثير من المفسرين أن "أمَّن" قالوا إنها موصولة أي أم موصولة بما قبلها، ويجعلون "من" أذات موصولة.والدكتور قال أنه يرى حسب سياق الكلام أن تكون "من" استفهام، حيث بدأ بقوله :" آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ" انتهى الكلام، وهذا الاستفهام تقريري يحتاج إلى براهين لبيان ما يقرره الله عز وجل بأن الله خير، ودليل على ذلك هذه الأسئلة الاستفهامية، و"أم" للإضراب أي دعك من الكلام السابق، تعالى لنسأل عن من خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة... ويأتي استفهام متولد من الاستفهام السابق بقوله" أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ " إذا "من" هذه التي تتكرر أذات استفهام، وهو استفهام تقريري يلاحق هؤلاء المشركين ليلجئهم إلى الجواب القائل بل هو الله سبحانه وتعالى.و"أم" للإضراب، ومن هو الذي خلق السموات والأرض أهي أصنامكم التي تعبدونها؟ هل لها شركة مع الله في خلق شيء.والسموات هو كل ما علاك فأظلك، ومن أنزل الماء من السماء؟ في صدر الآية اعتمد فيها البيان الإلهي على الغائب، ثم قال فأنبتنا، والمقتضى أن يقول وأنبت، لماذا وما سر هذا الالتفات؟ لما قال أمَّن خلق، وقوله وأنزل لا أحد يتطاول ويقول أنا، بل كل عاقل يقول الله، لكن لما وصل إلى النبات حيث ما أكثر الذين يزرعون ويفلحون ثم يظهر النبات ويظن أنه هو الذي أنبت وغرس الشجر ووو فلما كان في الناس من ينسب نبات الأرض إلى

نفسه، في حين أنه زرع البذر والبارئ هو الذي حول البذر إلى نبات وإلى شجر وأخرج منها الثمار، لهذا التفت البيان الإلهي من الغائب إلى المتكلم قائلا فأنبتنا، وهذا لتنبيه أن الفلاح لم يفعل شيء، فالبارئ هو خالق النبات وجعلها ذات بهجة والتي تأتي من الخضرة ومن الزهور العجيبة الغريبة والمتنوعة، وقال حدائق والفرق بينها وبين البستان أن الحديقة يحدق بها صور.وقال :" مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ " أي مستحيل أن ينبت أي واحد منكم مهما بلغت إمكاناته، ومهما سمت مداركه العلمية أن يفعل هذا، لو لم يبدع الله سبحانه وتعالى هذا الذي نراه على وجه الأرض.والعلم يجعلك تستغل ما هو موجود.ثم كرر الاستفهام بقوله :" أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ" ويعدلون يعني ينحرفون عن الجادة، أو أنهم يعدلون بين الخالق لكل شيء وبين الأصنام التي لا تفعل شيئا.

كن المصطفى ﷺ كلما وصل إلى نهاية كل آية من هذه الآيات يقول:" بل الله خير ولا نشرك بك أحد قط"

السؤال الثاني: في قوله تعالى :" أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" هذه الأسئلة تصب في حقائق علمية تتعلق بالأرض التي أقامنا الله عز وجل عليها، وكلمة قرار تمتص كل خصائص ومزايا الأرض والتي هي شروط لصلاح حياة الإنسان فوقها، ومن معان كلمة قرار أن الله جعل الأرض ما بين اليبوسة والرخاوة والرطوبة واللين بحيث تكون الأرض خاضعة لما تريد أن تسخر له من أسباب معايشك.ومن معان الكلمة أيضا أن الله عز وجل جعل للأرض وزنا معينا بحيث يستطيع الإنسان أن يجد قراره عليها، لأن جاذبية الأرض متعلقة بثقلها، ومن معان قرار أن الأرض ليس لها حواف بل جعلها ممتدة في كل الأنحاء.وقال :" وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا" وهي موجودة في الأصل وهي عروق ظاهرة وليست باطنه، وجعل بين الأنهر والبحار حاجزا، حيث جعل الأنهر مستواها أعلى من البحار حتى تصب الأنهر في البحار وليس العكس. وختم بقوله:" بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" لأن المسألة هنا بحاجة إلى علم.

(الدرس60)

- وفي الآية السابقة قال تعالى :" وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ" ورواسي هي الجبال، والرسو معناه استقرار الشيء الثقيل، وفي موضع أخر كي يبين لنا البارئ ثقل الجبال قال :" وألقينا فيها رواسي" وكلمة

الإلقاء بحسب الظاهر تتعارض مع كلمة الرواسي، ونقول ألقيت لشيء خفيف.لماذا عبر عن ترسيخ الجبال بالإلقاء؟ ليوضح لنا أن البارئ سبحانه وتعالى لم يجد عنتا أو صعوبة في إرساء هذه الجبال، وإنما هي كمن يلقي حجارة صغيرة هنا وهناك.ومهمة الجبال أن لا تميد الأرض بالناس الذين عليها.وهذا لأن الله تعالى أقامنا في عالم الأسباب.

السؤال الثالث :في قوله تعالى :" أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ" وقلنا سابقا أن أم أداة للإضراب بمعنى بل، أي تضرب عن الكلام السابق ولفت النظر إلى كلام جديد، ومن أداة استفهام، لأن البارئ يستثير بهذه الأسئلة أفكار الناس وعقولهم لمعرفة دلالة هذه المشاهد على ربوبية الله سبحانه وتعالى وهذا بالاستفهام التقريري، والغرض منه استنهاض العقل إلى الجواب أنه الله.

والمضطر هو الإنسان الذي ألجأته الضرورة القصوى إلى واحد فقط لا ثان له، أي ضرورته الخانقة قطعت أماله من الناس كلهم.أيقن أن الكل لن يفيده وبقي له واحد هو الله وهذا هو المضطر.حيث استيقظت الفطرة الإيمانية بين جوانحه فيتجه إلى الله يستنجد منه.والسؤال دليل وجود الله أنه وحده مجيب المضطر.

وقد يستشكل أحدا ويقول وكأن هذه الجملة توحي بأن الله تعالى يجيب المضطر دائما إذا دعاه؟ في حين أننا نعلم أن كثير من الناس يقعون في الضرورة ولا يستجاب لهم؟ فكيف نوفق بين ما توحي به الآية والواقع الذي نراه؟ الجواب أن "الْ" في كلمة المضطر ليست للاستغراق وإنما هي للجنس، وهذا للبعض وليس شرط الكل، أي من يجيب المضطر الذي يريد الله أن يستجيب دعاءه؟ ولماذا ليس الكل؟ النبي عليه الصلاة والسلام يقول في الحديث الذي يرويه "ابن عباس" ومن جملة ما أوصاه به رسول الله ﷺ قوله :" تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة " فمن تعرف على الله في الرخاء ملتجئًا شاكرًا سائلا، ويقينه أن رخاءه ذاك معرضٌ لزوال، لابد أن يجيب الله عز وجل دعاءه عند الشدة، أما من أعرض عن الله في الرخاء ثم تذكره في الشدة، فربما استجاب وربما لم يستجيب، والمسألة عائدة إلى حكم الله سبحانه وتعالى وقضائه. والمؤمن موقن أنه في كل لحظة هو بحاجة إلى الله .وقال تعالى :" وَيَكْشِفُ السُّوءَ" وهي تفسير لقوله تعالى :" يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ" أي يكشف عنه السوء الذي زجه في الضرورة، والسوء أشكال وألوان.ثم قال تعالى :" وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ" أي من الذي يجعلكم فئات يخلف بعضكم بعضا؟ هو الله تعالى، الذي خلق سلسلة البشر

فئات بعد أخرى تعيش فوق هذه الأرض، لو اجتمعت كلها على هذه الأرض لما وسعتها أضعاف الأضعاف لهذه الأرض.إذن البارئ بترتيب دقيق قسم الأجيال تلو الأخرى على هذه الأرض.وهنا خلفاء غير خليفة التي في سورة البقرة.والجواب هنا هو نفسه السؤال الذي ينطق به، ثم إن الله يؤكد الجواب بهذا السؤال الثاني التقريري:"أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ " أي هل تتصورون أن هنالك شريكا مع الله عز وجل ،وهنا قال قليلا ما تذكرون،والمسألة هنا نعيشها وكل واحد منا يمر بشدة فرخاء،لهذا ناسب أن يقول قليلا ما تذكرون.وكل سؤال يختمه الله عز وجل بالقرار الذي يتناسب معه.

ملاحظة: لماذا سمينا هنا النص بأنه حجاج ونقاش، هل من حوار بين اثنين هنا؟ نقول أن المراد بالحجاج والنقاش أن الله سبحانه يحاور عباده محاورة السائل منتظرا الجواب، وهو موجود لكنه غير مسجل في كتاب الله عز وجل.وهو عند الإنسان حسب واقعه وحسب استكباره، وحسب تعامله مع عقله.

(الدرس 61)

ويتابع البيان الإلهي في عرض أدلة تستثير عقول الناس، وتوقظ الفطرة الإيمانية بين جوانحهم فتجعلهم كأنهم يرون الله عز وجل، إن لم يكن ذلك بالبصر فبالبصيرة.

السؤال الرابع: في قوله تعالى :" أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" كما قلنا "أم" للإضراب أي دعك من الأدلة السابقة منها الكامنة في كيان الإنسان وحالات البؤس التي تعتريه وحالات الضرورة التي تلجئه إلى الله، وتعالى إلى هذا الدليل وهو :" من يهديكم في ظلمات البر والبحر " فكلمة الظلمات هذه تتضمن معنيين، وكلاهما مقصودان كما قال علماء التفسير

المعنى الأول: هو عندما يَجُنُّ الليل ويسدُل سُتُوره وأنت في فلآت منقطع وتساوت الأطراف التي من حولك كلها، عندها من الذي يهديك إلى الطريق الذي تريده، قديما كان الناس يهتدون بالنجوم، وبنجم القطب خاصة، وإلى الآن البحارة في بحارهم، والطيارون في طائراتهم فنجم القطب هو الذي يهديهم ويبصرهم بالأطراف المختلفة كلها ، والبارئ عز وجل صرح بهذا لما قال :" وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " الله تعالى يهديك بما خلق من أسباب يخرجك من هذا التيه ويضعك على متن الطريق، هل هذا مما

يفعله الأصنام أو مما يفعله المخلوق ؟؟ وهذه من مظاهر سنن الله تعالى في الكون، وهذه من بين الوظائف الكثيرة لنجوم.والآن من الذي جعل السماء مسخرة للأرض ومن عليها؟ ومن الذي جعل نجوم السماء مسخرة لطيار والبحار؟ هو الله سبحانه وتعالى.

المعنى الثاني:لكلمة الظلمات أي ظلمات التيه الذي يقع فيه الإنسان سواء ليلا أو نهارا، مثلا وأنت في عرض البحر وسط سفينة ترى كل شيء أزرق من حولك، وهنا يجد الإنسان نفسه حقيرا كبعوضة من البعوضات وسط عرض البحر داخل قبة من الزرقة،والله تعالى يجعل له هاديا من السماء وهو في عرض البحر.وهكذا القضايا العلمية فالبارئ حين يذكرها يدفعنا إلى البحث عنها، وللبحارة علم في هذا الذي نقول.والبارئ يدعونا إلى ضرورة إعمال العقل في الأمور العلمية وفي هذا تكريم لعقل الإنسان، أما عن الماضي السحيق والمستقبل فإن البارئ أعطانا معلومات مفصلة عن ذلك.

وهنالك معنى ثالث لظلام بينه لنا البارئ في سورة النور، وهو ما لا يعلمه إلا البحارة ويقع في المحيطات، حيث يكون الوقت نهارا فيهتاج البحر، وإذا بتحول ضوء النهار إلى ظلام دامس قبل أن يأتي الليل، وهو ما قاله الله تعالى عن أعمال الكفار:" أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ"هذا تصوير من الله عز وجل لواقع يعلمه البحارة ، وهنا البارئ يقصد أعمال الكفار بسبب استكباره كتلك الظلمات التي تظهر في المحيطات.

ـ ثم يقول تعالى :" وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ" أي من يجعل الرياح الهابة مقدمة لبشرى هطول الأمطار، كون الرياح أداة لنقل السحاب، فالبارئ يسألنا من الذي يفعل ذلك كله؟ هو الله تعالى الذي جعل لرياح وظائف عديدة.وربنا سبحانه وتعالى هو خالق السبب والمسبب كي نرى ظاهرة التنظيم والتي لابد لها من منظم، المراد بالرحمة المطر.والرياح لرحمة والريح للهلاك.ويسأل عقولنا بعد ذلك "أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ" أيوجد شريك مع الله؟ والمستعمل لعقله يعيش حالات وحدة الشهود حيث يرى الله في كل شيء وهو تائه عن المكونات وبصيرته ترى المكون وهو الله عز وجل.ثم يقول تعالى :" تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" تقتضي هده الصورة أن تختم بهذا، فالجواب ينطق به العقل أي تسامى وتنزه عما يشرك به المشركون مع الله.وفي كل عصر من يتخذ شركاء مع الله عز وجل، والمؤمن يقول تعالى الله عما يشركون.

السؤال الخامس: في قوله تعالى :" أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" في قوله تعالى " أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ " هذا استفهام فيه إشكال، وهو موجه للمستكبرين، وهم غير مؤمنين بإعادة الخلق؟ الجواب أن الله عز وجل بدأ بسؤال أخر آمن يبدأ الخلق والكل يؤمن بهذا سواء المؤمن أو المستكبر الملحد، لكن كيف وجدت؟ هنا اختلف الناس، والمؤمن يؤمن أنها وجدت من لا شيء والله تعالى هو الذي أوجدها من عدم، والجاحدون اعتمدوا على أفكارهم وتعددت عندهم أسباب الوجود.أفلا سألتم عقولكم من أوجدها، بعدها تسألون من يعيدها.نتابع في الدرس لقادم

(الدرس 62)

وفي قوله تعالى :" وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ" أي من يرزقكم من أسباب السماء وأسباب الأرض، وفي نهاية الآية يقول تعالى :" قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" نلاحظ أن في نهاية كل سؤال قرار يتناسب مع ذلك السؤال.في نهاية الأسئلة أكد البارئ أن هذه هي البراهين التي تدل على وجود الخالق عز وجل، والتي تدل على وحدانيته، والتي تدل على ألوهيته وأنه هو لا غيره المتحكم في الكون والمسيطر عليه، ويدير نواميسه كيف يشاء، وما ذكره تعالى كله يتضمن الأدلة والبراهين العلمية على هذه الحقيقة فما هي براهينكم أنتم على ما تصرون بالالتزام به وهو الإشراك بالله أو الإعراض عن الإيمان بالله سبحانه وتعالى.من المفروض وقد متعكم الله بالعقل والإدراك أن لا تدلوا بقرار سلوكي أو فكري إلا اعتمادا على عقل ورشد، أي اعتمادا على علم.فما هو دليلكم العلمي الذي اعتمدتم عليه في إعراضكم عن هذا الحق الذي جاء به المصطفى ﷺ وحيا من عند الله سبحانه وتعالى؟ ولما طرح المصطفى هذا السؤال للمشركين، لم يأتوا بأي دليل أو برهان، وكان دليلهم تقليد آبائهم وأجدادهم، وقولهم المتكرر :" إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ "

خلاصة: فربنا سبحانه وتعالى يلفت نظرنا بعد أن متعنا بالعقل إلى أن الإنسان ينبغي أن يتحرر من التقاليد وإتباع السابقين متأثرا بما يسمى التراث أو غير ذلك، وينبغي أن يستبدل بذلك العقل والعلم.وهذه الحجاج التي يواجه بها البارئ المشركين والملحدين إلى يوم القيامة، هي دعوة للعقلاء من الناس إلى أن يتحرروا من إتباع الآباء والأجداد، وأن يتحرروا من رعونتهم وعصبياتهم، وأن يتبعوا رائدا واحدا لا ثان له هو العقل ومن تما فهو العلم.فإذا أردنا أن نتبع ما يدعونا إليه بيان الله سبحانه

وتعالى فلسوف نجد أنه علينا بناء على قرار العقل وما يوصلنا إليه من حقائق العلم، أنه علينا أن نجدد البيعة لله عز وجل، وعلينا أن نقول بملء قناعاتنا وأفكارنا وإن لم ينطق بذلك لساننا آمنا بالله عز وجل ربا لا شريك له، وآمنا به قيوما أوحد لسموات والأرض، وآمنا به الخالق والرازق، وآمنا به الإله الذي يستجيب دعاء المضطر، والذي يكشف السوء، والذي يرزقنا من السماء والأرض، والذي يأتينا في ظلمات البر والبحر، والذي خلق فسوى، والذي أقام لنا من هذه الدنيا التي من حولنا شواهد، ويرسل لنا دائما رسائل حب تجعلنا نتجه إليه بشوق والود والحب.وهذه هي ثمرة الآيات التي أصغينا إليها.

وبيعتي لله هي ما علمنا البارئ في محكم آياته في قوله تعالى :" قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ" علينا أن نثبت على هذه الحال إلى أن نلقى الله عز وجل. وهذا السبيل هو الذي يسعدنا ويحقق لنا الأمن والرخاء والطمأنينة، ويمد الجسور بين الناس بالأنس والحب والتعاون والوئام، والله تعالى يريد لعباده اليسر ولا يريد لهم العسر.وما استطعنا فعله فنسأل الله القبول وما لم نستطع نسأله تعالى العفو، ومعترفون بتقصيرنا.وخلقنا في هذه الحياة لعبادة الله وتطبيق شرع الله سبحانه

الشيخ أخذ في حديث مستفيض على ضرورة تطبيق العدالة الاجتماعية لدولة الإسلامية تطبيقا لشرع الله تعالى.وضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية بكليتها من أحكام وقوانين بما يرضي الله تعالى... ويمكنكم الرجوع إلى الدرس من الدقيقة 30 إلى الدقيقة 47.

ـ ثم إن الله عز وجل عقب على هذا الحوار بهذه الخاتمة، قال :" قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ " وعلاقة هذا بقوله تعالى :" :" أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ " قلنا عن إيجادهم السؤال وارد من الذي أوجدكم؟ لكن عن الإعادة فهم ينكرونها... وقد يسألوا متى تكون هذه الإعادة يا محمد؟ أي متى سيكون هذا اليوم الذي تكرر الحديث عنه وتكرر تخويفنا منه؟ فالبارئ عز وجل أجابهم بهذا الكلام، أي قل لهم يا محمد أنه لا يعلم الغيب إلا الله وميقات يوم القيامة لم يطلع عليه الله أحدا أبدا، وكل أمر مستقبلي لم يولد من ظلمات الغيب بعد لا يعلمه إلا الله، وهذا كلام علمي قبل أن يكون ديني، ومن تما فهو كلام ديني.والعلم نهائيا لا يقول بمعرفته لشيء الذي لم يوجد بعد، رغم أن العلم يقول أن التجارب تدلك أن هذا الشيء سيقع وتعطيك قناعة، أي مثل ما تحقق في الماضي مليون مرة، الآن أيضا يمكنه أن يتحقق، وهذا اسمه

قناعة وليس بحقيقة علمية، لأنك لا تعلم يمكن أن تحدث خارقة تمنع من وقوع هذا الشيء أم لا، لهذا هبطت المسألة من القرار العلمي إلى درجة الظن.ومن تما فإن كل حقيقة لم تولد بعد، ولكن نتوقع أن تولد قياسا على مرات كثيرة سلفت فهذه نتوقعها وندركها لكننا لا نعلمها يقينا أبدا.إذا هناك يقين تدريبي وعلى أساسه نقيم شؤون الحياة، ولا يوجد يقين علمي.

(الدرس 63)

وصلنا إلى الآية الأخيرة من النص الذي انتقيناه من سورة النمل والذي يتضمن موضوع الحجاج والنقاش، مع المشركين بأدلة كونية متنوعة منها المتعلقة الأكوان ومنها بالذات والمتعلقة بتقلب الليل والنهار، والمتعلقة ببداية الخلق وإعادة الله سبحانه وتعالى له، ويختم البيان الإلهي هذه الآيات وما تضمنته من الحجاج والنقاش بقوله عنهم :" بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ" هذه الآية بإضراباتها الثلاثة بـ "بل" تصور بطريقة عجيبة ودقيقة حال الملحد عندما يأخذه الاضطراب ويرده، وهو يتقلب مدافعا عن إلحاده في أحوال متنوعة مختلفة.حيث يقول الله عز وجل بعد أن أغلق باب الأسئلة الحوارية التقريرية الدالة بأدلة علمية على وجود الله وعلى ربوبيته، وعلى أنه وحده المتصرف في هذا الكون قال :" بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ" بل للإضراب أي دعك من الكلام الذي قلناه وانتهينا منه، فالقصة أن هؤلاء يعتقدون أنهم قد جمعوا العلوم كلها وأحصوها، وأن الدلائل العلمية على معتقداتهم الباطلة متوالية ومتتابعة، تدرك الحجة الثانية الحجة الأولى والتي سلفت، وتدرك الحجة التي تليها الحجة التي قبلها، هذا معنى:" ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ" فماذا تنتظر من أناس هكذا يعتقدون وهكذا تشمخر أنوفهم، وأنت تعرض أمام الواحد منهم الأدلة العلمية المختلفة ولكنه يشيح بوجهه عنك، ويقول أنا عندي أدلة علمية أضعاف هذه التي تسوقها، فهذه أكل عليها الدهر وشرب، فأنا رجل علم... فالأدلة العلمية عنده يدرك بعضها بعضا متراكمة عنده، وهو غني عنك.فعلمهم عن الآخرة علم غزير وهي سلسلة حجج تتبع أخراها الأولى وتتدارك كلها مجتمعة في ذهن هذا الإنسان على بطلان الآخرة فيما يزعم.

ـ ثم قال البارئ:"بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا" هذه الحالة الثانية التي تعتري الملحد، حيث عندما يجلس إليك ويناقشك يتباهى بعلومه التقنية والفكرية وآخر النظريات التي تتحدث عن أصل الكون وأصل الإنسان، ونهاية الكون وما إلى ذلك، وآخر النظريات التي قرأها لفلان وفلان... وإذا انفض المجلس

وذهب إلى حال سبيله عاد يفكر، وإذا بشكوك تطوف بذهنه.وهذه هي حقيقة الملحد فعلا.الكافر والمشرك والملحد قادهم إلى ذلك كله الاستكبار. وهذه الشكوك تأخذه وترده.

ـ ثم قال البارئ :"بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ" هذه مرحلة أخرى، حيث إذا تطاول أمد الشك عنده، وتطاول أمد الريبة بالحجج التي كان يطرحها في المجلس، فهذا الواقع وهذا الاضطراب يزجه في عماهة مطلقة، وحالة من الظلام، فهو يعلم أنه لا يتعامل مع حجج علمية مشرقة، وإنما يتعامل مع ذبذبات تتراءى أمامه ضمن الظلام الدامس.

هكذا يقرر البيان الهي حال هؤلاء الجاحدين، وهكذا يسدل الستار على الحوار معهم.

ويقول الدكتور أنه ابتلي بمناقشات مع أمثال هؤلاء الملحدين كلها تجسد مصداق قوله تعالى في هذه الآيات.

نضرب على ذلك أمثلة: نظريات التطور عن أصل الإنسان، وهي ثمرة الإلحاد الذي أحدث فراغا لديهم، وهم يتساءلون من هو هذا الإنسان؟ كيف وجد بهذه المزايا الغريبة؟ وكيف بإمكانه أن يتحكم بهذا الكون ؟وو هذا هو الفراغ.ولا يؤمن بالله حتى يسد إيمانه هذا الفراغ، ويجيب عن هذا السؤال.وكيف يملأ هذا الفراغ؟ والملحد يرى أنه يتمتع بالعلم، وأن الإيمان لا علاقة له بالعلم.وإلى الآن من يعتقد أن النهج العلمي بعيد عن الدين والعكس أيضا.أي عليك أن تختار العلم أو الدين.

وهذا الملحد يقول أن أصل الإنسان كان كذا وكذا ويأتي بنظريات الواحدة تلو الأخرى، من لامارك إلى داروين فداروينية الحديثة، والآن نظرية رابعة، ويأتيني هذا الملحد وقد ملأ ذهنه بهذه النظريات ويأتيك بأدلة كثيرة ليسكتك هذا معنى :"بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ" ثم إن هذا الإنسان يذهب ليخلو مع نفسه وساعة الاستكبار ذهبت حيث لا أحد أمامه، ويقول في نفسه الطبيعة والمناخ كلاهما يؤثر على الشكل، مثل حيوان يأكل طعام لا يحوجه إلى المضغ ،عندها الأسنان قليلا قليلاً تضمر، وحيوان لا يظهر إلا في الليل وبتالي لا يحتاج إلى بصر قوي تضعف قوته تماما، ولكن نحن نتحدث عن هذا الإنسان ذو القائمة المنتصبة والفكر الثاقب، ونفترض أنه كان في يوم ما من الحيوانات الزاحفة، أو من الحيوانات الهلامية، وكيف تحول من زاحف إلى حيوان يمشي على أربع ثم إلى حيوان يمشي على اثنين؟ فالمناخ لا يؤثر في هذا.يبدوا أنها نظرية خاطئة لا ليست خاطئة... متردد، هذا واقع تماما لكن بينه وبين نفسه، ويقول في نفسه ربما هؤلاء الإيمانيون كلامهم صحيح، حيث قالوا مادامت الطبيعة هي التي أوجدت هذه الأصناف من الحيوانات فلما أوجدت القوي

والضعيف ثم أفنت الضعيف وأبقت الأخر من البداية لا توجده، وإذا كانت ليست هي فلا تستطيع أن تتدخل في إبقاء البعض وإفناء الأخر، وهكذا يعيشون في تردد .كما قال تعالى عنهم :" بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا" وفي الأخير يغلقون هذا الباب كليتا ولا يفكرون فيه، لأنهم في عماهة ولا يصغون إلى الحقائق العلمية الصحيحة تماما، والتي قالها رب العلوم وخالقها كما قال عنهم تعالى:" بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ" وهكذا حالهم عندما يرحلون إلى الله تعالى وهم على هذه العماهة.

أما نحن فنحمد الله عز وجل مِلأَ الأرض إلى عنان السماء، ولو جاز لنا أن نكتب هذا الحمد وبلغنا به عنان السماء لفعلنا، على أن أكرمنا بهذه العلوم الحقيقية والتي دلتنا على الله، والتي أورثتنا الإيمان بالله، والتي عرفتنا على أنفسنا، والتي عرفتنا على قصة هذا الكون من أوله إلى منتهاه وعلى مراحل التي نعيشها في هذا الكون، بين مرحلة مضت ومرحلة مقبلة آتية.ولله الحمد نحن الذين أورثنا الله عشق العلم، وعلمنا أن لا نتجاوز العلم بقوله :" ولا تقف ما ليس لك به علم ".وهكذا نكون انهينا شرح النص الأخير في المناقشة والحجاج.

وهكذا نكون انتهينا من سلسلة دروس علوم القرءان من خلال كتاب " من روائع القرءان "

خاتمة: رحلتنا هذه في دراسة هذه الموضوعات الغرض منها أن نزداد معرفة بهوياتنا، وأن نزداد معرفة بربنا، وأن نزداد حبا له وتعظيما وبتالي تمسكا بأوامره وشرعه وأحكامه.وقد امتلكنا الآن الأدلة العقلية والمنطقية الباهرة على أن هذا القرءان ليس كلام بشر، وإنما هو كلام مولانا وخالقنا عز وجل، ومررنا بأدلة كثيرة عن هذا، ونحن نتحدث عن أسلوب القرءان، وعن مظاهر الإعجاز في القرءان، وعن مظهر جلال الربوبية في القرءان، ونحن نتحدث عن مظاهر التربية والتي يأخذنا القرءان من خلالها إلى معانقة العلم، والابتعاد عن التقليد بكل أشكاله وأنواعه المختلفة.كل ذلك زادنا يقينا لا يأتيه الباطل ولا يتسرب إليه الريب أو الشك بأن هذا القرءان كلام الله عز وجل.ومن خلال تلاوتنا لكتاب الله تتبين هوياتنا، وتعلم أنك عبدا مملوك لذات الله سبحانه وتعالى، تتحرك في قبضته منه ابتداؤك وإليه انتهاؤك.ومنه يمتلئ كيانك أنه ما أمرك وما نهاك إلا لما فيه مصلحتك.

ويقول "العز ابن عبد السلام" في كتاب له :" إذا قرأت قوله يا أيها الذين آمنوا، أصغي السمع جيدا فإنه لن يأمرك ولن ينهاك إلا بما فيه خيرك وسعادتك "

ونصيحتي إليكم قراءة القرءان بتدبر جاعلا لنفسك وردا دائما، وقال العلماء :" إذا أردت أن تصغي إلى مخاطبة الله لك فاقرأ القرءان " وهو كلام الله الموجه إليك.ونصيحة أخرى ما ينبغي أن

نستخدم القرءان في غير ما أنزل لأجله، بحيث نجعل من القرءان ترجمان حزن دخلت في دار معينة.وهذا أمر يكاد يصل إلى درجة الكفر.لذا علينا أن ننزه كلام ربنا عن ما لا يليق.ويدخل في هذا أيضا الاستخفاف بالقرءان وهذا عندما نجد كثير من الناس إذا دعوا إلى مناسبة ما وخاصة عقد قران، يفكرون في إهداء القرءان، والذين يأخذون هذه الهدية وهي القرءان منهم من لا يصلي، ومنهم من يلقيه جانبا ووو حالات كثيرة، ويزداد بذلك إهانة له، ومن الذين يوزعونه أيضا من لا يقرأه أبدا.وأصبح بذلك القرءان منافسة تجارية لطبعه بألوان وزخارف متنوعة، نسأل الله العفو والعافية وعلينا أن ننزه القرءان من هذا.وهذه النصائح ثمرة لسلسلة هذه الدروس ونسأل الله أن ينفعنا بها دنيا وأخرى.

تما بحمد الله تعالى تلخيصي لهذه السلسلة المباركة حيث عشت معها أجواء روحية سامية علوية، في تدبر وفهم آيات كتاب الله العزيز، ونسأل الله تعالى النفع الجزيل وقبول جميع الأعمال، و نرجو منكم الدعاء الخالص في ظهر الغيب لشيخنا وقرة أعيننا ولنا وللأمة الإسلامية جمعاء.وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين